المسلمون بين التحدي والمواجهة

من أجل انطلاقة حضارية شاملة

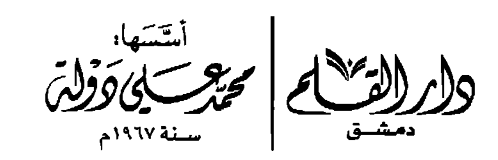
أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع



بقلم
أ. د. عبد الكريم بكّار




من أجل
إنطلاقة حضارية شاملة
أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع



الطبعة الرابعة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

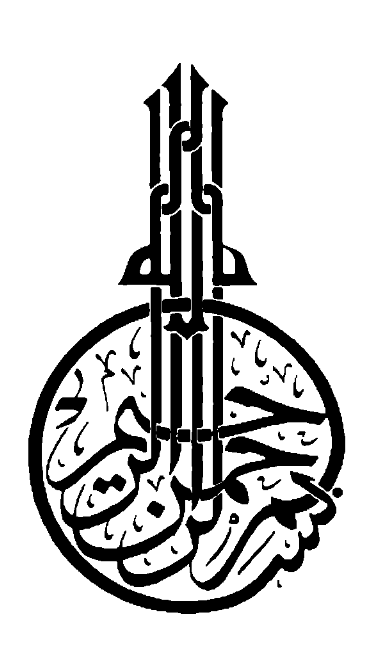
المسلمون بين التحدي والمواجهة

من أجل انطلاقة حضارية شاملة

أسس وأفكار في التراث والفكر والثقافة والاجتماع

بقلم
أ. د. عبد الكريم بكار

دار القلم
دمشق



مقدمة

الحمد لله وليّ كلّ نعمة، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار الطيبين وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من السلسلة التي عمدنا إلى إخراجها بعنوان: (المسلمون بين التحدي والمواجهة). وكنا قد خصَّصنا الجزء الأول منها للحديث عن الواقع الذي تعيشه أمة الإسلام على المستوى المعنوي والمادي. ورأينا أن نفرد هذا الجزء للحديث عن أهم الأسس والشروط الضرورية التي يجب أن نوفّرها؛ كي نتمكن من نهوض حضاري عام لإصلاح شئون الدين والدنيا.

وقد صح العزم على تخصيص هذا الجزء، لبحث قضايا نراها مهمة، في الجوانب الفكرية والثقافية والأخلاقية والتربوية؛ حيث إن هذه الجوانب شهدت إصابات التخلف الأولى قبل الجوانب العمرانية والتنموية والمادية..

ومن هنا فإننا نعتقد أن تحضير الإنسان شرط أساسي، وسابق على إشادة العمران. وما لم ننجح في ذلك، فإن جهودنا في إعمار الأرض ستكون ضعيفة الثمار، محدودة النجاح. بل إن كل إنجازات الإنسان على الصعد المادية والعمرانية على مدار التاريخ كان يتم تدميرها بسبب حماقات الإنسان ورعونته وانحرافه عن الصراط المستقيم!.

ولا يعني هذا أننا لا نلقي بالاً للأحوال المعاشية والاقتصادية، فنحن سنتحدث عن ذلك في جزء قادم من هذه السلسلة بعون الله؛ ولكن ذلك

يشير بوضوح إلىٰ أن الإنسان في مذهبيتنا[1] هو مركز الكون، وأن حضارتنا إنسانية النزعة أخلاقية الوجهة.

ولا نزعم أن كل ما سنقوله في هذا الكتاب، أو أكثره من الطارف المستجدّ، أو مما وقع عليه الإجماع بين الباحثين والمفكرين. فاتساع المعرفة وتراكمها يجعلان مساحات الجديد ضيقة. والفكرة التي تستحوذ علىٰ الإجماع تستنفد جزءاً من طاقتها الإبداعية[2]، وتتهيأ للدخول في مرحلة التقادم والاضمحلال. وإن من الوظائف الأساسية للأفكار الجديدة إثارة الاهتمام والجدل، وتحفيز التساؤل، ومسّ طيوف الأفكار العميقة لدىٰ القارئ. وإني لأرجو أن يكون لهذا الكتاب سهم في هذا.

وأسأل الله ـ جلّ وعلا ـ أن يوفّقني لما هو خير وأبقىٰ.

أ.د. عبد الكريم بكّار

---

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣].

(٢) إن المبادئ الكبرىٰ تستمد عظمتها من خلودها ودوامها. وهي تمثل المحاور التي تدور في فلكها الأفكار الصغرىٰ والمعلومات الجزئية. وهذه الأخيرة تظل عرضة للتجاوز الإنساني؛ فهي كالثمرة حتفها في نضجها!.

جرح الكبرياء

حين فتح مسلم القرن الرابع عشر عينه علىٰ الحياة، وجد الأمّة في وضع لا تحسد عليه؛ حيث كان المسلمون في حالة من الانحطاط الشامل، ومظلة الدولة العثمانية آخذة في التمزق، علىٰ حين كان المواطن الغربي آنذاك يحمل في جيبه خريطة العالم؛ ليختار المكان المناسب لمدّ خرطومه، والبدء في رشف خيراته[1].

وكانت معرفة الإنسان المسلم في ذلك القرن بالقراءة والكتابة محدودة، كما أن آلات الطباعة وإفشاء المعرفة، لم تكن متيسرة علىٰ نحوٍ كاف؛ مما جعل معرفة المسلمين آنذاك بتراثهم محدودة جداً، ومما جعل الوعي بواقعهم وواقع الآخرين لا يفرز سوىٰ الذهول والحيرة والانبهار. وشرع الناس من ذاك اليوم في التعرف علىٰ التراث، ومحاولة استخراج خير ما فيه من قيم ومواقف وإنجازات ومعارف، بغية صدّ الهجمة الشرسة التي تعرضت لها الثقافة الإسلامية.

وقد نجحنا في ذلك إلىٰ حد بعيد؛ لكن كان يواكب النجاح علىٰ المستوىٰ الفكري والثقافي نوع من التمزق لمشاعر المسلم ونفسيّته؛ حيث إن تعرفه علىٰ عظمة الحضارة الإسلامية، وعلىٰ الواقع الإسلامي البائس، أوجد في نفسه جرحاً سيظل يتعمّق، ويتسع علىٰ مقدار اتساع الهوة الفاصلة بين أمجاد الماضي وانكسارات الحاضر! ومما يزيد في ذلك التمزق وطء المشكلات

---

(١) حكايتنا مع الاستعمار الغربي بدأت بوفود المبشرين، ثم تبعهم العسكر، ثم تلاهم التجار والشركات المتعددة الجنسيات. وهكذا فإن الكنيسة التي طُردت من أوروبا جاءت لترتاد لمواطنيها مراتع الخصب!.

اليومية التي يعاني منها المسلم أينما حل؛ إذ كيف سيهدأ روع المسلم وهو يرىٰ أبناء الأمة الواحدة يشرعون أسلحتهم في وجوه بعضهم بعضاً؟. وكيف ستكون مشاعر الشاب اليافع الذي ذهب في الصيف إلىٰ أوروبا؛ ليخدم في مطاعم لندن وباريس، ليرىٰ نفسه مضطراً لأن يغسل أطباقاً وكؤوساً قدّمت فيها لحوم الخنزير والمسكرات وهو يرىٰ بلاده مكبّلة بالديون للبلدان الأجنبية؛ كما يرىٰ الظلم الاجتماعي باسطاً أجنحته في أكثر بلاد الإسلام. . . . ؟!!.

ومع هذا فينبغي أن يقال: إن هذا الشعور بالاستلاب الروحي والمادي، والشعور بالعدوان الصارخ من قبل الحضارة الغربية، هو الماء الذي سوف نتطهر به من أخطائنا وخطايانا التي ارتكبناها عبر التاريخ، تماماً كما تجد الروح في ثقل الجسد عليها المسوّغ للخلاص منه!.

وجاءت الصحوة الإسلامية المباركة؛ لتكون مكافئة لذلك الاستلاب؛ ولتعبّر عن حيوية هذه الأمة في تجاوز الوهن؛ ولتعلنَ الاستنكار لكل أشكال التجاوز التي ما زالت تتكرر في حياتنا الاجتماعية.

وإن مما يؤسف له أن كثيراً من الكتّاب والباحثين في العالم الإسلامي عمدوا إلىٰ تفسير حركة الإحياء الإسلامي الضخمة بسبب واحد، هو البؤس الاقتصادي. وهم بذلك يجردون المسلم من الشعور بالكبرياء، والأنفة والإحساس بالواقع والتاريخ؛ ويجعلون منه إنساناً أشبه بالسائمة؛ لا تضطرب في قيودها إلا حينما يعضها الجوع!!.

ولو أن سبب هذه الأوبة الشاملة، هو الفقر وسوء أحوال المعيشة، لما كان ثمة معنىٰ لانتشارها في المجتمعات الثرية؛ ولما كان ثمة معنىٰ لالتزام كثير من الشباب الثري في شرق العالم وغربه؟.

بل كيف يمكن آنذاك، تفسير دخول كثير من أبناء الدول الصناعية المتقدمة في الإسلام، وهم بعيدون عن الشعور بمعاناة شعوبه[1]؟.

---

(١) يذكر الرئيس الأمريكي الأسبق (نيكسون) أن الازدهار الاقتصادي في العالم الثالث ـ ولا سيما العالم الإسلامي ـ وحده لا يكفي؛ وأن الشباب هناك لا يبحث عن مزيد من الحرية أو الوظائف، وإنما يريدون شيئاً يؤمنون به أكثر. نصر بلا حرب: ٣٠٨.

وعلينا أن ندرك بعد هذا وذاك أن الشعور بالكبرياء والاعتزاز بأمجاد السلف، لا يمكن أن يظل شيئاً ثابتاً ومحفزاً، ما لم نصلّبه بالمعارك الحضارية الناجحة التي نثبت من خلالها استحقاقنا لخلافة السلف، والمضي بحمل رسالة الهداية إلىٰ آخر الطريق.

إن هذه الأمة قادرة بحول الله علىٰ تصحيح أخطائها، وتجاوز العقبات التي تعترض سبيلها، ما دامت تحمل رسالة الإِسلام، وتتصدىٰ لمهام الهداية الجسام؛ وإن كانت سنة الابتلاء ستجعلها لا تخرج من معركة إلا لتدخل أخرىٰ. ولكن عصا المعول التي تهدم في صرح الإِسلام تحمل في أحشائها نواة لوريقة تحنُّ إلىٰ التوحيد، وتصدح به!.

مثاقفة التساؤل

ترتبط درجة التساؤل وحركته بدرجة الوعي الذاتي؛ فعلىٰ مقدار وعينا بذاتنا والواقع الذي نعيشه، تتشوّف النفس إلىٰ معرفة الخيوط التي نُسج منها ذلك الواقع، ومعرفة العلل والأسباب التي كانت وراء (الصير) الذي انتهت إليه التفاعلات والتطورات التاريخية المختلفة.

وعلينا أن نشيع قبل كل شيء روح التساؤل في كتاباتنا ومنتدياتنا وأسرنا حول الجذور والأسباب التي أدت إلىٰ الحالة الراهنة التي تحياها الأمة. فالعالم الذي نعيش فيه هو عالم الأسباب. وعدم وقوفنا علىٰ السبب في بعض الأحيان لا يعني عدم وجوده، بمقدار ما يعني عدم نضجنا لإِدراكه والاستحواذ عليه.

وتبدأ حركة التساؤل بالطفل الذي نربيه؛ حيث إنه يتذرع إلىٰ فهم المحيط الذي يعيش فيه بسيل من الأسئلة. فمن واجبنا أن نشجعه علىٰ التساؤل، ونكون موضوعيين في إجابته. فما نعرفه نقوله. وما لا نعرفه نعده بالإِجابة عليه عندما نتعلمه.

وإذا كان عقله قادراً علىٰ شيء من الموازنة، قلنا له: ربما كان السبب كذا، وربما كان كذا، ولعله يظهر لنا في المستقبل أنه كذا وكذا...

والبديل عن إجابته هو كبت تفتحه، وإضعاف ملكة الاستفهام لديه، أو إشباعها عن طريق اللجوء إلىٰ التخيل، ثم وقوعه فريسة للأساطير والخرافات السائدة في المجتمع.

وقد جرت عادة كثيرين بأن يضيقوا ذرعاً بأسئلة طلاب العلم وغيرهم

واتهامهم في بعض الأحيان بمحاولة إثارة فتنة، أو تعجيز عالم، أو بعث شكوك! .

ولا مناص لنا ونحن نحاول فهم الواقع التاريخي من تجزئته إلىٰ مراحل، ثم محاولة النفاذ إلىٰ الإلمام بالعناصر الفاعلة في تشكيل كل مرحلة، والظواهر التي نرىٰ أنها مخالفة للمنهج الرباني الذي يدين به المجتمع المسلم، ثم محاولة استكناه الأسباب التي أدّت إلىٰ ولادة تلك الظواهر، ثم رصد ردود الفعل في تلك المرحلة، ومحاولة تعليل أسبابها.

وهذا التشريح للحوادث التاريخية والظواهر الاجتماعية، يجب أن يتمّ علىٰ الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية كافّة.

وبعد دراسة ظواهر كل صعيد، نلتفت إلىٰ رصد العلاقات الجدلية بين الظواهر المختلفة علىٰ كل صعيد، ثم رصد حركة الجدل بين الظواهر التي تنتمي إلىٰ صعيد ما، مع الظواهر التي تنتمي إلىٰ صعيد آخر.

فنرىٰ ـ مثلاً ـ ما آثار الحوادث السياسية في الاقتصاد، وما أثر الحالة الاقتصادية في الظواهر الاجتماعية، وما حصيلة كل ذلك في الحالة الثقافية. . . ؟

ولا تعفينا هذه الدراسات في الحقبة الواحدة من القيام بدراسات أخرىٰ (طولية) نتتبّع فيها سيرورة وأطوار المشكلة أو الظاهرة الواحدة عبر تاريخنا المديد، أو عبر مراحل عديدة منه، مع محاولة فقه الأسباب والعوامل التي كانت تؤدي إلىٰ اشتدادها أو خمولها أو اندراسها. . . فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر لو أردنا دراسة ظاهرة الفقر التي كانت تجتاح كثيراً من المجتمعات الإسلامية في حقب كثيرة، وجب علينا أن نتعرف علىٰ مظاهر الفقر في كل مرحلة، ابتداء بالمفاهيم التي حكمتها، وانتهاء بالموارد المتاحة، والسياسات التي كانت متبعة في علاجها. ثم نحاول بعد ذلك معرفة الآثار التي تركتها، في الجوانب الحياتية المختلفة التي انفعلت بها، وذلك كرصد أثر الفقر في طلب العلم، وتجهيز الجيوش، ورعاية الأيتام، وانحسار الفاعلية الفردية، والظلم والنفاق الاجتماعي. . .

إن هذه الدراسات المعمّقة والمكثّفة، ستمثل نوعاً من المقاربة للحصول علىٰ جواب علىٰ السؤال الكبير الذي يطرحه كل من يملك حظاً من الوعي؛ ألا وهو: ما الذي هبط بأمة قادت العالم قروناً إلىٰ أن تصبح في الحضيض، لا سيف ولا قلم؟!

وهذه الدراسات التي نقترحها شاقة للغاية؛ حيث إن القيم التي نؤمن بها، ومنهجية التفكير التي يستخدمها كل واحد منا ـ وهي بالطبع متفاوتة ـ ستلون رؤيتنا للماضي، وتجعل الخلاف في فهمه قريباً من الخلاف في فهم الواقع.

ومهما تكن النتائج مختلفة أو متقاربة، فإن المردود علىٰ الساحة الفكرية سيكون في منتهىٰ النفع والإفادة.

إن لدينا جيوشاً من طلبة الدراسات العليا، الذين يبحثون عن موضوعات لرسائلهم، كما أن لدينا باحثين كثيرين يمكنهم القيام بذلك؛ ولكن يشترط أن يسبق ذلك نوع من الرسم والتحديد لمنهجية البحث وأطره وأهدافه. ويمكن أن تتولىٰ ذلك بعض إدارات الدراسات العليا في الجامعات العربية والإسلامية. كما يمكن أن نعقد الندوات والمؤتمرات للتداول في شأن تلك المنهجية.

هذا العمل الشاق ربما كان السبيل الوحيد لفهم التاريخ، والإجابة علىٰ السؤال الكبير.

وتنبع أهمية الإجابة علىٰ هذا السؤال من أننا إذا لم نستطع أن نقارب بين رؤانا للماضي، لم نستطع أن نتقارب في فهم الحاضر. وإذا لم يتوحد أو يتقارب تقويمنا للماضي والحاضر، فلن نستطيع أن نخطط للمستقبل، ولا أن ننجز فيه ما نطمح إليه.

ولا يقتصر الضرر علىٰ العجز عن التخطيط للمستقبل؛ بل يمسُّ شيئاً أهم من ذلك بكثير؛ وهو استحقاقنا لتسمية شعب أو أمة واحدة؛ إذ ليس الشعب حشداً عشوائياً من البشر، يعيش في دولة واحدة، علىٰ بقعة

واحدة؛ وإنما هو قبل ذلك: «مجموعة بشرية تقل، أو تكثر، يشترك أفرادها في تقييمات واحدة أو متقاربة، تتعلق بجزء أو بكلية من مستويات النشاط الاجتماعي الذي يجمع بينهم ويتعمق التجانس داخل الشعب بقدر ازدياد مساحة هذا التقييم المشترك...»[1]. وذلك لأن التقييم المشترك للأنشطة والأحداث المختلفة هو - في الواقع - الناتج النهائي لكل الوشائج وأوجه التجانس والترابط التي تجمع بين أفراد مجموعة بشرية.

(١) نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة: ١٢٣.

إدراك الواقع

عرضنا في الجزء الأول من هذه السلسلة إلىٰ العديد من المؤشرات التي يمكن أن تساعدنا في رسم صورة للواقع العام الذي تعيش فيه أمة الإِسلام. وهو واقع - في مجمله - لا يسر صديقاً، ولا يغيظ عدواً.

لكن علينا أن نعترف أن ما كتبناه، وما كتبه غيرنا من بحوث ودراسات عامة، تتحدث عن عموميات الواقع الإِسلامي - لا يعدُّ كافياً لفهم ذلك الواقع بشكل مقبول، حيث إن لكل قطر من بلاد الإِسلام خصوصيات المكان والمرحلة والإِمكانات والمشكلات. . . . وهذا يجعل ترتيب الأولويات في العلاج متفاوتة بعض الشيء. ولذا فإن مهمة الدراسات العامة ليست أكثر من وضع الأصبع علىٰ بعض مواطن الخلل والقصور، والإِشارة إلىٰ وجوه الحلِّ والعلاج. أما الفهم الذي يراد منه التشخيص الدقيق؛ فإن من المستحيل استفادته من آراء شخص أو دراساته، مهما بلغت من السعة والدقة.

وقد مضىٰ علىٰ المسلمين أكثر من قرن ونصف، وهم يحاولون تحديد أهم الأدواء التي تفتك بمجتمعاتهم، وتحديد المحوري والأساسي منها؛ دون الوصول إلىٰ محددات قاطعة؛ تصلح لبناء برامج عمل عليها. ولعل المؤتمر الوهمي الذي جمع فيه الكواكبي بين مندوبين من أقطار العالم الإِسلامي والأقليات الإِسلامية؛ لتدارس أحوال المسلمين خير دليل علىٰ التشتت الذي يصيبنا، عند محاولة تشخيص الواقع، ورسم تفاصيله؛ حيث ذهب كل واحد من المندوبين إلىٰ تحديد السبب الأعظم في ركود الأمة وانحطاطها علىٰ نحو يخالف ما ذهب إليه

الآخرون[1]. والسبب في ذلك أن الإنسان ـ مهما بلغ ـ أضعف من أن يحيط بالواقع؛ وذلك لأن الواقع في حد ذاته (انفلات)، وهو بمثابة (الهيولىٰ) في الفلسفة اليونانية القديمة. ولا بد من الصورة العقلية حتىٰ يمكن استيعابه وضبطه والتعامل معه. والصورة العقلية تلك مكوَّنة من عناصر المعرفة العلمية والقيم الاجتماعية معاً، أي: المنهج والآمال والأهداف والرؤية العقائدية جميعاً، الكامنة أو المعلنة عند الباحث. فنحن لا نستطيع أن نعرف هذا الواقع ـ كما هو الشأن في كل العلوم ـ إلا من خلال النظرية التي نصوغها عنه. ولا تظهر مصداقية تلك النظرية إلا من خلال ما تثبته بالتجربة من فاعلية ذلك الواقع الذي تعيِّنه، وتطرح علىٰ نفسها ضبطه والتحكم به. وإذا أثبتت النظرية بعد فترة طويلة من التجربة أنها غير قادرة علىٰ توجيه الواقع الذي تدعي التصدي له أو تغييره، فإنها تهجر تلقائياً من قبل العاملين بها، ويصار إلىٰ نظريات أكثر صلاحاً[2].

وناتج قرن ونصف من التنظير للواقع الإسلامي يدل علىٰ أن الصورة العقلية التي بنيناها عن واقع الأمة لم تستحوذ علىٰ جميع عناصره؛ وبالتالي فإنها لم تحكه لنا حكاية صادقة ودقيقة؛ حيث لم يتوصل الباحثون والمفكرون لدينا ـ حتىٰ أولئك الذين ينتمون إلىٰ تيار واحد ـ إلىٰ تحديد ملامح المشكلات الكبرىٰ، وإدراك أسبابها الجزئية، والعلاقات الجدلية التي تتبادلها بينها. فالأسئلة التي طرحت قبل قرن ونصف، والأجوبة التي صدرت عليها، لا تختلف في جوهرها عما نتداوله اليوم!!.

وفي تقديري أن القصور في (الإشكالية) أو الطريقة التي نحاول لملمة الواقع، وتكوين صورة عنه بواسطتها، يعود إلىٰ عوامل عديدة أهمها:

---

(١) ألف الكواكبي في أبحاث المؤتمر (المتخيَّل) كتاباً سماه: (أم القرىٰ). وقد طبع غير مرة.

(٢) انظر نقد السياسة: ٣٧٢، ٣٢٨. وتسمىٰ الطريقة التي تُنتج من خلالها الصورة العقلية بـ(الإشكالية). ولا ضرورة لأن تكون مطابقة للواقع.

١ ـ إن المعلومات التي تصور الواقع تصويراً جيداً ليست متوفرة على الوجه المطلوب. وهذا نابع أساساً من حالة (التخلف) العام التي تهيمن على حياة الأمة؛ فهي لا تساعدنا على الاهتمام بالمعلومات والأرقام باعتبارها المدخل الحقيقي لتشكيل أي موقف[١].

وإذا ما حدث وجود اهتمام بـ(الرقم) وجدنا أن الإمكانات المتاحة لا تساعدنا على القيام بالإحصاءات اللازمة. وهذا القصور في عمليات الإحصاء عام عند الدول والجماعات والأفراد. فهناك ـ مثلاً ـ دول كثيرة لا تعرف شيئاً عن حجم البطالة الموجودة لديها؛ مما جعل إمكانية رصد إفرازاتها، أو معالجتها وتحجيمها أمراً عسيراً.

وهناك جماعات وأحزاب وجميعات لا تعرف أن أعدادها تزيد أم تنقص؟. بل قد تظن أنها في ازدياد مع أنها في الحقيقة تنقص؛ لأنها لا تأخذ عند إحصاء أفرادها بعين الاعتبار الزيادة السكانية في بلدها. وهذا فضلاً عن معرفتها بإمكانات أفرادها وتخصصاتهم وخبراتهم. ومن ثم فإنها تجد نفسها في كثير من الأحيان عاجزة عن صنع برامج جيدة، ثم تنفيذها على الوجه المطلوب.

وإذا كان لا بد من تكوين صورة ما فإن البديل عن (الرقم) يكون عادة هو الحدس والتأمل الذاتي. وهما أداتان قاصرتان جداً عن لملمة واقعٍ يُعدُّ غاية في التعقيد.

٢ ـ عدم الثقة بالمعلومات والإحصاءات المتوفرة، وذلك ينبع من عدم القناعة بالطريقة التي تم جمعها بها، أو من التشكك في نزاهة مقاصد من قام بتلك الإحصاءات؛ لعلمنا بتحيزه ومحاولته استخدام ما ينشره من إحصاءات وسيلة لغايات وأهداف خاصة ومعادية. والنتيجة هي العزوف عن

(١) قال أحدهم: أعطني رقماً أعطك كتاباً. فالأرقام والإحصاءات تساعدنا على الولوج في التحدث عن الأسباب والعلل والمقدمات والنتائج والمشكلات والحلول عن طريق التداعي المنطقي.

تلك المعلومات وإهمالها. بل ربما صرنا في بعض الأحيان إلىٰ اعتقاد الاتجاه المضاد لمعطياتها.

وفي اعتقادنا أن هذا الإشكال لا يمكن حلُّه إلا عندما تنشط حركة الإحصاء لدينا، بحيث تتعدَّد الجهات والمؤسسات التي تتولىٰ جمع المعلومات عن الأوضاع والحالات والأنشطة المختلفة؛ حيث يمكِّن ذلك من الصيرورة إلىٰ رؤية متوسطة توازن وتستفيد من جميع ما هو متاح مهما كانت مؤشراته متباعدة. ولن يحصل شيء من ذلك علىٰ الوجه المطلوب ما لم تهتم كل المجتمعات والمؤسسات بإنشاء وحدات للمعلومات المتعلقة بشؤونها الخاصة.

٣ ـ إذا كان كثير منا يقوم بإدراك الواقع من خلال القيم التي يؤمن بها، والمنهجية الفكرية والمنطقية التي يفكر من خلالها كل واحد منا؛ فإن من البديهي أن تختلف رؤية كل واحد منا للواقع وتقويمه له. وفي هذا السياق فإننا نجد أنفسنا نفتقر إلىٰ الواقعية في إدراك الأحوال والأوضاع؛ إذ نعيشها ونتصورها من خلال الانفعال والأمل والألم، أكثر من عيشنا وتصورنا لها عن طريق صياغة فكرية صحيحة. وهذا أدىٰ إلىٰ جعلنا غير واقعيين، لا بسبب هروب الواقع، ولكن بسبب هروبنا نحن منه! وذلك لأن الإقرار به مكلف جداً. وإذا ما اضطررنا إلىٰ الاعتراف به فإن ذلك لا يكون إلا عند انهيار مقاومتنا له؛ فيكون الاعتراف به نوعاً من الرضوخ أكثر من أن يكون رؤية منهجية. وتكون جدوىٰ اعترافنا به أشبه بجدوىٰ إيمان فرعون حين أشرف علىٰ الغرق!.

الإسلام يريد منا أن نكون في قمة المثالية في أمور كثيرة؛ لكن هذا لا يعني أننا فعلاً كذلك. ومن ثم فإننا نطلب المثالية في كل ما حولنا، ولا ننظر إلىٰ أنفسنا وبعدنا عنها! بمعنىٰ أنه صار هناك خلط بين الواقع والمثال. والمنهجية الصحيحة تقتضي إدراك الواقع علىٰ ما هو عليه، دون مفاهيم ورغبات مسبقة، ثم محاولة السير به وتحويله إلىٰ الوضعية التي ترتضيها قيمنا ومثلنا؛ أي: نراوح بين الواقع والمثال إدراكاً وإصلاحاً.

ومن الخطورة بمكان أن نعيش مع المثاليات دون فهم للواقع؛ فنفتقد أول شروط الإِصلاح، ونكون غرباء حقاً. كما أن من الخطر أن نحبس أنفسنا في سجن الواقع، دون التشوف إلىٰ تغييره، علىٰ هدي من إشعاع القيم، والمثل التي نؤمن بها.

٤ ـ إن تلوين رؤيتنا للواقع بقيمنا وآمالنا لا يزيد في ضرره علىٰ عدم قدرتنا علىٰ التفكير المنطقي السوي القادر علىٰ توليد الإِشكاليات والصور الذهنية المطابقة للواقع، أو المقاربة له. والمشاهد أننا طالما صرنا إلىٰ استخراج نتائج قطعية من مقدمات ظنية، وطالما صرنا إلىٰ الإِيمان بنتائج لا تستند إلىٰ مقدمات، وعمّمنا ما هو خاص، وخصّصنا ما هو عام، وطالما تجاهلنا طبائع الأشياء والسياقات والسباقات البدهية التي تكتنفها؛ لنصدر في النهاية أحكاماً لا تتسم بأي درجة من الصدق أو (المعقولية)!. والأمثلة علىٰ هذا تفوق الحصر.

إن هذه الأسباب وأسباباً أخرىٰ عديدة أدت إلىٰ غبش عظيم في الرؤية، حيث صار تكرار الأخطاء أمراً مألوفاً، كما صار الاتعاظ بمعطيات الواقع والتاريخ شبه معدوم. وآل بنا الأمر إلىٰ الحيرة والقنوط، واستعجال الثمار لجهودٍ لم نبذلها، وترقب النصر من وراء معارك لم نخض غمارها، مع كثرة ادعاء امتلاك الشفافية الكاملة لفقه الواقع والسيطرة عليه!.

إن تقسيم الواقع إلىٰ وحدات موضوعية، ودراسته في إطار رؤية شاملة، مع امتلاك الأدوات المنهجية والمادية لذلك، هو المدخل الوحيد إلىٰ فهمه علىٰ ما هو عليه.

وبالإِضافة إلىٰ ذلك فإن معرفتنا بالأفكار الكبرىٰ السائدة في عصرنا ـ إذ لكل عصر من العصور أفكاره المحورية الطاغية ـ مما يساعدنا في فهم روح الواقع، ويلقىٰ مؤشرات عديدة عليه. ومن الواضح أن الجهود الأساسية التي تبذل اليوم علىٰ سطح الأرض وفي المجالات المعرفية والتقنية والسلوكية، لا تستهدف نشر الفضائل، ولا الدعوة إلىٰ العمل للآخرة؛ وإنما تستهدف مزيداً من التعرف علىٰ الطبيعة بغية السيطرة عليها،

واستحلابها عن طريق العلم، ومعرفة العلاقات التي تربط بين نظمها وأجزائها.

أما علىٰ المستوىٰ الفلسفي والقيمي، فإن جوهر ما تدعو إليه (الليبرالية) الغربية هو الحرية والمساواة أمام القانون. ولا يخفىٰ أن الضغوط الهائلة التي تمارسها الثقافة الغربية علىٰ الثقافات الأخرىٰ، قد أثرت كثيراً في مفاهيمها ومعاييرها، وأوجدت نوعاً من انقسام الوعي فيها. وصار كثير من متطلبات الشعوب ونزعاتهم، أقرب إلىٰ أن يكون مادياً وشخصياً، أكثر من أي شيء آخر.

ضرورة النهوض الشامل

يتميز الدين الإسلامي عن باقي الأديان الأخرىٰ أنه يقدم تصوراً شاملاً مترابطاً للكون والحياة والإنسان. وهذا التصور يحدد الوجهة العامة في بعض الأحيان ـ كما هو الشأن في التعامل مع الطبيعة ـ ويتطرق إلىٰ أدق التفاصيل عند الحديث عن الحياة والإنسان.

وعند النظر في مجمل تعاليم الإسلام؛ نجد أن الإسلام يجعل من الحياة الدنيا والآخرة، والجسد والروح، والإنسان والطبيعة وحدة واحدة[1]. فهي مخلوقات لله ـ تعالىٰ ـ تسبّح بحمده. والعلاقة بينها هي علاقة تواصل وتعاون، وليست علاقة عداء وإتلاف.

وإذا أعدنا النظر في تعليمات الإسلام كرة أخرىٰ، وجدناها تهتم بجوانب حياة الإنسان كافة، وفي جميع مراحله: من يوم أن اختار أبوه أمّه إلىٰ أن يُقسم ميراثه. وذلك الاهتمام الشامل جعل التفكير الحضاري الإسلامي مصبوغاً دائماً بصبغة الشمول. وجعل بناءنا الحضاري ـ كذلك ـ شاملاً. وحين قامت الحضارة الإسلامية استهدفت الرقي بروح الإنسان وعقله وجسمه، كما استهدفت تحسين أحواله المعيشية وإثراء معرفته بالبيئة المحيطة؛ كي يتمكن من تسخيرها علىٰ الوجه الأكمل. وتثبت التجارب التاريخية والحضارية كمال ذلك التصور ونجاعته في معالجاته لشئون الإنسان علىٰ هذا النحو. فالجسم إذا ما تجاهل حاجات الروح والنفس أصيب بالضرر. ومثل ذلك يقال في النفس. والإنسان إذا ما تجاهل حدود الطبيعة

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري: ٥٦.

وقوانينها وقدرتها علىٰ العطاء والتجدد أصيب أيضاً من قبلها بالضرر[1]. والإنسان إذا لم يؤمّن مطالب الحيوان لم يستطع هذا الأخير القيام بحاجته. وهكذا. . .

ويؤدي بنا ذلك كله إلىٰ أن هناك علاقة جدلية حميمة بين جميع عناصر الحياة أخذاً وعطاءً. كما أن هناك علاقة مماثلة بين عناصر التقدم والتحضر. ومثلها موجود بين جميع عناصر التخلف. وتتبادل عناصر الوضعيتين التأثير والتأثر علىٰ نحو المستوىٰ الذي نجده في الوضعية الواحدة. وهذا يُسلمنا إلىٰ نتيجتين:

الأولى: أن التخلف الذي تعيشه الأمة تخلف شامل: فهو تخلف عن المنهج الرباني، وتخلف عن ركب الحضارة الحديثة، وتخلف في فهم التراث والإِيجابية معه، وتخلف في تحقيق شروط إنسانية الإِنسان بقطع النظر عن أي اعتبار آخر.

والنتيجة الثانية: هي أننا إذا ما حاولنا أن نخطط للخلاص من حالة الوهن والغثائية التي نتقلب فيها، فإن علينا أن نخطط تخطيطاً شاملاً للرقي بجوانب الحياة كلها، مع استملاك الإِحساس الدائم بمقدار الاهتمام والرعاية والأولوية الذي نعطيه لكل جانب.

فنحن مثلاً لا نستطيع أن نجعل المسلم الذي يفترش الأرصفة ـ لعدم وجود بيت يؤويه ـ يشعر بالعزة والكرامة؛ لأن هذه الوضعية لا تسمح بذلك. كما أننا لا نستطيع أن نجعل من الناس العاطلين عن العمل وغير المؤهلين له ـ وأولئك الذين يعيشون علىٰ الصدقات والاستدانة من غيرهم ـ أحراراً لأن الحرية ليست شعاراً ولا أحاسيس مجوّفة، وإنما هي قبل كل

---

(١) فجرت الحضارة الغربية كل طاقات الإِنسان ووجهتها نحو السيطرة علىٰ الطبيعة واستغلالها، كما فجرت فيه شهية الاستهلاك الرهيب؛ فأدىٰ ذلك إلىٰ استنزاف الطبيعة والإِضرار بها. وهذا هو ثقب الآزون بدأ (يعقلن) تلك التصرفات الحمقاء بنفس القسوة التي مارستها الحضارة الغربية ضد الطبيعة.

شيء إمكانات وظروف معينة تسمح للإنسان بالاختيار. ولا يكون الاختيار وارداً إلا عند وجود بدائل وخيارات، والخيارات عند أولئك معدومة.

ونحن لا نستطيع أن نرفع من سوية المسلم التربوية والأخلاقية والتقنية إذا كان أمياً، أو كنا لا نستطيع أن نوفر له المدرسة أو الكتاب أو المجلة أو أية وسيلة اتصال أخرىٰ. فظروف العصر فرضت شروطاً جديدة للرقي في هذه المجالات لم تكن موجودة من قبل.

ونحن لا نسطيع أن نعزز الحسّ الجمالي لدىٰ مسلم يعيش بين أكوام القاذورات! كما أننا لا نستطيع أن نطلق طاقات الإنسان في خدمة الجماعة والأرض التي يعيش عليها ما لم نجعله يشعر بدرجة مقبولة من (الرضا الاجتماعي). وكيف سيدافع المرء عن جماعة لم تمسح له دمعة؟ وكيف سيذود عن حياض وطن لم يؤمّنه من خوف ولا أشبعه من جوع؟!.

هذا المدىٰ الواسع للبناء الحضاري يجعل مسؤوليته شاملة لكل الراشدين من أبناء الأمة علىٰ قدر المكنة والوسع. كما أنه يجعلنا نفتح عيوننا بشكل جيد علىٰ رصد الآثار الجانبية التي يخلفها الانحطاط أو الرقي، علىٰ كل جانب من جوانب الحياة المختلفة؛ فيحاول كل واحد منا أن يحسب حساباً لكل كلمة أو حركة أو موقف يصدر عنه. كما أنه يستبشر بكل إضافة خيّرة يضيفها إلىٰ رصيد الأمة.

التخطيط الحضاري

تعقيدات الحياة، ومستلزمات المدنية الحديثة، توجب علىٰ الأمم والدول، أن تفكر ملياً عبر أجهزة مختصّة، في الأسلوب الأمثل لاستخدام واستثمار الموارد والإمكانات المتاحة؛ من أجل الوصول إلىٰ أهداف المجتمع، وسدّ حاجاته الكثيرة والمتّسعة؛ حيث لم يعد من المجدي استثمار الطاقات، ولا تلبية الحاجات من خلال مجموعات المشاريع المتلاحقة، التي لا يربط بينها رابط، ولا تتمحور حول متطلبات كبرىٰ ترغب الجماعة في الوصول إليها.

وإذا كان لا بد لكل دولة من خطة حضارية؛ فإن مضامين تلك الخطة وأهدافها وأولوياتها، تختلف من بلد إلىٰ آخر؛ حيث تختلف المتطلبات وأنواع المعاناة، كما تتفاوت الإمكانات المتاحة وفرة وندرة.

وبإمكاننا أن نعرف التخطيط الحضاري بأنه: «التصنور المنتظم لمجموعة العمليات المتناسقة، والهادفة إلىٰ تحقيق إنسانية الإنسان وسعادته، وفق الإمكانات والموارد المتاحة».

وبتأثير من الحضارة الغربية وأدبياتها وإشعاعاتها، صار الكثير من الخطط في العالم الإسلامي لا يعنىٰ إلا بالجانب الاقتصادي التنموي، ويهمل الجوانب الأخرىٰ المتعددة. وإذا ذكر شيء منها؛ فإنما يذكر باعتباره أداة ووسيلة، لا يتم النمو الاقتصادي إلا بها. فقلما نجد خطة تستهدف رفع سوية التدين والالتزام في المجتمع. أو نجد خطة تركز علىٰ تحرير المسلم من الخوف أو الخرافة أو العادات الفاسدة، أو تركز علىٰ تحقيق التلاحم الاجتماعي أو تعنىٰ بتعليم الناس الاستفادة من الطاقات الفردية الهائلة المتاحة، أو الاستفادة من وقت الفراغ...

وهذا الإِهمال الشاسع الواسع، جعل المعلومات المتاحة للباحثين والمفكرين والمخططين حول هذه القضايا ـ وكثير غيرها ـ ضئيلة جداً. ومن ثم فإن علاجها والتعامل معها والتخطيط لها لا يستند إلىٰ قواعد معلومات مناسبة؛ كما أن الخبرة في العناية بها ما زالت محدودة.

أهمية التخطيط الحضاري:

هناك علاقة طردية بين تعاظم مكانة القطاع العام والحاجة إلىٰ التخطيط، فإشراف الدولة علىٰ قطاعات واسعة من حياة المجتمع ومؤسساته يستلزم التخطيط المناسب؛ حتى يمكن تسييرها علىٰ الوجه المطلوب. كما أن المؤسسات الكبرىٰ والجماعات والأحزاب بحاجة هي الأخرىٰ إلىٰ التخطيط، ما دام لها موارد وأهداف محددة.

وفي تصورنا أن مجتمعاتنا بحاجة ماسّة إلىٰ شيوع حسّ الاهتمام بالمستقبل بين أفرادها علىٰ مختلف المستويات. والمسلم في تكوينه العقدي إنسان مستقبلي من الطراز الأول؛ لكن الملاحظ أن المجتمعات حين تكون في حالة شيخوخة أو ركود؛ فإنها آنذاك تشبه الإِنسان في آخر حياته حيث يكثر حديثه عن الماضي ـ علىٰ عكس الشباب ـ ويكون المستقبل عبارة عن همّ ليس أكثر!.

ومن واجب الدوائر الأوسع أن تشيع ثقافة (النظر إلىٰ الغد)؛ فالدولة من خلال ما تملكه من إمكانات تستطيع أن تبصّر الأفراد والمؤسسات بالجهود والأعمال التي عليهم أن يسهموا بها في تنفيذ الخطط العامة.

ومما يساعدها في تحقيق استجابة الناس لذلك أن تستمزج آراءهم وتستمع إلىٰ اقتراحاتهم. وعلىٰ الجماعات والمؤسسات والأحزاب أيضاً أن تسعىٰ إلىٰ إشراك أفرادها في وضع خططها وتنفيذها، علىٰ نحوٍ مما تقوم به المصانع اليابانية؛ وكلما كانت تلك الخطط منسجمة ومتناسقة مع الخطط العامة التي تخدم مصالح الأمة، كان ذلك أدعىٰ إلىٰ قوة الإِحساس بها

والحفز علىٰ المساهمة في تنفيذها. ويمكن تلخيص أهم الأهداف التي نتوخاها من وراء التخطيط في الآتي:

١ ـ من مهام التخطيط الأساسية محاولة امتلاك صورة عما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة خلال حقبة محددة قادمة. وهذه الصور تشمل وضع التدين وأحوال الأخلاق والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلاقات الخارجية والأنشطة الدعوية...، وهذا الإدراك للجوانب المستقبلية المختلفة يعني أن الأمة تعرف ما تريد؛ ومن ثم فإنها تضبط أنشطتها، وتوجهها نحو أهداف محددة.

٢ ـ تحديد الأهداف يدعونا إلىٰ البحث عن الموارد والطاقات المتاحة والكامنة من أجل حشدها وتثويرها في سبيل تنفيذ الخطط الموضوعة؛ حيث إن الوظيفة توجد العضو. وغالب ظني أن طاقات كثير من الخيرين تظل مهدورة أو كامنة لعدم وجود خطط واضحة ومقنّنة يمكن استثمارها علىٰ صعيد الفرد والجماعة والدولة.

٣ ـ محاولة الاستفادة من المنجزات العلمية والتقنية التي تحققت فعلاً في الواقع المعيش، والاستفادة من الخبرات والمعارف المتراكمة، من خلال تجاربنا التاريخية والحضارية.

٤ ـ معالجة الفجوات الموجودة بين الموارد والإمكانات المتاحة، وبين الاحتياجات الموضوعية التي يتطلبها التخطيط. وهذه الفجوات موجودة لدىٰ كل أمة وفي كل زمان. والتخطيط يعلمنا كيفية ردم تلك الفجوات، أو التكيّف معها من خلال ترتيب أولويات التنفيذ، وتأجيل ما يمكن تأجيله إلىٰ مرحلة لاحقة.

٥ ـ توزيع الأموال والجهود والطاقات والأوقات، حسب الأولويات والاستحقاقات بين الجوانب والأحوال المختلفة التي يراد تطويرها وتحسينها.

٦ ـ تفادي التبادل غير المتكافئ مع الخارج علىٰ مختلف المستويات؛

وذلك بحماية المنتجات الوطنية والخصوصيات الثقافية، وفتح المجالات المختلفة أمام ما يمكن أن نقدمه للعالم من أفكار ومثل ومنتوجات بواسطة التحرك الدعوي والثقافي والحضاري[1].

ما قبل التخطيط:

تعني الخطة تصوراً للكيفيات التي ستتم فيها مجموعة من الأنشطة المتناسقة في مرحلة من المراحل. وهذا التصور ينبغي أن يُسبق بما نسميه بـ(الرؤية الشاملة) للواقع المعيش من طاقات وكفاءات وأحوال وظروف وتحديات ومشكلات داخلية وخارجية، ومتطلبات ونواقص وأهداف وآمال علىٰ كافة الصعد، وفي المجالات الحيوية كافّة. ثم يأتي بعد ذلك إعمال النظر في العلاقات التسلسلية والجدلية القائمة بين جميع تلك العناصر، وذلك قبل القيام بعملية التوظيف للإمكانات والبحث في العقبات. . . . ولنضرب مثالين علىٰ ما نريد:

١ ـ إذا كنا نسعىٰ إلىٰ تحقيق انتعاش اقتصادي في المجتمع وجب أن نلاحظ آثار ذلك في الوضع الأخلاقي والتربوي والاجتماعي، وأن نتلافىٰ بقدر الإمكان انقسام المجتمع إلىٰ شريحة كاملة الرفاهية وأخرىٰ محرومة من الضروريات. وقد أعطىٰ الإسلام للحاكم المسلم حق التدخل بما يراه مناسباً ـ ضمن هدي الإسلام العام ـ لحماية الضعيف وكبح جماح التمايز الاجتماعي الشديد.

وهذا يعني أنه لا يجوز للاقتصاديين الانفراد بوضع الجانب الاقتصادي من الخطة؛ حيث يسيطر علىٰ هؤلاء نجاح الجانب الاقتصادي دون الالتفات إلىٰ أي شيء آخر.

٢ ـ علينا أن نلاحظ ونحن نقوم بالتخطيط للتعليم والتثقيف نوع التعليم المطلوب، والنسب المرغوبة بين التعليم الحرفي والتقني والتعليم

(١) انظر بعض ما تقدم في: جدلية التقدم والتخلف: ١٣٩، ١٤٠.

العام، وآثار نوع التعليم على التوازن الاجتماعي، وما يتطلبه التعليم المهني - مثلاً - من تغيير في ثقافة الناس والتراتيب النمطية في السلم الاجتماعي. وقبل فتح كليات البنات ندرس ما يناسب من تلك الكليات لطبيعة المرأة، ومدى ما يمكن توفيره من وظائف للخريجات بما لا يخل بوضعها الأصلي أماً وزوجة وربة منزل. ونراعي أيضاً المواءمة بين أنواع التعليم المتقدمة، وما تتطلبه خطط التنمية الشاملة. ونلاحظ أيضاً كيفية إيجاد التناسق بين الرسالة التعليمية ورسالة المسجد والرسالة الإعلامية والتربوية المنزلية...، وكيفية إيجاد التواصل بين المعلومات التراثية والمعلومات الحديثة. هذه القضايا ينبغي أن تكون مهيمنة على إحساسنا وتصوراتنا إبان رسم أية خطة؛ وهي التي تضفي على خططنا الشاملة الانسجام والتناغم.

وهذا كله يعني أن الذين يصلحون لرسم الخطوط العريضة ليسوا المختصين و(التكنوقراطيين)؛ وإنما أولئك الذين يملكون النظريات الكبرى والرؤى الشاملة من ذوي الثقافة الموسوعية، ومن المفكرين وخبراء (الاستراتيجية) الإسلامية. أما التفاصيل في كل قطاع فهي من شأن الاختصاصيين.

وإذا ما تولى التخطيط أناس لا يتسمون بشيء من ذلك؛ فإن الجهود المبذولة في أية خطة تؤول إلى تضخيم جانب من حياتنا الحضارية على حساب تمزيق جوانب أخرى، على نحو ما هو حادث الآن؛ حيث لم تؤد (الحداثة) الموجودة لدينا إلى نهضة حقيقية. وما تحقق من النهوض في بعض الجوانب العمرانية كان على حساب جوانب أخرى مهمة، كالجانب النفسي والأخلاقي والاجتماعي...

هواجس المستقبل:

إن التخطيط هو صلة الوصل بين اليوم والغد. ولن نستطيع القيام باستشراف ناجح للمستقبل ما لم نتمكن من رصد الواقع بشكل جيد. وأكبر مشكلة تواجه المخططين على كل المستويات، هي نقص المعلومات

وضبابية الأرقام الموجودة ـ إن كان هناك أرقام ـ ومن ثم فلم يكن غريباً أن يكون مقدار امتلاك دولة للمعلومات والإحصاءات الرقمية عن جوانب الحياة لديها أهم المؤشرات إلىٰ درجة التقدم التي حازتها. فالتخلف مقرون دائماً بالجهالة بـ(الكم)، كما أنه مقرون بجهالة (الكيف) لكل (كم)[1].

وهذا يعني أن الخطة الناجحة لا تكون إلا بنتاً للمعلومة الجيدة.

وهذا أحد ما نفسر به فقد القدرة علىٰ تنفيذ كثير من الخطط؛ حيث يظل التنفيذ جزئياً، وأحياناً مشوّهاً؛ فتوفير الأرقام وقواعد المعلومات ينبغي أن يكون أحد أهم هواجسنا المستقبلية.

إن نسبة الزيادة السكانية عالية نسبياً في العالم الإسلامي وعلينا أن نفكر في كيفية استيعاب الملايين الذين يفدون إلينا تربوياً واجتماعياً والسعي لإيجاد فرص العمل لهم، وقبل ذلك تعليمهم وتدريبهم؛ وإلا فإن العاقبة هي هدر ذلك الكنز الثمين، بل تحويله إلىٰ قنابل موقوتة وعناصر شغب بدل أن يكونوا درعاً للأمة وبناة لمستقبلها.

وإن من المؤسف حقاً أن الذين يتفاكرون ويتذاكرون في هذا قلة لدينا! ولا شغل لنا سوىٰ إلقاء اللوم علىٰ الجيل الجديد ووصفه بتضييع الأمانة وعدم تحمل المسؤولية دون أن نسأل أنفسنا ماذا قدمنا لهم؟.

وأخيراً فإن مما ينبغي أن يشغل بالنا هو كيف نوجد أطراً للحركة والإنتاج تستوعب جميع القادرين علىٰ العمل من أبناء الأمة أو المجموعة.

وهذا لا يأتي إلا إذا كانت الخطة عامة ومتعددة المستويات والمجالات، وكثير من العطالة والبطالة، مما أصاب أمة الإسلام نتج عن

---

(١) يجد الناظر في الحالة العامة لبعض الدول الآسيوية الناهضة حديثاً نوعاً من التوأمة بين درجة التصنيع التي وصلت إليها وبين وفرة المعلومات والإحصاءات، علىٰ غرار ما نجده في ماليزيا وسنغافورة ـ مثلاً ـ حيث يحيطك كل من تلقاه من موظفي الدولة ومنسوبي الجمعيات والمؤسسات بمجموعات من الأرقام التي تعطيك تصوراً واضحاً جداً عن كل ما تسأل عنه.

عدم وجود خطط تحرك، وتحرّض وتساعد أبناء الأمة علىٰ أن يفعلوا شيئاً لصالح دينهم ودنياهم وأمتهم. وسيظل الأمر علىٰ هذه الحال ما لم نعر قضية التخطيط الاهتمام الذي تستحقه، وما لم يصبح المستقبل أحد هواجسنا الأساسية.

نحن والتراث

نستطيع أن نعرف التراث بأنه: «مجموعة عطاءات الآباء والأجداد على المستوى الروحي والمادي عبر تفاعلهم مع الدين، وضمن خضوعهم لقيود الزمان والمكان اللذين تم الإنجاز فيهما».

ونحن مع الباحثين الذين لا يعدّون الكتاب والسنة من التراث؛ لأنهما ليسا من إنتاج الآباء، ولا من معطيات التاريخ. وتعاملنا معهما يختلف تماماً عن تعاملنا مع التراث؛ إذ نمتثل لما جاء فيهما من قطعيات، ونجتهد في الظنيات وفق أصول وضوابط اجتهادية وتوليدية معروفة.

أما التراث فإننا نحكم عليه بعين المعايير التي نحكم بها على الواقع، أي: نملك سلطة تقويمه، من خلال المنهج الرباني المحفوظ عن التغيير والتبديل، مع الاستعانة بأقوال السلف، وما تراكم لدينا من خبرات حضارية متنوعة. وكما نختلف في صحة موقف أو عمل اجتهادي أو حضاري يمارسه بعضنا الآن؛ فقد نختلف أيضاً في الحكم على موقف أو قول يعود إلى الماضي. وما نعده تراثاً للتابعين عاشه التابعون ـ رضي الله عنهم ـ على أنه واقع. والواقع الذي نحياه اليوم سوف يصبح تراثاً في نظر الأجيال القادمة. وكما أننا لا ننظر إليه نظرة تقديس وتصويب مطلق؛ فمن حق المسلمين اللاحقين أن ينظروا إليه النظرة نفسها؛ بل يجب عليهم أن يفعلوا ذلك.

ونستطيع أن نقول هنا إننا ـ بحمد الله ـ الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تستطيع أن تحكم على واقعها وتراثها من خلال مبادئ ومنطلقات لم يركمها الماضي، ولا الواقع. فنحن إذ نحرم الربا أو الزنا،

وإذ نوجب الصدق أو الوفاء بالعهد لا نفعل ذلك نتيجة تراكم الخبرات وتطور النظم، بل استناداً إلىٰ نصوص قطعية مقطوعة الصلة عن إنتاج البشر وخبراتهم وتنظيماتهم. وهذا ما يعطي أصولنا سمة الثبات والتحرر من الرؤىٰ الجزئية المحدودة والوقتية التي يتسم بها نظر الإنسان إلىٰ الأمور المختلفة. وهذا يعني انفصالاً جيداً بين الذات والموضوع؛ إذ إن استقلال الوحي عن التراث منحنا جرأة نادرة في مقاومة استحالة التراث واجتهادات البشر إلىٰ قيود ومحدِّدات تجعل مستقبلنا ومتطلباته الفكرية والثقافية مرهونة لدىٰ اجتهادات ورؤىٰ ماضية. كما أن ذلك يجعلنا قادرين علىٰ ألا نكرر أخطاء الماضي وخطاياه التي قادتنا إلىٰ الموقع الذي نحن فيه اليوم. كما أن هذه الوضعية الحضارية المتفردة والجامعة بين إلزامية الوحي والتخير من التراث ـ تمكننا من إنتاج حضارة تجمع بين جنباتها تنوعاً لا حدود له في إطار من التوحد الملتزم بمبادئ هذا الدين وقطعياته وغاياته.

ويعني ذلك مرة أخرىٰ ثراءً حضارياً، يتسع لبني البشر جميعاً دون أن نفقد الاتجاه، أو نقود البشرية إلىٰ الهاوية، علىٰ نحو ما تفعله الحضارة المادية اليوم. ونخلص من وراء ذلك كله، إلىٰ أن التراث لا يشكل بمفرده (هُويتنا) العقدية والثقافية؛ كما أن تعزيز الشعور بتلك الهوية لا يتم من خلال العودة إلىٰ التراث فحسب. فهويتنا مستمدة من المنهج الرباني نفسه. ووظيفة التراث إغناء المنظومات الرمزية والشعورية والعقلية لدينا بالمواقف والمُثُل الطيبة. لكنه لا ينفرد بتشكيلها. وهذا هو السر في قدرة هذه الأمة علىٰ التجدد والتجديد كلما أدت تراكمات العادات والتقاليد إلىٰ وضع أكوام الرماد فوق جذوة التوحيد وألق المنهج الرباني الذي أكرمنا الله ـ تعالىٰ ـ به.

وتشهد أمة الإسلام اليوم حركة عودة إلىٰ التراث واسعة جداً نشراً وتمثلاً واستلهاماً. وتلك إحدىٰ ثمرات المد الإسلامي الذي يشهده العالم اليوم. ويمثل جزء من تلك العودة رغبة أكيدة في التعرف علىٰ الذات والهوية الإسلامية وفق النموذج الذي يقدمه سلوك السلف وفهمهم لمختلف جوانب الحياة العقدية والفكرية والحضارية عامة. ويمثل جزء لا يستهان به

من تلك العودة نوعاً من تحصين ذاتنا ضد الهجمة الشرسة والضغوط الضخمة التي تمارسها الثقافة الغربية علىٰ ثقافتنا العربية الإسلامية.

وتمثل العودة إلىٰ التراث بعد هذا وذاك نوعاً من الاحتجاج الضمني علىٰ تفكك منظومات القيم، وانهيار الثقافات المحلية، والإخفاقات الكثيرة في أكثر المعارك الحضارية التي نخوضها علىٰ مختلف الصعد؛ وتمثل احتجاجاً علىٰ المحاولات الكثيرة الرامية إلىٰ سلخ هذه الأمة عن تراثها برمته خيره وشره. وذلك ليس بهدف التحضير لتمثل الحداثة والمعاصرة؛ وإنما من باب التمهيد الثقافي للعيش عالة علىٰ فتات موائد الآخرين الذين لا يرون فينا أية أهلية لتقليدهم أو الاستفادة منهم!.

هذه في ظني هي التفسيرات المحتملة لهذا الالتصاق الحميم بالتراث الذي بدأنا نلمسه بشكل مكثف منذ ثلاثة عقود علىٰ الأقل. وهذا التواصل مع التراث لم يتم من قبل الذين يرون توظيفه والاستثمار فيه فحسب، وإنما من قبل شريحة ثقافية أخرىٰ، لم تتصل بالتراث إلا بغية نقده، وكشف عواره، والاعتقاد أنه يمثل الحاجز الأكبر بيننا وبين التقدم. ويمكن أن نذكر هنا بإيجاز ثلاثة مواقف متباينة من التراث علىٰ النحو التالي:

الأول: موقف الذوبان في التراث:

وهذا الموقف يتبناه كثير من الإسلاميين؛ وذلك من خلال حركة النشر الواسعة التي تدفع لنا يومياً بعشرات الكتب التراثية علىٰ امتداد العالم الإسلامي؛ حيث تأسست المئات من دور النشر وهيئات ومكاتب التحقيق التي أخذت علىٰ عاتقها تحقيق التراث ونشره، بغض النظر ـ في بعض الأحيان ـ عن القيمة العلمية للكتاب المنشور؛ بل بغض النظر عن كون الكتاب المنشور يساهم في دفع ثقافتنا في الاتجاه الصحيح، أم يساهم في تشويهها وزيادة عجزها عن استيعاب النظم الحضارية المعاصرة! فهناك كتب كثيرة تحيي معارك عقدية وفقهية وتاريخية بين فرق ومذاهب ليس لها وجود

الآن. وكتب مشتملة علىٰ أحاديث ضعيفة وموضوعة كثيرة، تنتشر دون أي تحقيق، ولا تنبه إلىٰ مدىٰ ما يمكن أن تحدثه من أضرار في تصوراتنا وبنياتنا العقلية. وكتب كثيرة تبرز قضايا وموضوعات جزئية جداً، وتشغل الناس بها، من نحو ما نراه اليوم من كتب تفسير الأحلام والكتب التي تتحدث عن الجان والعفاريت وكيفية التحصن منهم... وكتب مملوءة بالخرافات والأساطير عن فضائل فلان وكرامات علان، لا تستند إلىٰ أصل ولا فصل.

وهناك كتب كثيرة جداً لم يكن لها يوم أن أُلِّفت أية قيمة علمية، ولم تُحدث في زمانها أية أصداء ثقافية، وربما لم تُقرأ حينها؛ كما أنها لا تمثل اليوم أية إضافة فكرية أو معرفية لما هو مطبوع ومنشور في علومها وفنونها.

ولا يخفىٰ أن أعداداً ضخمة من التجار ومتنوري العوام، صاروا يرتزقون من وراء نشر هذه الكتب مستغلين تعطش الشاب المسلم للتعرف علىٰ تراثه، والسطحية الموجودة لدىٰ كثير من القراء.

وإلىٰ جانب الحرص علىٰ نشر ما هو مهم من تراثنا، وما ليس مهماً نجد لدينا نوعاً آخر من الذوبان في التراث يتمثل في الخوف من كل قول، أو رأي لم نجد له سابقة تراثية، يجري التأسيس عليها؛ فترىٰ الذين يدعون إلىٰ الاجتهاد والتجديد يقفون موقف المشنِّع علىٰ من يأتي بقول جديد، مهما كانت درجته العلمية وخبرته. وهذا مع أن الحوادث غير محدودة، والنصوص محدودة، وليس أمامنا من خيار سوىٰ الاجتهاد. وطبيعة الاجتهاد تسمح بالمجيء بقول موافق للسابقين أو مخالف لبعضهم. وحين يكون المجتهد مؤهلاً، وقد بذل أقصىٰ جهده فإن علينا إفساح المجال له بإدلاء رأيه ما دام لم يخالف إجماعاً، أو قال قولاً في مسألة فيها أدلة ظنية، أي محتملة للاجتهاد، ثم الاختلاف.

ونحن إذا لم نجتهد تركنا مسائل كثيرة دون حكم ولا رأي، وهذا يعطل الحياة، أو يدفع الناس إلىٰ ملء الفراغ بالقوانين الوضعية التي لا تستند إلىٰ روح الشريعة ولا نصوصها.

الثاني: موقف الجاحدين للتراث:

ليس بين الأمم الموجودة اليوم، أمة تملك تراثاً كالذي تملكه أمتنا، في تنوعه وغزارته. كما أنه لا يوجد تراث تعرض للطعن والجحد والتشريح بالقدر الذي تعرض له تراثنا الإسلامي. وقد فتح المستشرقون الأوربيون باب نقد تراثنا بوضع المناهج النقدية، وبدراسة نماذج منه علىٰ نحو يوحي للقارئ بتفاهته وضآلته وكونه العقبة الكؤود التي تحول دوننا، ودون تمثل النظم الحضارية الحديثة. وكان القصد النهائي من وراء ذلك كسر شوكة الاعتزاز بذلك التراث تمهيداً لاحتلال وعينا، وتهيئتنا للغزو الثقافي الضخم الذي جاء في أعقاب ذلك.

وورث مناهج المستشرقين ورؤاهم ونتائج بحوثهم أعداد ضخمة من الباحثين من بني جلدتنا، وصارت مهمتهم إكمال ما بدأه أساتذتهم. وزاد في عدائهم للتراث الإخفاقات المتتالية التي واجهتها النظريات والمناهج والحكومات التي حذت حذو الغرب في التنمية والتحديث؛ حيث وجدوا في التراث (الشماعة) التي يمكن أن يُعلق بها كل انكسار وإخفاق يحدث لهذه الأمة في عصورنا الحديثة. يقول من يسمونه بـ(مفكر الجيل) د.زكي نجيب محمود: «هذا التراث كله بالنسبة إلىٰ عصرنا فَقَد مكانته؛ لأنه يدور أساساً علىٰ محور العلاقة بين الإنسان و(الله)، علىٰ حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفة مؤرِّقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان»[1].

ويرىٰ بعضهم ضرورة الإسراع في التحديث، وجواز استخدام العنف في سبيل الخلاص من التراث؛ يقول حسن صعب: «ما دام التحديث ضرورة للتقدم، والتقدم يجري بالسرعة الخارقة التي نشهدها؛ فإن التمهل في إزالة عوائقه باسم التدرج أو التطور، هو إيغال في التخلف بوعي، أو بدون وعي»[2]. ويقول أيضاً: «إن التحديث طريق ثوري للتقدم. إنه يتطلب

---

(١) اغتيال العقل: ١٩٤.

(٢) السابق: ١٩٥.

تغييرات نوعية وكمية سريعة في الفكر والسلوك. وليس هناك من يماري اليوم في ثورية التحديث، أو ثورية الانتقال من التخلف إلىٰ التقدم. ولكن التساؤل هو حول العلاقة بين الثورة والعنف... وليس النضال في سبيل التقدم، أي: في سبيل التحديث أقل خطراً من النضال في سبيل التحرر السياسي. ولذلك يبدو العنف فيه حقاً للإنسان المناضل أو الثائر في سبيله إذا تعذر عليه سبيل الإقناع السلمي»[1].

ويرىٰ أدونيس: «أن المجتمع العربي بحاجة إلىٰ تغيير شامل جذري لا يتم إلا بالثورة»[2].

ومن نفس المنطلق التحديثي صفّق نديم البيطار لهزيمة حزيران التي لا بد أن تقضي علىٰ كل البنىٰ التقليدية في المجتمع العربي؛ إذ سيصبح العرب أكثر من أي وقت مضىٰ أمام اختيار لا مهرب منه: فإما التخلص من التقاليد، أو الإبقاء علىٰ الاحتلال الصهيوني؛ لأن التخلص من التقاليد هو شرط التخلص من الاحتلال![3].

أما الأسس التي علينا أن نحدّث حياتنا علىٰ هديها؛ فهي المقاييس التي ترتضيها الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والماركسي؛ فعلىٰ مقدار الاقتراب من أحد النموذجين تكون درجة تحضرنا. لكن الكل مجمع علىٰ أن شيئاً من التحضر لن يتم ما لم ننسلخ عن الماضي بكل ما فيه، ونستأنف المسيرة من جديد!!.

الثالث: الموقف الانتقائي:

يرىٰ كثير من المفكرين المسلمين سلوك السبيل المعتدلة المتوسطة بين الذين ذابوا في التراث، وبين الذين يريدون الخلاص منه ودفنه؛ فهم يرون التراث عبارة عن ثمار جهود بشرية، اهتدت بهدي الإسلام الحنيف غالباً،

---

(١)(٢) اغتيال العقل: ١٩٥.

(٣) السابق: ١٩٦. وكلنا يعرف أن الهزيمة المذكورة لم تجعل الناس يتعدون عن التقاليد، وإنما دفعتهم دفعاً نحو الاتجاه إلىٰ الإسلام علىٰ أنه الملاذ الأخير.

وتفاعلت مع مبادئه وأطره. وكان أصحاب تلك الجهود بشراً من البشر، يجتهدون، فيصيبون، ويخطئون.

وقد يغلب عليهم الركود والتقليد أو الهوىٰ؛ فيعجزون عن الاستفادة من المنهج الرباني في التعامل مع أحداث عصرهم؛ فتكون مواقفهم وأقوالهم موضع الإدانة من المنهج الرباني نفسه. والنقد لبعض أعمال السابقين ليس وليد رغباتنا في التجديد، وإنما تمّ في أزمنة ماضية، بدءاً بعصر الصحابة - رضوان الله عليهم - ثم ما تلاه من عصور؛ فقد كان العلماء الربانيون والأئمة المجتهدون ينتقدون الأقوال والأعمال التي يرونها مخالفة للحق والصواب، وينبهون الأمة علىٰ ضرورة البعد عنها، والحذر منها. وكتب التراث تطفح بذلك. ثم إن الانحرافات التي وقعت من الأجيال السابقة - التي نسمي إنتاجها تراثاً - هي التي وصلت بهذه الأمة إلىٰ الوضع السيئ بعد أن كانت في القمة. ومن ثم فليس من الصواب إطلاق القول بأن السابقين كانوا أكثر منا تفتحاً وحرية وحداثة في إنتاجاتهم الثقافية، وفي قبول الجديد[1]. فأنواع التحلل من القيم الإسلامية وتيارات الزندقة والمجون والمفاهيم الخاطئة - كل ذلك ليس من التفتح في شيء. والاستناد إليها علىٰ أنها نماذج تاريخية وتراثية - يصح البناء عليها والاستفادة منها - نوع من النكوص الحضاري وإعادة إنتاج الخطايا والأخطاء من جديد.

ولا بد من القول: إن قدرتنا علىٰ التعامل الصحيح مع التراث والاستفادة الجيدة منه، تتوقف علىٰ مدىٰ نمو (ذاتيتنا) الثقافية اليوم، ومدىٰ وعينا بعصرنا ومتطلباته، ومدىٰ وعينا بحاجاتنا وإمكاناتنا.

وما هذا الاضطراب الواسع في التعامل مع التراث إلا المرآة العاكسة

---

(١) كتب نبيل ياسين بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤١٤هـ مقالاً في جريدة الحياة بعنوان: (ليبرالية التراث... أصولية المعاصرة)، ذكر فيه استقلال المثقف العربي عن السياسي، وأن موضوعات عديدة نرىٰ في بحثها اليوم شيئاً من الحرج مثل موضوع (الجنس) و(أدب الخلعاء) تناولها بعض كبار الكتاب قديماً، ولم تلق اعتراضاً من أحد. وهذا ربما كان صحيحاً تاريخياً في بعض الأحيان لكن الموقف من ذلك هل كان صحيحاً، وكيف نحكم عليه؟.

لما تعانيه كينونتنا الثقافية من خلل، وما نعانيه من الغموض والانبهام في إدراك متطلبات الواقع واستشرافات المستقبل.

ويمكن هنا أن نوجز بعض تفاصيل الموقف الذي يجب أن نتخذه من التراث علىٰ النحو الآتي:

١ ـ توظيف التراث:

تراثنا غني بالتجارب والأساليب والنماذج التي تثير الإِعجاب، والتي نرىٰ أنها تمثل استجابة ظاهرة للمنهج الرباني الذي أكرمنا الله به، والتي نرىٰ أنها ما زالت تسعفنا بصور شتىٰ في إصلاح شئوننا اليوم، وفي إعمار الأرض التي نعيش عليها. وهذا كثير جداً في تراثنا، وذلك من نحو أسلوب اختيار عمر ـ رضي الله عنه ـ للولاة وأساليبه في مراقبتهم ومحاسبتهم ومتابعة شئون الرعية وتحمل دولته لأعباء الحياة ولأواء الزمان علىٰ نحو مما تتحمله الرعية. ومن نحو المظاهر الحضارية والإِنسانية التي سادت في حضارتنا فترات طويلة، كآداب القضاء وأنواع الأوقاف ومساعدة الضعفاء. وكبعض الأساليب التربوية والتعليمية، وغير هذا كثير، مما لم يزل صالحاً في شكله وجوهره لإِعادة تطبيقه وتوظيفه في حياتنا المعاصرة.

٢ ـ الاستلهام:

ونعني بالاستلهام جعل المواقف التراثية بمثابة المحفّز والدافع لنا نحو الإِنجازات الكبرىٰ. وهذا يعني التركيز علىٰ الجوهر دون المظهر. وذلك كالذي نجده في سيرة أفذاذ هذه الأمة من روح التضحية والعطاء والبذل في سبيل الله ـ تعالىٰ ـ وفي سبيل الصالح العام. وكالذي نجده في سير العلماء من قبول الحق والصبر على طلب العلم والصدع بالحق والزهد في طلب الدنيا والجاه. وكالذي نجده في سير الخلفاء الراشدين وغيرهم، من الحرص علىٰ المصلحة العامة، وإشاعة المعروف وتحقيق العدل وقبول النصح، ومشاورة أهل الحل والعقد. وكالذي نجده سائداً في المجتمع الإِسلامي، من إكرام الضيف، ونصرة المظلوم، وحماية الضعيف والإِنفاق

علىٰ المعسرين، وصون الحياة العامة من الانحراف، والحرص علىٰ نظافة البيئة والرفق بالحيوان. . .

وإنما تكون الاستجابة لجوهر هذا النوع دون نظمه وشكلياته، لأن تراكم المعارف والخبرات الإِنسانية وتعقد ظروف الأداء واتساع الحاجات وتنوعها ـ جعلت المراحل الزمنية السابقة قاصرة ـ بصورة غالبة ـ عن الوفاء بحاجات المراحل اللاحقة. فالتنظيمات والأطر والأوعية الحضارية المختلفة التي كانت سائدة أيام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم تتسع للمستجدات في حياة التابعين؛ مما دعاهم إلىٰ الاجتهاد والاقتباس مما عند الأمم الأخرىٰ. كما أن ما توفر من ذلك في زمان التابعين لم يف بحاجات تابعي التابعين، ففعلوا ما فعله أسلافهم وهكذا. . . .

والإِصرار علىٰ نقل الأشكال التي استهلكها تقادم الزمن وتطور الحاجات سيكون في ضرره قريباً من نبذنا المضامين الخيرة لها.

٣ ـ التجاوز:

نعني بالتجاوز هنا غض الطرف، وعدم الوقوف عند بعض ما كان سائداً في الأيام الماضية مع أنه تراث إسلامي؛ وذلك لأنه كان يلبي حاجات مؤقتة، أو لأنه كان يعبّر عن أزمة أكثر من تعبيره عن الالتزام بالهدي الرباني، أو الواقع التاريخي المعيش، أو لأنه كان رد فعل خاطئاً، أو نتيجة سوء تقدير، أو سوء فهم للمنهج الرباني، أو كان نتاج رؤية جزئية محدودة لبعض الأمور والقضايا. . . وبكلمة واحدة، هي: كما أن كثيراً مما يتم إنتاجه اليوم علىٰ المستوىٰ المعرفي والصناعي والتنظيمي ـ لا يستحق أن يقرأ، أو يطبق، أو يُقتنىٰ؛ فإن في الماضي أشياء كثيرة لا تستحق الاهتمام، وقد حصل في عصور الجمود والانحطاط ـ بعد ذبول الحضارة الإِسلامية وكفها عن النمو والعطاء ـ أن قعد الفكر عن الإِبداع والتوليد واجتراح المجهول، كما ضعفت حركة اليد، وصارت عطالة كل منهما تمد في عطالة الآخر عبر دورات رديئة مزعجة. فغلب جانب التأمل الفلسفي علىٰ جانب

المزاوجة بين البحث العلمي والتجربة الحية. وساد الجدل اللفظي تأثراً بالمنطق اليوناني، ونتيجة لضعف حركة المعلومات؛ صار توصيف خصائص الأشياء، وتعليل الظواهر المختلفة ينبع من تصورات واهمة، لا مكان لها إلا في أذهان قائليها. ودخلت الأمة في مرحلة رديئة من (اجترار الذات)، فكثرت الشروح والمختصرات والحواشي وكتب العرافة والتنجيم والسحر، وانفصل الفكر عن الواقع، فتوجه التنظير للواقع التاريخي، وصار الواقع المعيش عاطلاً من الفهم والتعليل والمعالجة. وقد يستغرب المرء أن (ألفية ابن مالك) قد شرحت بما يزيد علىٰ (١٢٠) شرحاً!. وأفرد الترمذي - (ت٢٧٩هـ) شمائل المصطفىٰ ﷺ - في كتاب، فجاء بعده أكثر من (١٣) مؤلفاً اشتغلوا بشرحه! وكتب القاضي عياض كتاب (الشفاء)؛ فإذا أكثر من (٢٠) مؤلفاً يقومون بالشرح والاختصار.

ومنذ القرن السابع الهجري حتىٰ القرن الرابع عشر ألف بعض العلماء نحواً من (٢٩) كتاباً في أسماء النبي ﷺ[1]. وهذا كله مع أن هناك جوانب أكثر أهمية في حياته ﷺ كانت بحاجة إلىٰ العناية والتوضيح. والأمة اليوم تعاني من مشكلات جمة، والطاقات محدودة، والوقت لا ينتظرنا، وأوقات القراء وأموالهم أيضاً محدودة. وليس ذلك فحسب؛ بل إن من التراث الذي ينشر الآن ما يمثل تراجعاً ونكوصاً عن مسيرة العمل؛ حيث يكون ما ألّف قبله أكثر نفعاً وأوعىٰ للمعرفة منه.

فينبغي أن نحقق، وننشر من ذلك (الكم) الضخم من الكتب التراثية ما يمثل إضافة حقيقية للمعرفة السائدة في زماننا في التخصصات كافة. كما أنه ينبغي أن نعنىٰ بنشر ما يشير إلىٰ الملامح التطورية لكل تخصص، كأن ننشر أول كتاب أُلف في ذلك التخصص، وآخر كتاب أضاف إضافة حقيقية إليه.

وكأن ننشر الكتاب الذي يشكل قفزة نوعية في فنّه، أو يشكل منعطفاً، أو يعرض وجهة نظر مغايرة لما هو سائد وهكذا...

---

(١) التراث والمعاصرة: ١٢٤، ١٢٥.

ولا ينبغي ـ في نظري ـ أن نقف كثيراً عند أشكال العمارة والجسور والأنفاق التي شيدت في الماضي؛ ولكن نستفيد مما قد يكون فيها من الستر والمتانة والعزل الحراري والتهوية والإحاطة بالمسجد... مما هو دائم النفع، وينسجم مع مبادئنا وحاجاتنا.

٤ ـ الاعتبار:

في تراثنا نجاحات كثيرة، وإخفاقات أيضاً كثيرة. وإن الله ـ تعالىٰ ـ أمرنا في مواضع كثيرة في كتابه، وعبر القصص القرآني أن نأخذ العبرة من أعمال السابقين وانتكاساتهم؛ حتىٰ لا نصير إلىٰ عين النتائج التي صاروا إليها إذا ما نحن سلكنا سبلهم. وتاريخنا وتراثنا أولىٰ بالاعتبار والاستفادة. ولا نعني بالاعتبار أن العبرة لا تؤخذ إلا مما هو خطأ؛ فقد يكون عمل ما في حد ذاته (محايداً) لكن وروده في سياق معين وظروف محددة أدىٰ إلىٰ جعله خطأ.

وفي البداية فإن مما لا شك فيه أن أخطاءً كثيرة ارتكبت، ومعاصي جمّة اقترفت أدت بمجموعها إلىٰ أن تترك هذه الأمة مكان الصدارة، والصيرورة إلىٰ البحث عن مكان في ذيل القافلة، وصرنا ـ كما في حديث القصعة ـ غثاء كغثاء السيل مع كثرة العدد، ووفرة الإمكانات؛ ففقدنا الوزن والتجانس.

إن مواطن الاعتبار في تراثنا وحضارتنا أكثر من أن تحصىٰ: فالركون إلىٰ الدنيا والتمادي في الترف أديا إلىٰ الأحقاد الشخصية وحولا المجتمعات الإسلامية إلى بؤر للصراع الاجتماعي. والفهم الخاطئ للقضاء والقدر، والزهد أدىٰ إلىٰ فشوّ الكسل والبطالة والجبرية وتعذيب الأجساد والانفصال عن واقع الحياة. والإسراع في حركة الفتوح أدىٰ إلىٰ قصور آليات الاستيعاب التربوي والثقافي والاجتماعي عن مواكبتها. واعتماد النظام (اللامركزي) في الحكم مع عدم تطوير نظام الشورىٰ علىٰ نحو ما يقتضيه اتساع رقعة الدولة أدىٰ ـ مع أسباب أخرىٰ ـ إلىٰ تفتيت الدولة العباسية. والجري وراء المنطق اليوناني الذي يعادي التجربة.. أدىٰ إلىٰ انطفاء

شعلة المنهج التجريبي، وإلىٰ التخلف في الإِنتاج الصناعي، وكساد سوق الحِرَف والمهن، وهكذا. . .

إن الاعتبار بما مضىٰ من أيام الله يحتاج منا إلىٰ التمتع بأهلية الرؤية الشاملة، ومحاولة تلمس الظواهر الكبرىٰ في تاريخنا، والبعد عن الغرق في الجزئيات، ثم البحث في العلل والأسباب الكامنة وراء حدوثها.

٥ ـ النقد:

إن أبناء جيلنا ورثوا عن الآباء والأجداد الكثير من الأمجاد والبطولات والتجارب النافعة. كما أنهم ورثوا تركة مثقلة بالمشكلات. ومن حق الورثة أن يسلطوا الأضواء علىٰ ما ورثوه، فيحاولوا الانتفاع بالجيد وفرز الرديء؛ ما دام ليس من الصواب رفض ذلك الإِرث جملة واحدة، أو قبوله جملة واحدة. وهذا ما فعله السلف الأخيار في كل مرحلة من مراحل تاريخنا؛ فكانوا لا يسمحون للأخطاء أن تستشري فيهم مهما كان نوعها. وكتب الأقدمين تطفح بالردود علىٰ آراء ونظرات سابقة. فقد أبىٰ الله ـ تعالىٰ ـ الكمال إلا لكتابه، والعصمة إلا لأنبيائه.

وإن الواحد منا ليؤلف الكتاب، أو يعمل العمل، ثم يعيد فيه النظر بعد (مُديْدة)؛ فإذا به يكتشف فيه خللاً، أو يكتشف في نفسه قدرة علىٰ السعي به نحو موقع أكمل!. إن العقل الإِنساني محدود، وهو لا يبصر الأشياء إلا ضمن حدود الزمان والمكان وقيودهما. ومن ثم فإن القصور لا بد واقع في منتجاته كلها.

ولا بد لنا هنا من الإِشارة إلىٰ أمر مهم، هو: أن الحكم بالخطأ لا يقتضي اللوم دائماً. وذلك لأن من الإِنصاف أن نضع كل شيء ننظر إليه في سياقه التاريخي والمعرفي. ونظراً للتقدم العلمي الهائل؛ فإن من الطبيعي أن يثبت خطأ كثير من الأقوال والتعليلات والمواقف السابقة لدىٰ الأمم والأجيال جميعاً، وأن يخفت بريق كثير من النظريات والأساليب والمعارف المختلفة. ونحن إذ نحكم بالخطأ أو القصور علىٰ شيء من ذلك نوجّه

اللوم حين يقصر صاحب الرأي أو التجربة في استخدام الوسائل المتاحة في عصره، أي: حين يكون متخلفاً عن عصره ذاته، لا عن عصرنا نحن. أو حين يخالف العالم المسلم بينات المنهج الرباني مخالفة تعد انحرافاً لا اجتهاداً مؤصّلاً. أما ما عدا ذلك فإن الحكم بالخطأ لا يعني الحكم باللوم أو التقصير. فنحن لا نلوم أهل القرن الثالث الهجري؛ لأنهم لم يصنعوا درّاجة، أو لأنهم لم يكتشفوا قوانين الجاذبية.... وذلك لأن العتبة المعرفية السائدة في تلك الوقت لا تسمح بذلك. ولو كان كبار عباقرة ومخترعي عصرنا يعيشون في تلك الحقبة؛ لما أمكنهم أن يقدموا للناس شيئاً مما قدموه في العصر الحديث.

ومع كل هذا فإن النقد لما نعتقد أنه خطأ أو انحراف يظل ضرورة حيوية. وذلك النقد برهان ساطع علىٰ التقدم المعرفي، وعلىٰ أن جهود العلماء السابقين مصيبها ومخطئها ـ قد قامت بوظيفتها حين رفعت درجة وعينا وخبرتنا وتقنيتنا، وساعدتنا علىٰ أن نتجاوزها، لنتمكّن في النهاية من نقدها وتقويمها.

وتكمن أهمية النقد في أمرين أساسيين:

الأول: أن النقد يسهم في بلورة وعينا بذاتنا من خلال منحه المحددات والمشخّصات لأبعاد هذا الوعي ومفاصله ومحصلاته؛ حيث نحاول أن نجعل منه ذاتاً (لا استمرارية) للسياقات والمعطيات السابقة.

ونجعل مما ننقد موضوعاً نعمل فيه وعينا وخبراتنا المتراكمة؛ وذلك سعياً للمحافظة علىٰ التواصل مع أهدافنا والاتجاه الذي رسمناه لأنفسنا؛ كيلا يذهب به الامتداد.

الثاني: أن النقد يساعدنا علىٰ النجاة من تكرير الأخطاء السابقة؛ فالنقد يدل علىٰ إدراك الخطأ وتشخيصه ورفضه. وحين يُشفع بالتعليل المنهجي والمنطقي والتجريبي الكافي؛ فإنه يمنحنا حصانة ممتازة ضد النكوص والتلطخ بأوحال الأخطاء السابقة.

ولا أظن أن من المفيد كثيراً أن نذكر نماذج مما ثبت خطؤه أو قصوره من أعمال السابقين، فذلك كثير ومعروف. لكن يظل المهم بالنسبة لنا هو امتلاك التفكير السببي المنطقي، والتمتع بالحس النقدي، والاستحواذ علىٰ رؤية حضارية شاملة، تمكن من إدراك كل العناصر والأبعاد اللازمة لقيام أمة عاملة بواجب الاستخلاف في الأرض ونشر أعلام الهداية وإعمار الأرض بعيداً عن الانسياق وراء عنصر من عناصر البناء، أو الانجراف في تيارات المبالغات وردود الأفعال والرؤىٰ الوقتية الجزئية. وعلىٰ الله قصد السبيل.

الحضارة الغربية والنموذج المطلوب

فطر الله ـ تعالىٰ ـ الإنسان علىٰ حب التحول من الحال التي عليها إلىٰ حال أخرىٰ يظنها أفضل منها؛ فهو في سعي دائم نحو تلبية أشواقه واحتياجاته في الرقي والتحسّن. لكن لكل أمة من الأمم تشوفاتها واستشرافاتها الخاصة نحو الأفضل علىٰ نحو ما توحي به المنظومات القيمية والمعرفية والرمزية التي تكوّن ثقافتها. وهذا لا ينفي وجود خطوط إنسانية مشتركة تمليها الفطرة والحاجات الروحية والجسمية والخبرة التاريخية... لكن هذا الإنسان محدود الرؤية، ضعيف الإدراك لما يصلحه، وللأسباب التي توصله للإصلاح... ومن ثم فهو في حالة دائمة من محاولة استشفاف المستقبل ومراجعة الماضي وتبديل الطروحات وسبر الخيارات...، ومن ثم فإن الله تعالىٰ أمرنا أن نردد كل يوم مرات عديدة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾؛ حيث إننا بحاجة إلىٰ عون دائم من الله ـ تعالىٰ ـ كيما نتمكن من وضع أقدامنا علىٰ الطريق الصحيح، ونخطو الخطوة المناسبة.

وهذا يعني أنه ليس هناك نموذج حضاري متخيّل يسعىٰ الإنسان إلىٰ تحقيقه لا علىٰ مستوىٰ الفرد، ولا علىٰ مستوىٰ الجماعة. وما يتم تخيُّله في بعض الأحيان يعدِّله التشابك المعقَّد للظروف والأحداث التي لا يمكن لأحد أن يتصور كيفية حدوثها.

ومما لا شك فيه أن الحضارة الغربية والثقافية التي تغذيها بالروح والفكر تضغطان اليوم ضغطاً شديداً علىٰ جميع الثقافات والنظم والنماذج الحضارية الأخرىٰ. وذلك من خلال (الغلبة) التي تم تحقيقها في مختلف الميادين المادية.

وصارت حضارات وثقافات عديدة تحاول أن تتماشىٰ؛ معها حتىٰ تجد لنفسها مكاناً في العصر الحديث، وحتىٰ لا تتهمش، وتعزل عن تيار الحياة المعاصرة. ومشكلة المسلمين أنهم انقسموا حول الموقف الذي ينبغي أن يقفوه من الحضارة الغربية إلىٰ ثلاثة فرقاء: فريق يرىٰ الأخذ عن الغرب دون تمييز بين صالح وطالح، وجيد ورديء؛ وإن ادعىٰ خلاف ذلك. وفريق ينظر إليها علىٰ أنها حضارة مادية شوهاء؛ فهي أقرب إلىٰ أن تكون ضرراً محضاً؛ من ثم فإن البعد عن كل أدبياتها وطروحاتها واجب، مهما كان الثمن. أما الفريق الثالث؛ فيرىٰ ضرورة الغربلة والنخل لكل ما عندهم، ثم اختيار النافع منه وإهمال الضار، وبين هذه التيارات الثلاثة تيارات جزئية عديدة تلوِّن كل واحد منها بألوان شتى. ولا يهمنا هنا تشخيص كل تيار من هذه التيارات الثلاثة، ولا ذكر حجمه، لكننا نريد أن نفصل الحديث في أمرين:

الأول: هو عدم صلاحية النموذج الغربي الراهن لإِسعاد الإِنسان وإعمار الأرض.

الثاني: بعض الشروط والمواصفات العامة التي ينبغي أن تتوفر ـ بشكل تقريبي ـ في النموذج الحضاري الذي نسعىٰ إلىٰ تحقيقه في العالم الإِسلامي.

الحضارة الغربية والتيه الإِنساني:

الحضارة الغربية الراهنة، هي حاصل ما بذل من جهد خلال القرون الخمسة الماضية ـ علىٰ أقل تقدير ـ علىٰ صعد تحقيق سيطرة الإِنسان علىٰ الطبيعة وتحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة والمتعة له. والنشأة الأولىٰ للحضارة الغربية كانت في غرب أوروبا، ثم انتقلت إلىٰ أمريكا. وبِنىٰ أفكارها ومفهوماتها العميقة مستمدة أصلاً من الفكر والتراث الإِغريقي ـ المسيحي وحين ثار الغرب علىٰ الكنيسة حل الفلاسفة والمفكرون والمخترعون والسياسيون محل كهنة الكنيسة، وأخذت الحضارة الغربية تنحو

شيئاً فشيئاً نحو الاعتماد على العقل والعلم في رسم الأهداف الكبرى وأطر البناء والحركة والمحطات النهائية لكثير من المعايير الحضارية بعيداً عن الدين والوحي والغيب.

ويمكن أن نعدد أهم المقولات والمنطلقات التي قامت عليها فكرة التقدم، وبالتالي الحضارة لدى الغرب في النقاط التالية:

١ - عقل الإنسان غير محدود، وهو قادر على معرفة الطبيعة والسيطرة عليها.

٢ - المعرفة الإنسانية ستظل تتراكم بشكل مطرد بلا نهاية.

٣ - الموارد الطبيعية في الكون غير محدودة، ولا يمكن أن يصيبها العطب؛ «فالمادة لا تفنى».

٤ - المجتمعات الغربية - خصوصاً غرب أوربا - هي ذروة العملية التطورية العالمية الطبيعية؛ ومن ثم فإنها هي النموذج الذي ينبغي أن يحتذى.

٥ - الثمن السلبي للتقدم أقل بكثير من عائده الإيجابي؛ ولذا فثمن التقدم معقول، ويمكن قبوله.

٦ - عملية التقدم ليس لها غاية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقي محدد.

٧ - لا مرجعية للتقدم، أو مرجعيته ذاته. ومن ثم يصبح هو الوسيلة والغاية؛ فنحن نتقدم؛ كي نحرز مزيداً من التقدم.

٨ - التقدم في التحليل النهائي لدى الإنسان الغربي هو زيادة المنفعة، وتعظيم اللذة لأكبر عدد ممكن من البشر. وبالتدرج أصبح التقدم هو تزايد القوة والسلطة[1].

والناظر في هذه المقولات يجد أنها تتمحور حول النمو والمنفعة والتقدم المادي البحت. وإذا ما تطرقت الثقافة الغربية إلى مسائل الفضيلة والأخلاق؛ فمن باب تهيئة الأسباب للنمو المادي أكثر من استشعار تحقيق الفضائل الآدمية.

---

(١) انظر مقالاً بعنوان: «زوال الوهم» بقلم د. عبد الوهاب المسيري، جريدة الشرق الأوسط في ١٤/١٢/١٤١٤هـ.

وهذه المقولات، وأخرىٰ علىٰ شاكلتها بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرىٰ؛ كلما أوغل الغرب في السيطرة علىٰ الطبيعة وامتلاك القوة، فالعالم في القرن العشرين أقل تفاؤلاً منه في القرن التاسع عشر. وهو في العقدين الأخيرين أشد يأساً وبؤساً مما كان عليه في النصف الأول من هذا القرن. ويمكن أن نقول إن كثيراً من الغربيين بدأوا يكتشفون أن كثيراً من أسس التقدم التي بلغت قمة التبلور والسيطرة في أواخر القرن التاسع عشر ـ بدأت تنهار علىٰ المستويات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية.

الحضارة الغربية وفقد الاتجاه:

بعد أن ابتعد الغرب عن الدين ـ أي دين ـ، وعن الاهتمام بما وراء المادة اتخذ من الوثوق بالعقل والعلم ومنتجاتهما البديل الذي سوف يجيب علىٰ كل تساؤلات الإِنسان الفلسفية، ويلبي كل حاجاته الروحية والمادية. وكان الوعي الأوربي مفتوناً بذاته ومدركاته وإنجازاته خلال القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين؛ مما غرس في نفوس الغربيين عقدة التفوق العنصري؛ حتىٰ قال (سارتر) علىٰ هذه الأرض ثلاثة مليارات: نصف مليار من البشر ومليارات ونصف من السكان!. وهذه العقدة منحت المواطن الغربي نوعاً من الوثوق المطلق بالفلسفة الغربية، ومقولاتها في الكون والإِنسان والحياة.

لكن تبين ـ بعد فوات الأوان ـ قصور العلم والعقل عن كل التساؤلات التي يطرحها الإِنسان. وصار الشعور بالعجز عن قدرتهما علىٰ تحديد الاتجاه الصحيح والمد بآليات السيطرة علىٰ النفس والمجتمع وتوجيههما نحو الاتجاه الأصلح ـ يتنامىٰ يوماً بعد يوم ـ. يقول الرئيس الأمريكي الأسبق (نيكسون) في لوعة: «منذ قرن مضىٰ كانت الثورة الصناعية ماضية في طريقها، والأمة آخذة في التوسع، وكان الأمريكيون يتحدثون بثقة عن المستقبل الجلي. كانت إمكانات الأمريكي يحدها الحاجة والمرض، لكن كانت روحه طليقة. واليوم فإن معظم الأمريكيين متحررون من

الحاجة، لكننا ما زلنا نبدد طاقاتنا الخلاقة في التكهن مجدداً بهويتنا وقيمنا»[1].

ويعبر عن الانحراف الذي حصل عند الأمريكان الجدد حين يقول: «لم يكونوا ـ أي مؤسسو أمريكا ـ بلهاء، أو مصلحين حمقىٰ، ولكنهم آمنوا بالقيم الأخلاقية والروحية. وكان حرياً بهم أن تروعهم الفلسفة التي يلوح أنها علىٰ هذه الدرجة من الطغيان في العالم الرأسمالي اليوم؛ حيث لا يحرك الكثيرين إلا دوافع من القيم الأنانية والعلمانية والمادية. والمال عندهم هو الخير الوحيد»[2].

إن الغرب حين فقد الثوابت المستمدّة من الوحي لم يبق أمامه إلا الاستفادة من معطيات العلم، ومن الخبرة التاريخية. ومعطيات العلم تفرز الآن من المشكلات ما تعجز عن حله. كما أنها أضعف من أن تساعد الإنسان علىٰ تلبية حاجاته الروحية والفطرية. أما الخبرة التاريخية والاستفادة منها في عدم تكرار الأخطاء؛ فإن مما يُخشىٰ أن تكون استفادة البشرية منها مجرد وهم! والمشكلة التي تواجه الغرب اليوم تعدت الإحساس بفقد الاتجاه ومسوغات الوجود إلىٰ الشعور بأن منتجات الحضارة، هي التي صارت تصوغ فكر الإنسان وشعوره، وصار وضع الإنسان معها أشبه بالعجلة تدور بسرعة فائقة، والإنسان هو الذي يدفعها؛ ولكنه أصبح يجري وراءها، ويدور معها. فهو الذي حركها في البداية؛ لكنها صارت هي التي تحركه دون إرادة أو وعي منه. والمشكلة الآن، هي أن الإنسان فقد القدرة علىٰ التحكم بالحضارة، والقدرة علىٰ تلافي الأضرار الناجمة عنها. وفي هذا يقول (بريجنسكي) مستشار الأمن القومي السابق في أمريكا: إن (الديموقراطية) التي تمثل المساهمة الرئيسة للغرب لا تقدم بنفسها الأجوبة عن معضلات الوجود الاجتماعي، ولا تملك ـ خصوصاً ـ مفهوماً للحياة الجيدة. ويرىٰ أن التطور الهائل في مجال تقنيات (الهندسة الوراثية) قد

---

(١) نصر بلا حرب: ٢٨.

(٢) السابق: ٣٢٠.

يوقع الإنسان في فقد السيطرة علىٰ ذاته فيما تطرح أسئلة من نوع: ما هو الكائن البشري؟ وما هي الصفات النهائية التي تحدد الأصالة البشرية؟ كما أن التطور الهائل في مجال الحاسب الآلي قد يؤدي إلىٰ أن تصبح الحاسبات في مستقبل قريب كائنات واعية، وقادرة علىٰ التفكير في المشاكل بدل التعامل مع المعطيات. ومجمل التطورات في المجالات المختلفة سوف يلقي أسئلة عديدة أخرىٰ مثل: ما هي حدود التفرد والأصالة الإنسانيين؟ وما معيار المجتمع الجيد علىٰ الصعيدين القومي والعالمي؟ وهذا كله قد يحوّل مركز الثقل من السياسة والاقتصاد إلىٰ الفلسفة والعلم[1].

وتتجلىٰ أزمة الحضارة الغربية في العجز عن الإجابة علىٰ الأسئلة المتعلقة بالمصير وأهداف الوجود ومسوغاته ـ في عشرات الملل والنحل التي بدأت تترعرع في الغرب بقيادة مجموعة من الدجالين والمهووسين الغربيين والقادمين من الشرق. وما حادثة (قورش) عنا ببعيدة. كما تتجلىٰ أزمته في استعادة الحركات النازية والفاشية والعنصرية المتطرّفة لمركزها وحيويتها في السنوات الأخيرة؛ لملء الفراغ الذي أحدثه إبعاد الدين عن دائرة الانتماء والتوجيه.

مفرزات الحضارة الغربية في الميدان الاجتماعي:

تعد إخفاقات الحضارة الغربية في الميدان الاجتماعي والأخلاقي هي الأكثر بروزاً؛ حيث زادت أعداد الأطفال غير الشرعيين من أمهات مراهقات كما كثرت حالات الإجهاض، وحالات تشبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال. وأهمل الآباء والأمهات تربية أطفالهم؛ فخرجوا من أيديهم إلىٰ غير رجعة. وانتشر إدمان المخدرات، وأفضىٰ ذلك إلىٰ ارتفاع معدلات الجريمة بصورة شبه مطردة منذ الحرب العالمية الثانية. وساد الاكتئاب وعدم الاتزان والتوتر العصبي، وازداد تناول الناس لأدوية الحساسية وضيق التنفس. وضعف التواصل الاجتماعي نتيجة انتشار أجهزة التلفاز والحاسب

---

(١) هذه المعلومات متناثرة في كتابه: «خارج نطاق السيطرة».

الآلي. وساءت معاملة الناس للشيوخ والعجائز، وما عادوا يلقون سوىٰ الإهمال!.

وسادت في الغرب روح استهلاكية عارمة، تدمر كل شيء أتت عليه، من باب التعويض عن الخواء الروحي الرهيب الذي يعاني منه المواطن الغربي.

ويكفي أن نعلم أن بعض الدراسات التقديرية انتهت إلىٰ أن ما استهلكه الأمريكان خلال قرن يعادل ما استهلكته البشرية كلها في تاريخها الطويل! ويكفي للتدليل علىٰ ضخامة آليات الاستهلاك والترغيب فيه أن نعلم أن أمريكا وحدها أنفقت علىٰ الدعايات عام ١٩٩٢م ما يقرب من (٨٦) بليون دولار!.

وغزت نتيجة ذلك كله العالم الغربي الأمراض الفتاكة التي أخذت تحصد مئات الألوف سنوياً.

إن المجتمعات الغربية ما زالت قادرة علىٰ دفع التكاليف الباهظة للانهيار الأخلاقي والاجتماعي الذي أفرزته حضارتهم بسبب بقايا المنهوبات من عالم المستعمَرين وبسبب الجهود والعبقريات الفذة عندهم؛ لكن حين تستحكم الأزمات الاقتصادية، وتعجز الدول عن تأمين الحدود الدنيا من الغذاء والدواء والرعاية الاجتماعية؛ فإن الانهيار سوف يسير بخطىٰ متسارعة، وسوف تعم الفوضىٰ بطريقة لا يستطيع أحد أن يتخيلها!.

ولا تقتصر المشكلات الاجتماعية في الغرب علىٰ ما ذكرناه، وإنما هناك مشكلات أخرىٰ تؤثر في السياسة، وفي توجيه الحركة العامة للمجتمع؛ ففي فرنسا ـ علىٰ سبيل المثال ـ كان عام (١٩٩٢م) ٦٪ من الشعب يمتلكون ٥٠٪ من الثروة القومية. و٩٤٪ يقتسمون الباقي.

واعترف (كلنتون) في نيسان الماضي بأن ١٪ من الشعب الأمريكي يملكون ٧٪ من الثروة القومية[1].

---

(١) هذه الأرقام من مقابلة جرت مع المفكر المسلم روجيه جارودي أوردتها جريدة (المسلمون) في عددها الصادر في ٢١/ ٢/ ١٤١٤هـ.

والمشكلة في هذا التفاوت في امتلاك الثروات تنعكس على السياسة؛ إذ إن الحملات الانتخابية في الغرب عامة، وفي أمريكا خاصة ـ تكلف عشرات الملايين من الدولارات، ويدفع أكثرها أصحاب المؤسسات والشركات الكبرىٰ؛ ليستردوها فيما بعد بطرق مختلفة، كالتغيير في قوانين الضرائب وغير ذلك. والمواطن الغربي ينظر، ولا يدري ماذا سيصنع تجاه امتصاص دمه بطرق وأساليب قانونية محترمة!.

الغرب والاقتصاد:

أما في المجال الاقتصادي فإن التقدم العلمي الهائل والخميرة المالية المنهوبة من البلدان المستعمرة فيما مضىٰ، وما يمارسه الغرب من تصدير تكاليف رفاهيته إلىٰ العالم الثالث ـ قد ساعدت علىٰ تمتع المواطن بدرجة عالية من الدخل والتمتع بكماليات لم يكن باستطاعة الإِنسان مجرد تخيلها قبل قرن من الزمان.

لكن من المعلوم أن هناك علاقة جدلية مؤثرة جداً بين مختلف جوانب الحياة الحضارية؛ فالانحباس والتأزم علىٰ أي صعيد سوف ينعكس علىٰ بقية الصُعد؛ فالنمو الاقتصادي المتسارع في دول جنوب شرق آسيا واليابان ودول عديدة أخرىٰ ـ قد حرم الغرب من أسواقه الداخلية؛ فالميزان التجاري بين أمريكا واليابان يميل لصالح الأخيرة بعشرات المليارات من الدولارات. والطريف أن أمريكا تغطي ذلك العجز من قروض من البنوك اليابانية!

والحرص علىٰ إنتاج سلع جيدة ورخيصة جعل حدة البطالة في الغرب ترتفع، حيث هاجرت رؤوس أموال ضخمة إلىٰ المناطق الأسرع نمواً في الشرق الأقصىٰ، كما أن الشركات الكبرىٰ فتحت لها مصانع كثيرة خارج أوروبا وأمريكا مما حرم العمال هناك من ملايين الوظائف.

وإذا أخذنا أمريكا نموذجاً علىٰ ما ينتظر الغرب من شؤم اقتصادي فإننا سنجد أموراً مذهلة حقاً!

إن الدخل القومي لأميركا أعلىٰ من الدخل القومي لأوربا الغربية مجتمعة. لكن المشكلات التي بدأت أمريكا تغوص فيها لا مثيل لها في القارة الأوربية ـ مع أن أوضاعها في الأصل أفضل بكثير من أوربا ـ. وقد صدرت تحذيرات كثيرة في أمريكا من الوضع المأساوي الذي ينتظر الاقتصاد الأمريكي خلف الأبواب. ومن ذلك ما توقعه الجنرال الأمريكي المتقاعد (هاملتون هوذ) من السقوط (التراجيدي) لأمريكا عام ٢٠٢٠م. وما ذكره مرشح الرئاسة الأمريكية في الانتخابات الماضية (روس بيرو) في كتاب له عن انتقال الاقتصاد الأمريكي من الطفرة إلىٰ الفاقة. ويمكن أن نستعرض بعض الحقائق التي عرضها الكاتبان حول الوضع الاقتصادي في أمريكا.

يستعرض (هاملتون) العجز في الميزانية الأمريكية والديون الكبيرة التي فاقت كل التصورات. ويذكر أن ديون أمريكا كانت عام ١٩٥٠م (٤٣) بليون دولار. وفي فترة رئاسة (ريجان) (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م) ارتفعت إلىٰ (٢,٦) تريليون دولار. وفي عام ١٩٩٢م قاربت ديون أمريكا ما مجموعه ٤ ترليونات[١].

ويذكر بيرو أن ديون أمريكا زادت بمقدار ثلاثة ترليون خلال الاثنتي عشر سنة الماضية فقط. وهذا يعني أن الزيادة كانت بمعدل ترليون واحد لكل فترة رئاسية! ويتطرق (بيرو) إلىٰ ظاهرة تقليص الشركات الأمريكية لحجمها وإغلاق بعض مصانعها، وتسريح بعض موظفيها، كما فعلت (جنرال موتورز). ويقول: إن سبب ذلك هو تدهور الاقتصاد الأمريكي. ويشير إلىٰ أن نسبة البطالة في أمريكا تصل إلىٰ ٧٪. ويذكر أن المجتمع الأمريكي فقد خلال الفترة من (١٩٨٩ ـ ١٩٩٢م) أكثر من (٧٠٠٠٠٠) وظيفة في القطاع الصناعي الخاص فقط. ويقابل هذا زيادة مستمرة في الوظائف الحكومية. وهذا سيهدد مكانة أمريكا الاقتصادية بين دول العالم[٢].

---

(١) من استعراض للكتاب قام به د. محمد سعود البشر في جريدة (المسلمون) بتاريخ ٢٤/ ٨/ ١٤١٤هـ.

(٢) من عرض د. محمد سعود البشر لكتاب (بيرو) في جريدة (المسلمون) بتاريخ ٧/ ٥/ ١٤١٤هـ.

سيكون إطلاقنا الأحكام النهائية بنجاح التجربة الغربية في الميدان الاقتصادي، ومحاولتنا محاكاتها ونقلها إلىٰ بلاد المسلمين نوعاً من الاستعجال المدمر؛ حيث إن سيرورة التحول في هذا المجال ما زالت مستمرة ولا ينبغي أن نخدع بما نشاهده الآن من ازدهار اقتصادي هناك؛ لأن الجسم الفاره يقاوم الأمراض والأوبئة لمدة طويلة؛ ولكن مرور الأيام لا يؤدي إلا إلىٰ انهيار مقاومته وهزيمة مناعته.

الحضارة الغربية والبيئة:

إن القناعة بضرورة استمرار التقدم تمثل جوهر الثقافة الغربية. وهذا التقدم الذي يوفر الكثير من السلع الضرورية والكمالية، لا يمكن أن يكون بدون ثمن. ومن جملة ثمنه نفاد المواد الأولية غير المتجددة، وتلويث البيئة علىٰ نحو يجعلها غير صالحة لاستمرار حياة الإنسان. وقد أصيبت بعض دعائم فكرة التقدم اللامحدود بإصابات لا شفاء منها؛ حيث ثبت للجميع أن العقل محدود، وأن العلم محدود، وأن الرؤية الكلية ليست في متناول أي منهما؛ فالإنسان يحرز التقدم في جانب؛ لكنه لا يستطيع تقدير الأضرار التي سببها ذلك التقدم. وذلك بسبب عدم إدراكنا لكل مكونات النظام البيئي، ولكل مكوّنات النفس البشرية.

إن الأخطاء التي كانت تتم في التجارب العلمية في الماضي كانت تتم داخل دورات الطبيعة، لا تتعدىٰ قوانينها؛ ولذا كانت دورة الطبيعة تقوم بإصلاح الخلل عبر بعض السنين. أما التجارب في حقل الهندسة الوراثية فإنها قد تأتي بمخلوقات (حشرات، فيروسات) لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها؛ حيث إنها تقع خارجها!.

إن الغرب يزهو اليوم بإنجازاته الحضارية، ويعيب علىٰ الآخرين تقصيرهم في عدم تمكنهم من اللحاق به، دون أن يحسب حساب النتائج المترتبة علىٰ سلوكه الجنوني في ميداني الإنتاج والاستهلاك؛ فقد اكتشف الإنسان أن المصادر الطبيعية محدودة، وأن الدول المتقدمة التي يشكل سكانها قرابة ١٠٪ من سكان الأرض يستهلكون ٨٠٪ من المصادر الطبيعية.

وهذا يعني أن تلك الموارد لا تكفي لأن يلحق العالم النامي بالغرب، ويسلكِ سبيله في ضخامة الإنتاج والاستهلاك. وماذا يحدث لو تخيلنا أن ٩٠٪ من البشر قرروا أن يسلكوا سبيل الغرب؟ إن نسبة التلوث سوف ترتفع! فلو تخيلنا أن البرازيل قطعت أشجار المطر الاستوائية؛ كي تلحق بأمريكا تشكل مصدر ثلث أوكسجين الكرة الأرضية؟ وماذا سيحدث لو أن سكان الصين والهند ـ وهم يشكلون ثلث سكان الأرض ـ قرروا أن يركب كل واحد منهم سيارة، واستهلك من الطاقة ما يستهلكه الأمريكي؟!!.

إن بعض الدراسات تقدر أن من الممكن أن يختنق الجنس البشري في خمس أو عشر سنوات[١]!.

إن مشكلة الإجهاز علىٰ البيئة تنبع من أن الأرض واحدة، والعالم ليس واحداً؛ فكل تصرف عليها سيؤدي في نهاية المطاف إلىٰ المساس بالجميع؛ لكن كل دولة تسعىٰ لأن تصارع من أجل البقاء، أو تسعىٰ لزيادة رفاهية شعبها بشكل منفرد.

إن أكبر الأخطار التي يواجهها الإنسان نتيجة منهجية الحضارة الغربية في التعامل مع الأشياء يتمثل في ارتفاع درجة حرارة الأرض ونضوب الموارد غير المتجددة.

وتبين بعض الدراسات التي تعتمد علىٰ بناء النماذج والتجارب حدوث ارتفاع في متوسط درجات حرارة سطح الأرض علىٰ نحو يتراوح بين (١,٥ ـ ٤,٥) درجة حرارة مئوية. وأن ذلك ربما يكون بمقدار الضعف أو أكثر في القطبين؛ مما سيؤدي إلىٰ ارتفاع مستوىٰ سطح البحر بمقدار (٢٥ ـ ١٤٠) سم. وهذا سيؤدي إلىٰ غمر المدن الساحلية، والمناطق الزراعية المنخفضة. ويعتقد الخبراء أن تخوم المحاصيل والأحراج ستنتقل إلىٰ خطوط عرض أبعد[٢].

---

(١) مقتطفات من مقال د.عبد الوهاب المسيري المشار إليه سابقاً.

(٢) مستقبلنا المشترك: ٢٥٥، ٢٥٦.

إن تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو كان قبل الحقبة الصناعية زهاء ٢٨٠ جزءاً لكل مليون جزء من الهواء مقاساً بالحجم. وبلغ هذا التركيز ٣٤٩ جزءاً في عام ١٩٨٠م. ومن المتوقع أن يزيد إلىٰ ٥٦٠ جزءاً خلال القرن القادم. وهذا سيؤدي إلىٰ حبس إشعاع الشمس قرب سطح الأرض؛ مما سيؤدي إلىٰ تسخين سطح الكرة الأرضية، وتغيّر المناخ[١].

ولا نريد هنا أن نتحدث عن الموارد غير المتجددة التي يجري الآن إنهاكها بسرعة جنونية تلبية لرغبات ورعونات لا تعرف حدوداً. كما لا نريد أن نتحدث عن انهيار النظام البيئي وانقراض الكائنات الحية، ولا تلويث الهواء والماء بالمخلفات الصناعية؛ إذ ليس مرادنا الاستقصاء، وإنما لفت الأنظار إلىٰ المشكلات الهائلة التي أفرزها النمط الغربي في الحياة.

ما قدمناه من معلومات وملاحظات في الصفحات السابقة حول مفرزات الحضارة الغربية، لا يعني أن تلك الحضارة مجموعة شرور؛ كما لا يعني أننا لسنا بحاجة إلىٰ التعلم منها في مجالات عديدة؛ كما لا يعني أننا لا نعاني من مشكلات كثيرة تتطابق مع ما ذكرناه من مشكلات، أو تتقاطع.

إنما قصدنا إلىٰ شيء واحد هو: أنه سيكون من الحمق والسذاجة الاعتقاد بأن الحضارة الغربية هي النموذج الفاضل والحلم الوردي الذي ينبغي تحقيقه وتقليده من قبلنا، أو من قبل غيرنا[٢].

إن ما قدمنا يفرض علينا أن نبني النموذج الحضاري النظري الذي يتناسب مع عقيدتنا وإمكاناتنا وتطلعاتنا وحاجاتنا المختلفة في إطار رؤية شاملة للكون والبيئة، وفي إطار رؤية لا تفصل بين الدنيا والآخرة، ولا

---

(١) السابق: ٢٥٤.

(٢) يقول بوجونسون: «من دروس التاريخ وعبره أن الحضارة ـ أي حضارة ـ لا يمكن أن تؤخذ باعتبارها أمراً مسلماً به. ودوامها أمر لا يستطاع أبداً تأكيده. فهناك دائماً عصر أسود ينتظرك وراء الباب إن أنت أسأت اللعب بالأوراق في يديك، أو إذا اقترفت من الأخطاء عدداً كافياً». نصر بلا حرب: ٣٣٠.

تجعل العلاقة بيننا وبين الطبيعة علاقة عداء واستنزاف. فما هي أبعاد وملامح ذلك النموذج؟

نحو نموذج إسلامي للتحضر:

لا بد من القول ابتداء: إننا لا نستطيع أن نسرد ما يشكل (الهيكل الحضاري) الذي نتطلع إليه؛ فهذا غير ممكن، ولا مطلوب؛ فالناس في كل زمان وفي كل مكان يرسمون طيف ذلك الهيكل بما يتناسب مع ظروفهم وإمكاناتهم وأهدافهم وخصوصياتهم الثقافية؛ وقبل ذلك وعيهم بذاتهم وقيمهم وحاجاتهم. لكن الذي لا غنىٰ لنا، ولا لغيرنا عنه هو تصور الأسس والركائز التي ينبغي أن يقوم عليها النموذج الحضاري الذي علىٰ نظمنا الثقافية أن تبدعه، وتستوعبه، والذي علىٰ عقولنا وأيدينا أن تبنيه.

فإذا كان الاختلاف في الهيكل مطلوباً، بل شرطاً لاستمرار النمو الحضاري؛ فإن توحد الأسس والشروط الأساسية للتكييفات الحضارية الإسلامية أمر لا بد منه.

وسنذكر هنا أهم الملامح والمواصفات العامة للوضع الحضاري الذي نتطلع إليه عبر المفردات التالية:

١ ـ يشعر المسلم بأن وجوده في هذه الدار لغاية عظمىٰ، هي عبادة الله ـ تعالىٰ ـ وأن مدة هذا الوجود محدودة، وأن الحياة الآخرة هي دار القرار.

ومن ثم فإنه يشترط في النموذج الحضاري المطلوب أن يتمحور حول هذه المعاني فتكون كل أبعاد النموذج محكومة بذلك؛ فتسري روح العبودية لله ـ جل وعلا ـ في كل تفاصيل حياتنا. كما ينبغي أن تُشعِر كل مفاصل الحركة والتبادل الآخرين بأن المسلم مشدود دائماً إلىٰ دار القرار، وأن أعماله التي تبدو دنيوية تحمل في طياتها روح ورموز التواصل والاتصال بعالم الآخرة. وما لم نفعل ذلك فإن شخصية المسلم تتمزق بطريقة خفية جداً؛ إذ كيف يمكنه أن يمضي عمره في بناء دار يقول معتقده

عنها: إنها دار ممر. وكيف يوازن بين جهده لبناء الدنيا وجهده لبناء الدار الخالدة؟؟.

لكن حين يكون (البناء الحضاري) مشبعاً بروح القيام بحق الاستخلاف، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وتهيئة الظرف المناسب لأداء الرسالة، وتحقيق فاعلية المسلم.... فإن أمتنا هي أمة الاستشهاد ـ أي بذل النفائس ـ والعطاء المجاني بغير حدود!.

٢ ـ تعظيم الذاتية و(الأنا) الجمعية شرط أساس من شروط بناء النموذج الحضاري المتفرد؛ إذ ينبغي حتىٰ نستوعب التجارب الحديثة، ونتمثل ثمارها اليانعة ـ علىٰ نحو معافىٰ ـ أن نمتلك العقل المتفتح، والإِرادة القوية إلىٰ جانب قدر من الشفافية الروحية. وفي المقابل؛ فعلىٰ مقدار ما نتجذر في التراث نكون قادرين علىٰ استيعاب روح العصر، وتمثل نظمه، والعيش في مركزه، لا علىٰ هوامشه. ومن خلال حركة التردد بين الانغراز في الماضي، والانغماس في الحاضر تنبثق (الذاتية) القادرة علىٰ بناء النموذج الحضاري المتفرد والمتوازن.

وإن أي ضعف أو خلل في أحد هذين العنصرين سينتج عنه إنتاج حضاري متخلف عن العصر، أو مندمج فيه اندماج العبد في شئون سيده!.

والعيش علىٰ هامش العصر، والذوبان فيه سيان؛ فكلاهما تعبير عن هشاشة (الذات)، وانعدام أرضية التبادل والتفاعل الحضاري.

٣ ـ إن الإِنسان هو لب لباب النموذج الحضاري المطلوب؛ فلا فائدة من الأبنية الشاهقة، ولا المصانع الشامخة، ولا الشوارع النظيفة والحدائق الغنّاء إذا لم نستطع أن نحضِّر الإِنسان. فالبداية الطبيعية به؛ فإذا أمكننا أن نضبط نسب تكوينه العقلي والروحي والنفسي والجسمي، وإذا ما استطعنا أن نجعل منه الحر الكريم القوي الأوّاب المتعاطف المنضبط، والمنسجم مع حركة الحياة والكون والأهداف الكبرىٰ لأمته؛ فإننا نكون قد قطعنا معظم الطريق نحو ما نريد.

والإنسان حين ينضج، ويستوي علىٰ سوقه، يستثمر الإمكانات، ويبني الهياكل الحضارية وفق تكوينه الخاص والمتكامل. وهذا ما فعله النبي ﷺ إذ كان همه الأكبر هندسة الشخصية الإسلامية التي ستعبد الطرق، وتقيم الجسور، وتشيد المصانع وتحرث الأرض فيما بعد.

والبدء بتحضير (الطبيعة) وإهمال الإنسان ـ علىٰ نحو ما هو حاصل الآن ـ سيجعل منه عبداً للأشياء، عاجزاً عن إبداع النظم الحضارية واستيعابها بل عاجزاً عن المحافظة علىٰ المنجزات المادية وصيانتها.

٤ ـ إن النموذج الحضاري المطلوب لا يقوم في مجتمعات غير متمدنة. والتمدن يعني ـ فيما يعنيه ـ أن العلاقات في المجتمع لا تقوم علىٰ القهر والظلم والعدوان والعنف؛ وإنما تقوم علىٰ أنّها مفرزات لمجموعات القيم والمبادئ والقواعد العقدية والسلوكية التي يؤمن بها المجتمع. فالنموذج الحضاري المطلوب ليس إضافة مبتسرة إلىٰ مجتمعات أقرب إلىٰ التوحش منها إلىٰ المدنية، وإنما هو مجموعة الإشعاعات الروحية والفكرية والقيمية التي يطلقها المجتمع المتمدن في الهياكل المادية المختلفة، فتأسيس روح المدنية ورمزياتها ونظمها شرط أساس لقيام وضعية ثرية ومتفردة. ولن يتم ذلك إذا لم يوفر المجتمع للفرد أقداراً من الكرامة والحرية والعدل والحماية والوعي بالذات.

٥ ـ إن الوضعية العامة لأمة الإسلام وضعية بائسة. وإن الخلاص من الحالة المذلّة التي تعيشها الأمة يحتاج إلىٰ جهد كل فرد فيها؛ حتىٰ تستطيع أن تعوّض ما ضيعته في قرون السبات الطويل؛ وحتىٰ لا تتراكم عليها استحقاقات أخطاء وخطايا القرون. وهذا يعني أن نخطط لكيفية شحذ فعالية المسلم الروحية والذهنية؛ حتىٰ يضاعف العطاء.

كما أن علينا أن نخطط لتوجيه طاقاته وإمكاناته نحو بؤرة محددة؛ حتىٰ لا تتبعثر الجهود في غير ما فائدة.

وهذا لن يتم ما لم نوجد أعداداً كبيرة من الأهداف المرحلية الصغيرة

ونوجد أعداداً لا تحصىٰ من الأطر والدوائر والآليات التي تخدم تلك الأهداف.

فهذه دوائر لتنشيط الأداء الاجتماعي، وتلك لترشيد الاستهلاك، وثالثة لمساعدة الضعفاء وخدمة الفئات الخاصة، ورابعة لمحو الأمية، وخامسة لتعليم الناس المحافظة علىٰ الوقت وملء الفراغ، وسادسة لمقاومة تلوث البيئة، وتعليم الناس المحافظة عليها، وسابعة لتذكير الناس بواجباتهم، وممارسة الضغط الأدبي علىٰ الناشزين. وهكذا وهكذا. . . .

إن لدينا جيوشاً من العاطلين عن أي عمل، والقادرين علىٰ عمل الكثير ولديها إمكانات هائلة، تنتظر شرارة التفجير وآليات التوظيف.

وإن المشكلة الهائلة لدىٰ الشعوب المتخلفة ليست في شح الإمكانات، وإنما في الضعف المروع في إرادة التحرك وروح الإنجاز والعطاء وشحذ الفعاليات وتوجيهها.

٦ ـ إن الحضارة الغربية حضارة إنتاج وفير، واستهلاك كبير. وإن من واجبنا؛ حتىٰ نسد الفجوة الحضارية بيننا وبينهم أن نضاعف الجهد، ونقتصد في الاستهلاك إلىٰ أبعد حد اقتداء بخاتم النبيين ﷺ الذي كان يعيش علىٰ الكفاف في شأنه الخاص، وينفق علىٰ الشأن العام بغير حساب[١]. وإذا ما أردنا أن نفعل ذلك؛ فإن علينا أن نشتري الآلات والمصانع ونتعلم صيانتها، ومحاكاتها، وأن نقلل من استيراد أدوات الرفاهية والسلع الاستهلاكية، كما أن علينا أن نعلم الناس كيف يستغلون سطوح المنازل والشرفات وكل شبر من الأرض في سبيل توفير القوت اليومي لأكبر عدد ممكن من الناس. كما أن علينا أن نساعد كل موظف علىٰ أن يتعلم مهنة خفيفة لطيفة يمكن أن يمارسها في منزله بدل الجلوس في الملاهي، وأمام (التلفاز)، وأن نعلم ربات البيوت كيفية إعداد الطعام المغذي المتكامل

(١) انظر في هذا: مقدمات جديدة في مشاريع البعث الحضاري: ١١٣ وما بعدها.

بطريقة لا تجعلنا نلقي الأطعمة الزائدة في أوعية القمامة. أشياء كثيرة تساعدنا علىٰ أن نوسع من إنتاجنا، ونقتصد في الاستهلاك؛ حتىٰ تقف الأمة علىٰ قدميها وتمتنع عن الاستدانة وتكفف الآخرين...

إن أفكاراً كثيرة يمكن أن نقولها في هذا المضمار؛ لكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وفي باقي الكتاب ما يوضح بصورة أفضل الوضع الحضاري الذي ينبغي أن نسعىٰ للصيرورة إليه. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفكر هو المدخل

هناك إجماع لدينا علىٰ أن الأمة تعاني من مشكلات عدة، طال أمدها. وتلك المشكلات متعددة الجوانب والوجوه. وقد جرت العادة أن يجري سجال حاد بين المهتمين بالإصلاح كلما حاولوا أن يقبضوا علىٰ البداية الصحيحة للتغيير. كما أن العادة قد جرت أيضاً بتحيز كل فريق إلىٰ تخصصه، والاعتقاد بأن البداية الحقيقية تكون في إصلاح المجال الذي تخصص فيه؛ فالاقتصاديون يعتقدون أن البداية الحقيقية تكون في إصلاح الاقتصاد. والشرعيون يرون الالتزام بأحكام الشريعة هو البداية. والتربويون يعتقدون أنه ما لم ينشأ جيل جديد قد ربي التربية الصحيحة؛ فإن الأمل في تحسن الأحوال معدوم. وهكذا. . . .

ونحن نعتقد أن ما يحتاج إلىٰ أن نبدأ بإصلاحه وتقويمه هو (الفكر)[1]؛ حيث إننا لا نستطيع أن نعالج أية مشكلة في أي جانب من جوانب الحياة بدون تفكير صحيح قادر علىٰ تصور المشكلة ورؤية أسبابها وجذورها وصلبها وهوامشها وتناقضاتها الداخلية وعلاقاتها التبادلية مع غيرها. ولا نستطيع أيضاً أن نلج مرحلة المعالجة لها بما تقتضيه من أولويات البدء، ومراحل التدرج وأدوات الحل وآثار ذلك علىٰ الجوانب الحياتية الأخرىٰ. . . إلا من خلال الفكر والفكر وحده. فإصلاح الجوانب الحياتية المختلفة ـ ومنها قضية الالتزام ـ متوقف علىٰ إصلاح الفكر، علىٰ

---

(١) يقول (فرانك أنلو): «راقب أفكارك فإنها تتحول إلىٰ كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلىٰ عادات، راقب عاداتك فإنها تصبح طباعاً. راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك». القيادة والتغيير: ٢٨، ٢٩.

حين أن إصلاح الفكر لا يتوقف علىٰ أي شيء آخر؛ مما يعطيه أولوية البدء.

ورشاد الفكر واستقامته ليس شيئاً ثابتاً لدىٰ الأفراد والأمم؛ فقد تمر علىٰ أمة من الأمم مرحلة من التألق والتنور الفكري، ثم لا تلبث أن تعقبها مرحلة أخرىٰ تنطمس فيها مقاطع الرشد ومراشد الحق، ويسود فيها ضلال الأحكام وفساد التصورات وضبابية المدركات. وينتج عن ذلك كله نوع من الانحباس والتأزم والتردد في التعامل مع كل شيء: التاريخ والواقع والمستقبل والأحداث والأفكار والأشياء...

وللثقافة الأثر الأكبر في استقامة التفكير واعوجاجه. فحين تكون البنىٰ الثقافية أقرب إلىٰ السلامة والفعالية؛ فإنها تساعد إمكاناتنا العقلية علىٰ إنتاج الأفكار القويمة والبنّاءة من خلال المعطيات والمدخلات التي تقدمها لها. فالإمكانات العقلية لدىٰ الإنسان بمثابة (الرحىٰ)، والمعطيات الثقافية، هي أنواع الحبوب التي نصبها فيها، والأحكام العقلية التي نصدرها هي ذلك (الدقيق) الذي ينتج عن عمل الرحىٰ.

وحين تكون الثقافة متأزمة أو ضامرة فإن الأحكام العقلية تكون أقرب إلىٰ الخطل والاعوجاج. ولا يخلو شعب من شعوب الأرض من ثقافة خاصة به. لكن ليست كل الثقافات قادرة علىٰ تأسيس المدنيات واستيعاب النظم الحضارية المتعددة، ومد العقل بالمدخلات السليمة المنتجة. ويمكن القول: إن الثقافات البعيدة عن تيار الحضارة المتدفقة لا تستطيع أن تؤسس روح المدنية، ولا بناء مناخاتها الصحية؛ كما أنها لا تستطيع أن تقدم الموارد التي تساعد أدمغتنا علىٰ إنتاج الفكر المنهجي والمنطقي القويم.

وذلك لأن مجرد العيش علىٰ هامش العصر كاف لجعل فهم ما يجري فيه محدوداً، كما يجعل الاستجابة لتحدياته والتفاعل معه أيضاً محدودة. وليس ذلك فحسب؛ بل إن الهامشية الثقافية تجعل من العسير فهم الماضي علىٰ ما كان عليه، وتدفع دفعاً إلىٰ تأويله وفهمه بطريقة مشوَّهة، تجعله منسجماً ومتماهياً مع الكينونة الثقافية الحاضرة. وهكذا نخلص إلىٰ أن عاملاً

أساسياً من عوامل سقم الأفكار واعتلالها يعود إلىٰ أننا لا نعيش عصرنا. بل قد يغادرنا عصر بأكمله، وتأفل شمسه دون أن نلجه إلا من باب الاستهلاك والاستمتاع، ودون أن نساهم فيه بأية مساهمة قيمة!.

ونستطيع بهذا أن نعلل ظاهرة افتقار الساحة الإسلامية إلىٰ ذلك النمط من المفكرين العظام الذين يُعدون في الطبقة الأولىٰ - في الموازين العالمية - من المنظرين والمخططين والمحللين؛ حيث لا يسمح الوضع الثقافي الحالي للمسلمين ببزوغ ذلك النمط إلا لماماً. وهكذا ندخل في دورة رديئة؛ فإصلاح الفكر مدخل للتقدم. وإحراز درجة من التقدم والرقي المدني شرط لإصلاح الفكر، وهكذا...

لكن ذلك لا يدفعنا إلىٰ اليأس؛ حيث إن هناك علاقات سيطرة ومنافذ عديدة خارج هذه المعادلة، تسمح لنا بالخروج من الدائرة المغلقة، لكن الجهد المطلوب آنذاك سيكون كبيراً. ولنا بعد ذلك بحمد الله من نعمة (الوحي) ما يعصمنا من الشرود عن الأهداف الكبرىٰ وغايات الخلق والإيجاد.

إن علينا أن نصرّ علىٰ النجاح في عالم الأفكار؛ لأن كل ما نملكه من ثروات وأموال وأسلحة.... سوف يكون محدود الفائدة إذا نحن لم نربح معركة الأفكار، وإذا لم نستطع أن نقدم الأفكار التي تصلح شأننا الحضاري كله.... وإن علينا أن نحمي مبادئنا، وأن نقاوم كل المخربين لأفكارنا مهما كان شأنهم. لكن علينا أن نعلم أيضاً أن الأفكار العقيمة التي لا تملك ما يمنحها البقاء والفعالية لا يستطيع أحد حمايتها والدفاع عنها.

ولا بد لنا هنا أن نذكر بإسهاب بعض ما نراه أنماطاً خاطئة في التفكير وصياغة الأحكام، مع التعريج علىٰ بعض الأفكار والبدائل التي نراها ضرورية لإصلاح الفكر لدينا؛ وذلك في النقاط التالية:

١ ـ سوق الظنيات مساق القطعيات:

إن إدراكنا للقضايا والمسائل المختلفة يظل متفاوتاً؛ كما أن الأحكام التي نصدرها عليها أيضاً متفاوتة. وذلك لعوامل عدة: منها ما يعود إلىٰ طبيعة المسألة موضع البحث، ومنها ما يعود إلىٰ معلوماتنا عنها، ومنها ما

يعود إلىٰ منهج البحث وأسلوب المعالجة والأدوات المستخدمة فيها. وأياً كان الأمر فإن مما نراه اضطراباً منهجياً في هذه النقطة أن كثيرين منا لا يصوغون الأحكام والملاحظات التي توصلوا إليها صياغة موضوعية تنسجم مع مدىٰ صلابة معرفتهم بحقيقة الحكم الذي يريدون التعبير عنه. وقد كثرت في الخطاب الإسلامي العام صيغ الجزم دون أي تحفظ؛ حتىٰ إن السامع ليفهم أن كل ما نتحدث عنه عبارة عن حقائق لا مراء فيها.

وقد علّمنا الأصوليون الدقة حين وضعوا لكل حكم من الأحكام الأساسية: الواجب والمندوب والمباح والمكروه والمحرم ـ العبارات الدالة عليه تجنباً للخلط. ومن هنا فإذا كان الحكم الذي توصلنا إليه ظنياً وجب أن نشعر المخاطب بذلك، فنقول ـ مثلاً ـ: «نظن، أو يغلب علىٰ الظن، أو في ظاهر الأمر، أو فيما نحسب...»؛ حتىٰ نوحي للقارئ ببقاء مساحة للاجتهاد في الأحكام التي توصلنا إليها. ويروىٰ في هذا السياق عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ أنه كان عندما يفتي في مسألة كثيراً ما يردد قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1].

وإذا كان ما توصل إليه الباحث قطعياً ـ في نظره هو ـ وجب عليه أن يصوغه بعبارة تدل عليه. أما إذا كان ما يقرره مما لا يختلف فيه أهل الاختصاص وجبت صياغته أيضاً بطريقة تدل علىٰ ذلك. وهذا ضروري جداً في أسلوب التعامل مع الحقائق والمعطيات، وفي أسلوب التعامل بين الناس علىٰ المستوىٰ الفكري والبحثي، حتىٰ لا نكوّن المفاهيم الخاطئة لدىٰ الآخرين.

وقد ثبت بالتجربة الحية أن أخطر ما يقع من تجاوز في التعبير عن الأفكار المفاهيم والوقائع... إنما يكون في المحاورات والأحاديث الشفهية؛ حيث يلون المتحدث عباراته بألوان شتىٰ تتناسب مع عقليات المخاطبين ونفسياتهم. وبما أن معاناة كثير من المسلمين للقراءة والكتابة محدودة ـ ولا سيما في المدّة الماضية ـ؛ فإن الثقافة الشعبية تعج بالتعبيرات

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٣٢.

غير الموضوعية؛ مما يجعل المثقفين يتأثرون بذلك في حياتهم العامة وبعض طروحاتهم العلمية؛ مما يوجب علينا الحذر عند التعامل مع كتابات كثيرين منهم.

٢ ـ منهجية التعامل مع المشكلات:

لدينا منهجان خاطئان في التعامل مع المشكلات التي نواجهها: منهج التعامل مع المشكلة علىٰ أنها كتلة صلدة، ومنهج العزل والفصل بين مجموعات المشكلات والجوانب الحضارية المتعددة.

أما المنهج الأول فيتجلىٰ في أن كثيرين منا يتعاملون مع المشكلات المحيطة علىٰ أنها: أحادية التركيب، عديمة المنافذ، مستحيلة التجزئة. وهذا يؤدي إلىٰ نوع من الشعور باليأس كلما واجهنا مشكلة كبرىٰ؛ مما يدفعنا في النهاية إلىٰ طرحها وتجاهلها. والحقيقة أنه يستحيل حل المشكلات الكبرىٰ دون تجزئتها إلىٰ وحدات صغيرة، ثم تصنيفها إلىٰ ما هو أساسي وهامشي، ثم محاولة النفاذ إلىٰ التناقضات الداخلية التي تشتمل عليها، واستثمارها، وتغيير علاقات السيطرة، وتبديل مواقع العناصر الفاعلة في تلك المشكلة بغية الوصول إلىٰ علاقات ووحدات ووظائف جديدة؛ حتىٰ نتمكن في النهاية من السيطرة علىٰ المشكلة وحلها. فعلىٰ الرغم من ثبات العناصر والقوانين الكيميائية والفيزيائية في هذا الوجود ـ أمكن للإنسان أن يخترع من عناصر الأرض ـ التي لا تزيد علىٰ مئة عنصر إلا قليلاً ـ أكثر من مليونين من المصنوعات والمركّبات المختلفة. وذلك من خلال إدراك العلاقات بين تلك الثوابت، وإدراك وجوه التفاعل بينها، ومجالات توظيفها. ولو أن الإنسان لم يدرك كل ذلك لرأىٰ كل ما حوله ثابتاً ومعزولاً عن غيره، ولما أمكنه أن ينتفع منه علىٰ النحو الموجود الآن.

وانطلاقاً من هذا كله؛ فإنه ليس لدىٰ أمة من الأمم أزمات لا يمكن النفاذ إلىٰ أعماقها، وتحقيق نوع من السيطرة عليها؛ فالله تعالىٰ ما أنزل من داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه، وجهله من جهله.

أما المنهج الثاني فيتلخص في التعامل مع كل مشكلة علىٰ أنها كيان

معزول، ينتمي إلىٰ حقل بعينه، ولا علاقة له بأي شيء خارج ذلك الحقل. وهذا مع أن الناظر في طبيعة الوجود يجد أنه ليس هناك شيء موجود لذاته فهو حلقة في سلسة (التسخير)؛ ومن ثم فهو لذاته وللآخرين. وتأسيساً علىٰ هذا فإننا نقول: إن الأمة إذا واجهت أزمة ما علىٰ الصعيد الأخلاقي وجب ألا تعالجها ضمن القواعد والأطر الأخلاقية فحسب وإنما يجب أن تبحث عن بعض العلاج في الصعيد التربوي، أو في الصعيد الاقتصادي ـ مثلاً ـ فالفقر قد يدفع كثيرين إلىٰ اقتراف الرذائل والموبقات، وقد يكون السبب الرئيسي في المجال السياسي أو الإعلامي...

وإذا واجهت أمة أو شعب أزمة علىٰ الصعيد الاجتماعي ـ كتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ـ فقد يكون ذلك بسبب عوامل اقتصادية أوجدت فجوات معاشية واسعة بين الناس؛ فتحولوا إلىٰ شرائح متمايزة، وقد يكون عوامل عنصرية حولت الناس إلىٰ نبلاء وعبيد، وقد يكون، وقد يكون... وهكذا قد نعزو أسباب أزمة اقتصادية إلىٰ عوامل أخلاقية وتنظيمية، كما قد نلمح في مشكلة تعليمية جذوراً اجتماعية أو تنموية....

فالأنساق الحيوية كافة تتبادل التأثر والتأثير ـ بنسب متفاوتة طبعاً ـ ومن ثم فإن عزل بعضها عن بعض سيكون عبارة عن تجاهل لأجزاء من حقيقة تكوينها.

ثم إن وضع القضايا المحلية في إطار إقليمي، ووضع القضايا الشخصية في إطار اجتماعي... يؤهلنا لنوع من السيطرة عليها؛ حيث نسبر أبعادها، ونتتبع امتداداتها. وإن من مهام المبدعين الأساسية ـ علاوة علىٰ التخطيط للمستقبل ـ وضع الأنظمة الصغرىٰ في أنظمة أشمل؛ حتىٰ لا يساء فهمها والتعامل معها.

٣ ـ الاكتفاء بالمبادئ عن النظم:

أرسل الله ـ تعالىٰ ـ محمداً ﷺ رحمة للعالمين؛ فأعطىٰ شريعته طابع العموم والشمول؛ لتتسع للإنسان مهما ترامت أمداء الزمان والمكان.

ويقتضي ذلك أن تكون الشريعة مجملة في قضايا، ومفصّلة في قضايا أخرىٰ، أي: تجمع بين عناصر المرونة وعناصر الثبات وفق المبدأ التالي: ما كان يختلف باختلاف الزمان والمكان جاء مجملاً في الشريعة، وذلك مثل المبادئ الكبرىٰ كالعدل والشورىٰ والحرية والوحدة، ومثل طريقة اختيار الحاكم، وتنظيم شئون الدولة المختلفة. . . وما كان لا يقع تحت تأثير الزمان والمكان فإنه جاء مفصلاً، كما هو الشأن في أمور العقيدة والعبادات، وتحريم بعض العقود، وصور الكسب في المعاملات. . . . حيث لن يأتي علىٰ الناس يوم يجدون فيه الحاجة ماسة؛ لأن يصلوا المغرب أربع ركعات، أو يصوموا في السنة عشرين أو أربعين يوماً. . .

والأحكام المفصلة تمثل عناصر للثبات والإِجماع، وتمنح المذهبية الإِسلامية معالمها الأساسية في شؤون الحياة كافة.

أما المبادئ والأحكام المجملة فإنها تتيح الفرصة للعقل البشري والخبرة المتراكمة أن يتحركا في عالم الابتلاء والتدافع؛ حتىٰ يتم تكييف تلك المبادئ بإيجاد النظم والقوانين والإِجراءات التي تجعلها قوة فاعلة في حياة البشر، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها، وتحقق أهدافها في توجيه سلوكات البشر، ومن هنا فإن من واجبنا أن نسعىٰ دائماً إلىٰ بلورة النظم التي تخدم مبادئنا العليا، وتمثل الهيكل أو الجسد الذي تسكنه، وتسري فيه. وإذا لم نفعل ذلك فإن المبادئ تظل توجيهات عامة تشكو التحقق، ويظل تجاوزها وتأويلها أمراً ميسوراً. فماذا كنا نتصور أن يكون وضع مبدأ (العدل) بين الناس لو لم يكن هناك نظام قضائي دقيق يرسم للقضاة كيفيات الفصل بين الخصوم وإيصال الحق إلىٰ أصحابه؟.

والشيء المؤسف حقاً أن يتوهم كثيرون منا أن المبادئ التي أكرمنا الله بها تقوم بذاتها، وتعمل بمفردها دون أي جهد منا؛ وأن مهمتنا هي مجرد التلقي والمسارعة إلىٰ التطبيق دون أن نسأل أنفسنا علىٰ أي وجه سيكون التطبيق، وما هي الشروط اللازمة لجعل المبدأ فاعلاً وحياً في حياة الناس؟. وآية ذلك الوهم أن بعض المبادئ العظمىٰ لدينا لم يلق من

المفكرين المسلمين من البلورة والعناية التنظيمية ما يستحقه، وذلك مثل حرية التعبير، وتعدد الرأي في الدولة الواحدة، والشورىٰ وهل هي ملزمة أو معلمة. وقضايا أخرىٰ كثيرة وشائكة.

وعدم تجسيد المبدأ يؤدي إلىٰ ضعف الإحساس به، وضعف تطبيقه في حياة الناس.

وتتلو مرحلة تنزيل المبدأ في نظم محددة مرحلة أخرىٰ، لا تقل أهمية، وهي مرحلة الانتقال إلىٰ تحقيق المبادئ والنظم جميعاً عن طريق سبكها في برامج تنفيذية محددة؛ فلا يكفي أن نعلن أن علينا أن نؤمِّن الحد الأدنىٰ من العيش الكريم لكل مسلم في مجتمعنا؛ كما لا يكفي أن نعلن أن علينا أن نمتلك القوة التي نُرهب بها عدونا؛ كما لا يكفي أن نعلن أن من مبادئنا كفالة اليتيم وإغاثة الملهوف وإيواء اللاجئ... ولكن لا بد من أن نضع الخطط والبرامج المرحلية المتدرجة التي تساعدنا علىٰ تحقيق ذلك.

ولا بد أن نتوصل إلىٰ تحقيق الأهداف الكبرىٰ بمجموعات من الأهداف الصغرىٰ المحددة والواضحة؛ بحيث يمكن قياس ما أنجز منها، وما لم ينجز. وإن هذا التوظيف للمبادئ هو الوسيلة التي تكاد تكون وحيدة للإبقاء عليها حية فاعلة؛ حيث إن المبدأ لا بد فاعل؛ فإذا لم يفعل في حياتنا؛ فربما عمل في نفسه، وجعل يهضم غطاء مشروعيته؛ أو يتحول في أحسن الأحوال إلىٰ شعار كامن لا يتعدىٰ وجوده منطقة الإيمان به!.

٤ ـ ضعف التفكير السببي:

هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم الأسباب. وذلك من كمال الابتلاء. والله ـ جل وعلا ـ يخرق السنن والعلاقات السببية معجزةً لنبي وكرامة لولي؛ إلا أن ذلك ليس هو القاعدة العامة في حياة البشر، ولا ينبغي إدخاله ضمن الحسابات البشرية. ومن هنا فإن تمام التوكل يأتي بعد تمام الأخذ بالأسباب. وقد لبس النبي ﷺ في بعض غزواته درعين. وأحكم كل الأسباب التي تجعل هجرته إلىٰ المدينة تتجاوز كل الصعاب

والعقبات. مع أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سيد المتوكلين والعارفين بفضل الله وقدرته.

وعند النظر في حالة التفكير السببي لدينا نجد ما يلي:

أ ـ إن من الثقيل علينا ـ في الغالب ـ البحث في الأسباب التي يجب أن نمتلكها؛ حتىٰ نحقق الأهداف التي نتطلع إليها. والسبب في ذلك أن طموحاتنا دائماً فوق إمكاناتنا. والبحث في الأسباب والإِمكانات يحد من تلك الطموحات، ويعكر علينا صفو الأحلام الجميلة. ومن هنا فإنك تجد عالم المسلمين مفعماً بالتطلعات والشعارات، فقيراً في النتائج والمحصلات.

وحين نريد تقويم مشكلة؛ فإننا ننظر إليها باعتبارها نتيجة (أمر واقع)، دون أن نمد النظر إلىٰ الأسباب الكامنة وراء وجودها؛ لأن الوقوف علىٰ أسبابها أيضاً مزعج؛ حيث يكشف ـ في أحيان كثيرة ـ عن نوع من التسيب والإِهمال، وتوقع النتائج الباهرة من مقدمات لا تفضي أبداً ـ عند أهل الذكر ـ إليها. والحل هو تجاهل الأسباب والبدء في معالجة نتائج قصور سابق؛ حتىٰ إذا لم نفرغ من المعالجة دهمتنا مشكلة أخرىٰ ولّدتها عين الأسباب التي تجاهلناها. وهكذا. . . .

ب ـ حين نبحث عن الأسباب؛ فإن أبصارنا تتجه في الغالب إلىٰ سبب واحد، نفسر به الظاهرة. وكلنا يذكر تفسير كثير من الخيرين سقوط الاتحاد السوفياتي بالجهاد الأفغاني والهزيمة في أفغانستان؛ دون التساؤل عن أثر حملات الدعاية الغربية ضد الشيوعية، ووصول الحكومات الشيوعية إلىٰ طريق مسدود علىٰ الصعيد الاقتصادي والتنموي ـ علىٰ الأقل ـ، ودون السؤال عما إذا كان الجهاد الأفغاني هو (القشة التي قصمت ظهير البعير)، ودون السؤال عن تأثير ذلك الجهاد فيما لو وقع قبل ثلاثين سنة من تاريخه: هل ستكون له عين النتائج؟.

إن مما يعصمنا من الوقوع في هذا الاختزال لشبكات العوامل

والأسباب أن ننظر إلىٰ الظاهرة الواحدة في سياقات وظروف عديدة. فعلىٰ سبيل المثال: إذا قيل إن فلاناً رسب في الامتحان؛ لأنه عاق لوالديه، وجب علينا أن ننظر هل هناك عاقون لآبائهم نجحوا أو لا؟. فإذا وجدنا، كان علينا أن نقول: ربما كانت هناك أسباب أخرىٰ مع العقوق. وإذا قيل إن غلاء الأسعار في الدولة الفلانية كان بسبب عدم أداء أثريائها الزكاة، وجب أن ننظر هل سبق أن ارتفعت الأسعار في مجتمع المدينة المنورة في زمان النبي ﷺ فإذا وجدنا ذلك حاصلاً ـ مع أنه خير مجتمعات الأرض قاطبة ـ وجب أن نقول: ربما كان لغلاء الأسعار أسباب أخرىٰ؛ ثم نأخذ بالبحث عنها وسبر إمكانات تأثيرها.

إن تفسير الظاهرة الواحدة ـ ولا سيما الظاهرة الكبرىٰ ـ بعامل واحد سيحرمنا من إمكانية المعالجة؛ حيث تجتمع في العادة شبكة من الأسباب والعوامل علىٰ ولادة الظاهرة أو المشكلة الواحدة. كما أنَّ ذلك التفسير سيحرمنا من تشخيص المرحلة التالية، وهي مرحلة وزن العوامل وفرز المحوري منها عن الهامشيّ، والرئيسي عن الثانوي.

جـ ـ حين ندرك العلاقة بين السبب والمسبّب ندركها ـ في الغالب ـ علىٰ أنها سببية آلية: السبب الفلاني أدىٰ إلىٰ النتيجة الفلانية.

وهكذا ينطبع في الذهن نوع من الارتباط الثابت بين ذلك السبب وتلك النتيجة. فنحن لا ندرك مقاومة النتيجة للسبب أو الأسباب، ولا قوة تلك المقاومة، ولا الشروط الموضوعية التي جعلت ارتباط السبب بالنتيجة علىٰ ذلك النحو مؤثراً؛ مما أوجد في أذهاننا وخطابنا عدداً كبيراً من (الوصفات) الجاهزة لكل معضلاتنا. فوجود رجل عبقري فذّ كعمر ـ رضي الله عنه ـ أو كصلاح الدين هو البلسم الشافي لأدواء المسلمين في كل عصر ومصر عند كثيرين منا، غير ناظرين أن عبقرية الرجلين في القيادة والإصلاح يعود جزء كبير منها إلىٰ أنهما وجدا علىٰ الخير أعواناً قد لا يكونون موجودين الآن.

وغير ناظرين إلىٰ اتساع شئون الدولة اتساعاً يحتاج إلىٰ ثلة من

الأخيار ذوي السوية الرفيعة ديناً وفهماً حتىٰ يقوموا بالأمر أكثر من أي وقت مضىٰ.

ووحدة الأمة عند بعض آخر هي الحل لجميع ما نعاني منه من المهانة علىٰ الصعيد الأممي. وهم لا يتساءلون عن الأسباب التي أدت إلىٰ تفتيت أمتنا في الماضي، وهل تلك الأسباب ما زالت موجودة وجاهزة للقضاء علىٰ كل شكل من أشكال الوحدة يمكن تحقيقه اليوم....

إن العنصر الروحي يجعل كل الظواهر الاجتماعية مترابطة علىٰ نحو معقّد جداً، يصعب معه قياس مدىٰ صلابة العلاقة بين الأسباب والمسببات؛ كما يجعل من العسير التنبؤ بالنتائج التي سنحصل عليها إذا ما توفرت أسباب معينة. ومن ثم فإن علماء الأرض لو اجتمعوا؛ ليقدروا الوضعية التي سيكون عليها حال دولة من الدول أو شعب من الشعوب بعد سنة؛ لم يستطيعوا الوصول إلا إلىٰ مجموعة من الظنون والتخرصات التقريبية. وهي تبتعد عن الصواب كلما دخلت في التفاصيل؛ حيث تتحكّم الأسباب الصغرىٰ التي لا تحصىٰ.

٥ ـ الإِجمال حيث يجب التفصيل:

حين نتحدث عن أسباب تخلف العالم الإِسلامي تتكرر لازمة علىٰ ألسنتنا جميعاً، هذه اللازمة تنطق بأن تخلفنا جاء بسبب البعد عن الإِسلام. ونقول في موضع آخر: إن الإِسلام هو الحضارة. وتكون خلاصة المقولتين: البعد عن الإِسلام هو التخلف، وسبب ذلك التخلف هو البعد عن الإِسلام؛ فيكون السبب والمسبَّب واحداً!.

وابتداء نقول: إن الفهم الشامل للإِسلام مع التطبيق الكامل سيعني وجود فرد متحضر وأمة متحضرة، علىٰ أرقى مستوىٰ ممكن. ويكون انحدارنا في دركات التخلف موازياً ومساوياً لدرجات الانحراف عن الإِسلام فهماً وعملاً. أما إذا تساءلنا عن أسباب بعدنا عن الإِسلام، أو عن أسباب تخلفنا فإن علينا أن نقوم حينئذ بمهمة شاقة للغاية؛ حتىٰ نستطيع حصر

عوامل التخلف ووزن تأثير كل عامل منها. وذلك يتم بعد أن نقوم بنوع من الفصل بين مجالات التخلف المختلفة من عقدية وسلوكية وفكرية ونفسية واقتصادية وسياسية وصناعية... فإذا تم الفصل بدأنا نبحث في القوانين والشروط التي تحكم حالات الصحة والمرض، والتقدم والتخلف في كل مجال من هذه المجالات، ومدىٰ تمكننا من استخدامها وتحقيقها، ومدىٰ التزامنا بتوجيهات الإسلام في كل ذلك. وحينئذ نستطيع أن نشرح للمسلم وظيفته ومهمته في استعادة الأمة لدورها المطلوب؛ كما نستطيع أن نضع له بعض المؤشرات والدوالّ التي يهتدي بها في طريق تحقيق ذلك.

ومن المفيد في هذا أن نحيط كل قضية نريد بحثها في الصعيد الحضاري بأسئلة عديدة تكشف لنا جوانب مهمة من تلك القضية. فإذا أردنا أن نبحث ـ مثلاً ـ في مسألة سقوط الخلافة العثمانية أمكننا أن نتساءل:

١ ـ ما هي الأسباب والمؤثرات والجهات التي أدت إلىٰ سقوطها؟

٢ ـ كيف حصل ذلك السقوط، وما هي الأشكال التي اتخذها؟

٣ ـ ماذا كان تأثير ذلك السقوط علىٰ العالم الإسلامي، وما هي ردود فعله عليه؟.

٤ ـ متىٰ تمّ ذلك، وما هي مراحله؟

٥ ـ أين تم ذلك؟

٦ ـ لماذا حدث كل ذلك[1]؟

فإذا استطعنا الإجابة عن تلك الأسئلة بطريقة تعتمد السنن الربانية والإحصاءات العلمية بعيداً عن الذاتية والانفعال أمكننا أن نخرج بحصيلة ممتازة من المعلومات حول ذلك الحدث الضخم. وهكذا نفعل مثل ذلك مع قضايانا ومشكلاتنا.

---

(١) انظر في هذا مقالاً بقلم درويش يوسف، المجلة العربية في عدد ذي القعدة ١٤١٤هـ.

٦ ـ الاستغناء بالحركة عن الفكر:

حين استيقظت الأمة علىٰ واقعها المرير، عمد الخيرون من أبنائها إلىٰ السعي نحو تحسين الأحوال والمضي بالواقع قدماً نحو الأفضل. وإن واقع البشر بما فيه من مشكلات، وبما ينتظره من طموحات وتطلعات ـ قادر علىٰ أن يلتهم كل الجهود والطاقات المتوفرة مهما تطاول الزمن؛ حيث إن الأيام تأتي دائماً بالجديد من المشكلات والتحديات. بل ربما شعر الناس أن جوانب من حياتهم تزداد تأزماً علىٰ الرغم من كثرة الجهود ووفرة العاملين[١].

وفي جو العمل المحموم تعلو أسهم من يتحرك أكثر، ويمضي ساعات من يومه في العمل أوفر. وينظر إلىٰ من يفكر، أو ينظّر بأنه (بياع كلام)، وأن الوقت وقت عمل لا وقت خطابة!.

والإسلام دين الالتزام ودين العمل والكدح، لا ريب في ذلك؛ لكن علينا أن نفرق بين نوعين من العمل: عمل بسيط لا يحتاج إلىٰ تأمل، ولا يكاد يرتبط أداؤه بغيره في أولوية أو موازنة، مثل: أداء الشعائر وبر الوالدين ومساعدة المحتاج...

وعمل مركّب معقد يرتبط بشبكة واسعة من الأعمال الأخرىٰ؛ بحيث تتوقف جدواه ونجاعته علىٰ طبيعة العلاقة التي تربطه بغيره، وعلىٰ طبيعة (تموضعه) بين سلسلة الجهود المتوالية. وذلك كأعمال الدعوة وكل ما يتعلق بمعالجة المشكلات الكبرىٰ، مما يصبُّ في قضايا التقدم والتخلف والتنمية والتمكين في الأرض...

---

(١) يقول ألكسيس كاريل: «وثم آخرون ينسون الظروف المحيطة بهم بالعمل المتواصل. وأولئك الذين يضطرون إلىٰ العمل دون توقف يهيئون أنفسهم لجميع الحوادث. فالمرأة التي يموت طفلها، وتضطر إلىٰ العناية بأطفالها الآخرين الكثيرين لا تجد وقتاً لتفكر في حزنها... كما أن العمل أكثر تأثيراً من (المورفين) في مساعدة الناس علىٰ احتمال الظروف المعاكسة». الإنسان ذلك المجهول: ٢٥٢.

هذا العمل ذو التعقيد الواسع يفتقر نجاحه إلىٰ تفكير وتخطيط معقد يكافئ طبيعته. وتقدم الإنجاز فيه لا يتوقف علىٰ كثرة الحركة بمقدار توقفه علىٰ فقه الحركة والدراسة المتقنة للخطوة المناسبة في كل مرحلة من مراحله.

وهذا ما تفعله الشركات الكبرىٰ حين تواجه منافسة حادة لمنتجاتها بسبب انخفاض الجودة أو ارتفاع تكاليف الإنتاج لديها. فهي حينئذ لا تدعو إلىٰ زيادة ساعات العمل، ولا إلىٰ زيادة الإنتاج، وإنما تدعو إلىٰ زيادة الإنفاق علىٰ البحث العلمي من أجل رفع سوية المنتَج وخفض تكاليفه.

بل إن زيادة الإنفاق علىٰ البحث العلمي أصبحت اليوم إحدىٰ أهم المؤشرات علىٰ تقدم الدولة. فالدول المتقدمة تنفق نسباً عالية من دخلها الوطني علىٰ البحث العلمي؛ علىٰ حين أن الدول الفقيرة والمتخلفة لم تشعر بعد بأنها في حاجة إلىٰ ذلك؛ حيث لم تقارب التخوم التقنية التي تحوجها إلىٰ ذلك.

ولطالما نبّه أهل الرأي والخبرة المجاهدين الأفغان إلىٰ ضرورة إيجاد الصيغ والأطر التي تجعل منهم قوة واحدة ومنسجمة؛ وإلىٰ ضرورة طرح المبادرات السياسية التي تستثمر الجهد العسكري وتواكبه. لكن الجواب الدائم كان: نحن مشغولون بالجهاد، وليس عندنا وقت للقيام بما تقولون!.

ولم تكن المسألة في نظرنا مسألة وقت، ولكن مسألة إدراك لأهمية الفكر في ترشيد الحركة، ومنحها الشرعية العالمية والمحلية، واستثمارها علىٰ أفضل وجه ممكن.

والجواب الأفغاني السابق موجود لدىٰ كثير من الخيرين اليوم. إن بعض أولي النظر بدؤوا يشعرون أن الصحوة الإسلامية بدأت تفقد بريقها، وشرعت في الدخول في مرحلة الجمود ـ علىٰ بعض الصعد، وفي بعض البلدان علىٰ الأقل ـ وما لم يقم المفكرون والدعاة وأولو الغيرة باستثمار الأموال والجهود والأوقات في إجراء الدراسات والبحوث التي توسع آفاق

الدعوة، وترشد المسيرة، وتجد لها البدائل والخيارات؛ فإنها لن تستطيع المحافظة علىٰ زخمها والوصول إلىٰ غاياتها وأهدافها، بل لا تستطيع أن تبدع الحلول لمشكلاتها، ولا مواجهة التحديات التي تواجهها.

إن علينا أن نجعل النقد ملازماً للبناء كملازمة الظل للأشياء، وإلا واجه منطقنا العملي الاختناق، وانسدت أمامه الآفاق. والله المستعان.

٧ ـ تفكير الطريق المسدود:

إن أكثر المشكلات التي تعاني منها الشعوب والأمم ـ ومنها أمتنا ـ يعود إلىٰ قصور داخلي. والقليل منها يعود إلىٰ عدوان خارجي علىٰ نحو ما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. ومشكلات الأمة متراصة متراكمة؛ مما يجعل الإنسان المسلم يشعر بنوع من العجز حيال تصورها، فضلاً عن الاستعداد للتعامل معها. وهذا اليأس المثبّط جعل كثيراً من المسلمين يشعرون بأنهم قد حشروا في أضيق الزوايا، وجُرّدوا من كل وسائل المقاومة، وصارت خيارات العمل والحركة لديهم محدودة للغاية. ونتيجة لكل ذلك فإنهم ما عادوا يختزنون في الذاكرة سوىٰ حالات الإخفاق والتأزم والتراجع. ومن ثم فكلما عُرضت عليهم إمكانية للعمل والعطاء والبناء واجهوها بسردٍ لنموذج إجهاض ووأد؛ حتىٰ إذا استنفدت إمكانات العمل، واستنفدوا ما لديهم من صور ونماذج سوداء؛ صاروا إلىٰ مرحلة الجأر بالشكوىٰ وقلة الحيلة. وصار من المألوف أن وراء كل حوار ومناقشة إجازة مفتوحة!!.

والذي نود أن نقرره أن أية نظرية أو مقولة تفضي بالناس إلىٰ طريق مسدود ـ ليست بنظرية ـ، وليست من العلم في شيء، بل هي إلىٰ الجهل أقرب، وبالتشاؤم والتطير ألصق. فالمخارج والمنافذ وإمكانات البناء لا تستنفد إلا من قبل الجهلة والعجزة! أما أولو العلم والبصيرة والخبرة فإنهم يظلون ـ بحول الله ـ قادرين علىٰ العثور علىٰ ثقب في جدار المستحيل؛ مهما كان الخطب مدلهماً؛ ومهما كانت الظروف غير مواتية. فليس هناك

أزمة ليس لها حل؛ حتىٰ إن الجسد حين يثقل علىٰ الروح يساعدها علىٰ الخلاص منه!.

وقد دلت التجربة التاريخية الاجتماعية علىٰ «أنه عندما يطرأ انحباس أو إعاقة للحركة الاجتماعية علىٰ أحد الأصعدة ـ كصعيد السلطة مثلاً ـ تتحرر الأصعدة الأخرىٰ لا محالة. ورغم كل أنواع الحصار والمراقبة»[1].

إن العلاقة بين جوانب حياتنا الحضارية ليست متصلبة؛ وإنما هي علاقة أقرب إلىٰ المرونة؛ فإذا واجه المجتمع المسلم مشكلات كبرىٰ في مجال من المجالات وجد أمامه مساحات للحركة في مجالات أخرىٰ يتيحها المجال المتأزم نفسه؛ إذا ما وجد المدرك لذلك والقادر علىٰ العمل فيه. إن هناك إمكانات للعمل لا حدود لها للالتفاف حول مشكلاتنا وأزماتنا، ثم اختراقها وتجاوزها.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن انسداد السبل أمام العمل ليس واقعاً ولا حقيقة؛ وإنما هو عبارة عن قصورٍ في مدارك وثقافة الذين يدندنون حوله؛ ليس أكثر!.

٨ ـ الخضوع لفكر الأغلبية:

من الواضح أن المجتمع ليس الفرد المتكرر، وأن وراء الانسجام الظاهري في كل مجتمع تيارات ومذاهب فكرية متنوعة يتفاوت مدىٰ الخلاف بينها من مجتمع إلىٰ آخر. وذلك نتيجة طبيعية لما يقوم به وعي الفرد من اختراق للتاريخ والواقع علىٰ نحو منفرد، ومتميز. وبالإضافة إلىٰ هذا فإن مصالح الجهات والأفراد ليست واحدة. وهذا وذاك يخلق أشواقاً عارمة لدىٰ كل واحد؛ إلى أن يعمّم أفكاره، وينشرها بكل وسيلة ممكنة. والتجربة الاجتماعية تعلمنا أن أكثر الناس غير قادرين علىٰ تمحيص ما يتلقونه من أفكار؛ بل إنهم يندفعون نحو الإيمان بالأفكار التي يرونها أكثر

---

(١) اغتيال العقل: ١٧.

نفعاً لهم، والتي يرونها أسهل في التمثل والفهم، وفي أكثر الأحيان يتخذ الناس من التسليم لأفكار بعضهم وسيلة لدفع الوحشة وتحقيق التماثل الاجتماعي علىٰ نحو ما ذكر أحدهم من أن الناس يلوذ بعضهم ببعض كما يلوذ الطير ببعضه أيام الصقيع!.

وبعد تطور فن الدعاية والإعلان وتحكم وسائل الإعلام في تشكيل عقول الناس وبناء الرأي العام ـ صار اعتناق الناس للأفكار، وتقديرهم للأشياء يتم بصورة قهرية، لا شعورية؛ حيث يتم تحييد (مصفاة العقل) والاتجاه بالخطاب إلىٰ (اللاشعور) مباشرة. وصار من المألوف جداً أن يتقبل الناس تزكية (ممثل) لنوع من معجون الأسنان، أو تزكية (لاعب كرة) لنوع من المرطبات، مع أن ذلك في حكم العقل لا معنىٰ له، ولا وزن!. وتدل نصوص قرآنية كثيرة جداً علىٰ أن أكثر الناس لا يعقلون، ولا يعلمون، ولا يؤمنون. فاتباع سبل الرشاد والوقوف علىٰ الحقائق ليس سبيل الجماهير العريضة.

وتدلنا المعطيات التاريخية الكثيرة أن ثمة أفكاراً جمة لقيت قبولاً شعبياً واسعاً، ثم أثبتت الأيام خطأها وتفاهتها. وفي المقابل فإن هناك أقوالاً ومذاهب ونظريات كان ينظر إليها في حقب ومجتمعات معيّنة علىٰ أنها فاسدة أو شاذة؛ وربما حوكم أصحابها، أو قتلوا من أجلها؛ ثم إذا بالناس يعودون إليها في وقت لاحق معتقدين أن فيها الحلول للعديد من الأزمات والمشكلات.

وهذا كله يجعلنا نتأبىٰ علىٰ الخضوع بسهولة للمقولات الشائعة والتقاليد الذائعة قبل أن ندخلها جميعاً في مختبرات الأفكار، ونعرضها علىٰ الأصول المنهجية الربانية، وعلىٰ ما تراكم من خبرات البشرية.

وعلينا قبل أن نؤخذ برهبة الأكثرية أن نسأل أنفسنا: كيف تكونت تلك الأكثرية، ومن هي العناصر المكونة لها؟ فإذا تبين أنها تكونت عن طريق نفوذ دعائي وإعلامي، أو نتيجة الإلف والعادة؛ فإن دلالتها علىٰ الصواب والقرب من الحق تكون ضعيفة. أما الأكثرية التي تتكون نتيجة

التداول الفكري الحر، ونتيجة المثاقفة والمباحثة والمدارسة فإن لها شأناً آخر. ثم إن الأكثرية إذا كانت عبارة عن جماهير من العوام والأميين فإن رأيها أيضاً يكون معدوم القيمة. فالوثنيون اليوم أكثر شعوب الأرض. وعقائدهم مجموعة من الخرافات الفجّة، والذين في عقائدهم غبش من أبناء المسلمين لا يُحصون عدداً.

الاستسلام للأفكار الشائعة، والرهبة من أعداد من يحملها ستجعل عمليات التجديد والإصلاح متعثرة مترددة. فالغربة سنة من سنن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وسنة المجددين والمصلحين من بعدهم. وإن الذي يخشىٰ حكم التاريخ سيظل دائماً علىٰ هامش الفعل وهامش التاريخ أيضاً، كالبحّار الذي يخشىٰ علىٰ سفينته من الغرق؛ فإنه لن يبحر أبداً. لكن علينا أن نتملك الحسَّ التاريخي؛ حتىٰ لا تتكرر الأخطاء، ونبدأ من الصفر دائماً. إن العظماء يدركون قيمة الأفكار ونفعها بقطع النظر عن مدىٰ انتشارها، والقائلين بها. وغيرهم لا يستطيع رؤية إلا ما يطفو علىٰ السطح، ولو كان غثاءً، وإلا ما كان صادراً عن ثقة، ولو كان ما يقوله في واد والحق في واد آخر!.

٩ ـ في المحيط الحضاري الأعظم:

إن علىٰ كل غيور أن يسأل نفسه: ماذا نريد من وراء الحركة بهذا الدين؟

هل نريد بناء جماعة أو حزب أو دولة أو إنقاذ أمة أو استئناف حضارة؟

وللجواب علىٰ هذا السؤال لا بد أن نستحضر أن شرعتنا في التعامل مع كل ما حولنا هي الإسلام بكل ما جاء به من بناء الإنسان وإعمار الأرض وتوجيه الطاقات واستثمار الإمكانات... وإذا علمنا تنوع إمكاناتنا وأمزجتنا وأفهامنا علىٰ نحو عجيب؛ وجب أن نخلص من وراء هذا وذاك إلىٰ تحديد الهدف الأعظم من وراء حركتنا، ثم نترك لكل واحد منا أن

يختار هدفاً أو أهدافاً صغرىٰ في مجال من المجالات التي تناسبه، مما يصبُّ في النهاية في الهدف الأكبر.

ولعل استشفاف مجموعة التوجيهات الإسلامية يهدينا إلىٰ أن إشادة حضارة إسلامية راقية هي المحصلة النهائية التي تتمخض من مجموعات التكاليف الربانية، علىٰ نحو ما تم إنجازه علىٰ يد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن اتبعهم بإحسان. وهذا الاستشفاف ينسجم مع خلود رسالة الإسلام وعالميتها؛ حيث إن كون الإسلام دين الله المصطفىٰ للإنسانية جمعاء ـ سيجعل أمة الإسلام علىٰ درجة هائلة من التنوع الذي لا يمكن استثماره بشكل كامل إلا من خلال الاتجاه نحو البناء الحضاري الشامل وفق هدي المنهج الرباني القويم.

ففي المسلمين من لا يصلح لأعمال الفكر. وفيهم من لا يصلح للوظيفة. وفيهم من لا يستطيع بذل الجهد العضلي. وفيهم من ولد في شارع أو خيمة....

وجعل نماذج البناء والعطاء ضيقة ومحدودة سيعني تعطيل قوىٰ كثيرة عن أن تقدم أي شيء.

إن البناء الحضاري الشامل بحاجة إلىٰ جهد كل مسلم مهما كان شأنه؛ فالعامل الذي ينظف الشوارع، والإسكافي الذي يصلح الأحذية، والمعلم الذي يثقف الأجيال، والسياسي الذي يقود شعبه... كل أولئك بناة للصرح الحضاري إذا ما قاموا بواجبهم علىٰ الوجه المطلوب. ومكانة كل واحد منهم تنبع من مدىٰ توفر شرطي العمل الأساسيين: الأمانة والقوة. والصورة النهائية للوضع الحضاري العام للأمة، ما هي إلا مجموعة انعكاسات الجهود المبذولة من مجموع الأفراد. والبناء الحضاري أشبه بأن يكون بحيرة، ماؤها مجموعة قطرات، وكل قطرة تضاف إليها ترفع من منسوب المياه فيها. كما أن كل قطرة تتسرب تخفض ذلك المنسوب. وإن كل مسلم يستطيع أن يسكب قطرات أو دلاءً، أو يرفدها بجدول يتدفق؛ بحسب المكنة والطاقة. ومن هنا فإن النهضة مسؤولية جماعية؛ كما أن ما

نعانيه من تخلف هو ثمار تقصيرات وأخطاء الكل الإسلامي، كل بحسبه. فكما أن قدرتنا علىٰ العطاء والبناء متفاوتة؛ كذلك إسهاماتنا في إجهاض التجربة الحضارية متفاوتة.

إن أكبر مشكلة تعصف بجهود البشر في هذه السبيل هي عدم القدرة علىٰ التمييز بين ما يسهم في تقدم البشرية، وما يسهم في انحطاطها. فالإنسان قاصر عن إدراك الصورة الكلية؛ ومن ثم فإن تقويمنا للجهود متفاوت. فكم من عمل يعده بعض الناس خيراً، علىٰ حين يعده آخرون شراً مستطيراً!.

وإذا ما أردنا أن نخص الحديث بالدعاة إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ أمكن القول: إن الشرط الوحيد الذي نشترطه لطبيعة مساهمتهم في خدمة هذا الدين ـ هو أن يكون ما يصبونه في البحيرة متجانساً؛ فلا يصب بعضهم ماء، وبعضهم عسلاً، وبعضهم خلاً؛ فتكون النتيجة مزيجاً غريباً، لا نعرف كيف سنستفيد منه ولا لأي شيء سنستخدمه؟!.

الساحة الحضارية مترامية الأطراف، وهي لكل الخيرين؛ لكن شريطة إبصار الخطوط العريضة، ليس أكثر.

وطالما شهدنا نزاعاً بين جماعتين علىٰ مسجد، كل يريد أن يقيم نشاطه فيه. ونزاعاً علىٰ هداية شخص كل يريد أن يجعله من أتباعه.... ولو أن الصورة الكلية كانت واضحة، ثم تخصّصت كل مجموعة بجانب يسهل عليها إنجازه وخدمته، لعذرت غيرها حين يختص بجانب آخر من جوانب البناء.

لكن المشكلة الكبرىٰ أن كل فريق يدعي أن ما يقوم به من خدمة هذا الدين هو العمل الوحيد المطلوب والمفيد، وأن عمل الآخرين إن لم يضر لم ينفع!.

وهذا أدىٰ إلىٰ أن تبدد جهود عزيزة في نزاعات داخلية باردة وحامية بين أقوام وجماعات، يسعون إلىٰ تشييد صرح واحد، تستظل به أمة

واحدة، كما أدىٰ عدم إبصار المتطلبات الكلية للبناء الحضاري إلىٰ ترك فجوات كثيرة، لم ينهض أحد لسدها وإغناء الأمة فيها. فالدراسات الاقتصادية والإعلامية والاجتماعية والنفسية والتربوية والاستراتيجية.... عزيزة الوجود في الساحات الدعوية؛ مع أن هذه الدراسات ضرورية جداً لفهم المحيط والأرض والمجتمع موضع الحركة والدعوة والإصلاح.

وهذا ينقلنا إلىٰ الحديث عن ضرورة التفريق بين إدراك المنهج ومكوناته وإدراك الحركة به وتهيئة المناخات والشروط الموضوعية لتمكينه في الأرض وإغراء البشرية بالاستمساك به.

ونحن نزعم أن إدراك المنهج ليس عسيراً علىٰ ذوي البصائر؛ لكن العسير حقاً هو فقه الحركة به؛ من حيث الإقدام والإحجام، والإسراع والإبطاء. ومن حيث ترتيب الأولويات وإقامة الموازنات واحتمال أخف الضررين وتحقيق خير الخيرين... وإنما كان ذلك معقداً؛ لأنَّ ظروف التطبيق وتنزيل نصوص الدين وأحكامه عملية معقدة جداً. وتشتبك في التأثير فيها عوامل كثيرة جداً. نفسية واجتماعية داخلية، وعالمية أخلاقية واقتصادية. ويزيد هذا الموضوع صعوبة أن تحسس مسائل الحركة بالمنهج يخضع لفهم الداعية وإدراكه. والنصوص في الموضوع نادرة. والموجود منها عبارة عن توجيهات عامة؛ مما يجعل اكتشاف أسلوب الحركة بالمنهج مسألة اجتهادية صرفة.

ومما يزيد القضية تعقيداً أن كثيراً من الدعاة غارقون إلىٰ الآذان في محاولة فهم المنهج، ولا يعيرون لقضية كيفيات الحركة به إلا بقايا الجهد والوقت.

ويزيد في الصعوبات السابقة أن المنهج الرباني واحد؛ لكن أساليب الحركة به وظروف تطبيقه عديدة ومتنوعة؛ ومن ثم فإن الخبرة التراكمية في مسائل السير به تظل ضعيفة. ولذا فقلما استفاد الدعاة في بلد من خطة دعوية في بلد آخر. وصار من الواجب علىٰ دعاة كل قطر أن يكتشفوا الطريقة الأمثل لنشر أعلام الهداية في قطرهم.

ويمكن أن يقال إلىٰ جانب هذا أيضاً: ما دام مجال العمل هو البناء الحضاري؛ فإن الساحة رحبة جداً، وهي مليئة بعشرات ألوف الدراسات، وما لا يحصىٰ من المعلومات العالمية التي تكشف عن طبيعة الحركة في المجال الحضاري. ويمكن لأصحاب الاهتمام أن يعثروا علىٰ الكثير مما يساعدهم علىٰ فهم خصوصيات الحركة بالدين؛ حيث عالم السنن الربانية التي يفهمها من يبذل الجهد في الكشف عنها بقطع النظر عن وضعه الخاص؛ لكن الانتفاع بذلك يحتاج إلىٰ الشعور بالحاجة إلىٰ ذلك أولاً، وإلىٰ وجود الذهنية المتقدة اللمّاحة التي تلتقط الجوهر من بين أكوام الحصىٰ والتراب ثانياً.

وأخيراً فإن المحيط الحضاري الأعظم سيظل ضيقاً وخطراً علىٰ أولئك الذين لم يبذلوا أي جهد في تعلم العوم فيه. وسوف تظل السفن تصطدم في لججه ما دامت لم تنسّق حركة سيرها بعضها مع بعض!

١٠ ـ المفكرون والتغيرات البطيئة:

تحتفظ الأنساق الثقافية لكل أمة بمجموعة من العلاقات التي تربط بينها؛ بحيث تضطرب الأنساق كلها عندما يصاب واحد منها بضرر أو خلل. كما أن كل نسق يحتفظ لنفسه بـ(حساسيات) ورموز داخلية تحفزه لصدِّ ما يمكن أن يتعرض له من عدوان. وتكون رهافة إحساس الثقافة للتغيرات الطارئة مرتبطة بمقدار وعي تلك الثقافة بذاتها، وبمقدار اتصالها بأصول نشأتها الأولىٰ وشروطها.

وقد جرت العادة أن يكون تحفز الثقافة للمقاومة أعظم كلما كان الخطر الذي يتهددها مكشوفاً ومفاجئاً؛ علىٰ نحو ما نجده من تحفز المجتمع الإسلامي لمقاومة ظاهرة الردة الأولىٰ. وعلىٰ نحو ما نجده من استنفار الشعوب لمقاومة الاستعمار العسكري. وتلك التحديات المكشوفة والمتدفقة لا تؤثر في الثقافة بمقدار ما تبلور وعيها بذاتها، وبمقدار ما تصلّب عودها من خلال إطلاق روح المقاومة.

لكن الخطر الأعظم الذي يهدد الأمم والثقافات والحضارات جميعها بالانحراف والفناء هو ذلك التغيّر البطيء المتدرج الذي يخترقها من أضيق المسام وبمنتهىٰ التؤدة، علىٰ نحو ما يحدثه توالي قطرات الماء في صخرة. وقد حذّر الله ـ تعالىٰ ـ هذه الأمة مما وقع فيه أهل الكتاب السابقون من انحراف؛ من جراء بُعْد العهد وتطاولِ الأمد، فقال سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

إن طبيعة الامتداد تغير في الاتجاه من خلال سلسلة من التغيرات الصغيرة والبطيئة التي يستعصي الشعور بها علىٰ الأنساق الثقافية؛ فلا تستثيرها للمقاومة. وقد قام بعض علماء الأحياء بتجربة علمية حيث وضعوا ضفدعاً حياً في ماء، ثم سخنوا الماء علىٰ نار هادئة جداً. وقد كانت النتيجة مثيرة؛ حيث إن الضفدع سلق دون أن يبدي حراكاً[2]! فقد تحول المحرض علىٰ القفز إلىٰ مخدّر بسبب طريقة ملامسته. وهذا ما يفسر لنا حالة الشعوب التي استعمرت، ثم خرج الاستعمار من ديارها؛ فقد صار تقليدها للمستعمر بعد أن خرج من ديارها أشدَّ بكثير من تقليدها له وهو جاثم علىٰ صدرها؛ حيث استخدم المستعمر بعد ذلك النفوذ غير المباشر.

وهذا التخدير هو ما تعاني منه الأمم والجماعات والأفراد حيث تصبح كل حالة من الانحراف أصلاً معتبراً للحالة التي تليها. فحين أخذت البدع تنتشر في المجتمع الإسلامي الأول كانت صغيرة جداً من نحو نخل الدقيق والتوسع في بعض المباحات.... ثم جاء جيل آخر، فتوسع في ذلك القليل قليلاً وهكذا... حتىٰ وصل الأمر إلىٰ الولوج في المحرمات الظاهرة؛ والناس يتكيفون (سلبياً) مع ذلك، وهم يرددون: إننا نعيش في ظروف أصعب من ظروف من سبقنا، والسابقون كانوا يجدون علىٰ الخير

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٢) القيادة والتغيير: ٤٤.

أعواناً، ونحن لا نجد، وأين نحن من السلف وهكذا. . .

إن المشكلة أن التغيرات البطيئة تجعل قدرة الناس على القبض على بداية الانحدار وإدراك ظروفه وأسبابه ضعيفة جداً. وهذا ما يجعل المعالجة عسيرة.

وهنا يأتي دور المفكرين النابهين الذين يُحسّون بالانحراف البطيء الذي يصيب أمتهم وحضارتهم فإن مهمتهم أن يقرعوا طبول الخطر، وينذروا بالعاصفة قبل هبوبها بسبب معرفتهم بسنن الله في المجتمعات والثقافات، وبسبب (حاسة الاستشعار عن بُعد) التي يمتلكونها. إن عامة الناس يحسون بالكارثة وبالفتنة حين تظللهم، ويكتوون بنارها. أما المفكرون فهم الذين يشعرون بالخطر قبل إحداقه. وفي هذا يقول سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: الفتنة إذا أدبرت عرفها كل الناس، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالم.

ولكن المشكلة أن المفكرين لدينا قلة فأصواتهم تضيع دائماً بين ضجيج العامة.

إن العلاج الوحيد لمقاومة هذا الداء يكمن في الانشداد إلى الأصول والمنهج الرباني المعصوم، ومحاولة تجاوز عطاءات عصور التدهور؛ حتى لا نقع في شَرَكها، مع اعتماد آليات المراجعة المستمرة، وتحديد المسؤوليات، وتحسس الأهداف الكبرى؛ حتى لا ننحرف عن الاتجاه، من حيث ندري ولا ندري[١].

---

(١) يعاني العمل المسلح في العالم الإسلامي من هذه الظاهرة بصورة مفجعة حيث يتحول تحت مطارق الحصار والملاحقة والضرورات من عمل يريد إقامة حكم الله إلى عمل همه المحافظة على وجوده؛ فيقتل أشخاص لا علاقة لهم بالأحداث، وربما قام بعضهم بالسطو على بعض الأموال أو الإقدام على ارتكاب محظورات باسم المحافظة على أمن العمل؛ ويصبح السلاح الذي يستخدمه بعضهم للخلاص من القهر وإقامة العدل ـ بعد مرحلة ما وسيلة لقهر فئات أخرى، وربما لظلم أبرياء؛ لتصبح وسيلة التحرر وسيلة لإنتاج القهر والظلم. وهكذا تندثر مبررات النشأة بالتدريج إلى أن يفقد العمل وجوده.

١١ ـ النفاذ المتبادل:

تعاني أمتنا من مشكلة العجز عن النفاذ إلىٰ الواقع، ومعرفة شروطه وتفاعلاته معرفة مجردة عن الرؤىٰ الشخصية والتأملية الملونة بالثقافة الخاصة. ومع أن حقيقة الأمر هي أن كل واحد منا يندفع نحو فهم الواقع بطريقته الخاصة؛ إلا أن الصحيح أن الاختراق السويّ للواقع واجتراحه لا يتم إلا من خلال دراسات وإحصاءات (مؤسساتية) أكثر منها فردية وتأملية. والمشكلة المرتبطة بهذا أن الواقع المؤلم يدفع الناس بطريقة خفية إلىٰ تجاهله ورفضه، علىٰ نحو ما يدفع الألم الشديد بصاحبه إلىٰ الغيبوبة بغية الخلاص من الشعور به. وربما كان إنكار بعض الناس لصعود الغرب إلىٰ القمر من هذا الباب؛ فإنكار الواقع يشتمل علىٰ تجاهل مشكلاتنا، كما يشتمل علىٰ تجاهل إنجازات أعدائنا!.

ولكن الإنسان حين يرفض الواقع لا يظل في فراغ؛ وإنما يحاول بناء نموذج وهمي للواقع يتعامل معه بدلاً عن الواقع تكيفاً ومغالبة. وهذا النموذج سيكون تصويراً مشوهاً للواقع المرفوض، وسيكون أكثر عكساً ومحاكاة لمشاعرنا وأمانينا منه لأي شيء آخر. وتكون محصلة ذلك مصارعة مشكلات وبناء رؤىً، من صناعتنا نحن، وليست من إفرازات الواقع ومعطياته!.

إن الشرط الأول لنجاح عملية السيطرة علىٰ الواقع وتحويله نحو ما نريد هو أن نحاول أن نجعل من الفكر ذاتاً، ومن الواقع موضوعاً؛ وذلك بفهم الواقع بأقصىٰ قدر ممكن من الحياد والموضوعية؛ فلا نصور الواقع كما نحب، ولا كما ينبغي أن يكون؛ ولا علىٰ النحو الذي يغيظ الخصوم، أو يروج لمصالح وأفكار خاصة نسعىٰ لتحقيقها ونشرها. كما أن علينا أن ندرك أن الواقع الاجتماعي ليس انعكاساً مباشراً للأفكار السائدة. فالأفكار دائماً طليقة تنتمي إلىٰ عالم المثال الذي لا يعرف القيود. وحين تندمج الفكرة في الإنسان، وتبدأ مخاضات التجسد في الواقع العملي تكون قد كبلت نفسها بقيود الزمان والمكان وتعدد الفهم وتنوع الإمكانات. وكل ذلك

يحتم نوعاً من المفارقة بين الواقع والمثال. ومن ثم فإن فاعلية أي مجتمع تقاس بما يحققه من المطابقة بين مثله وواقعه. وذلك أمر يتفاوت من مجتمع إلىٰ مجتمع ومن زمان إلىٰ آخر.

وبعد أن نحاول تصور الواقع علىٰ ما هو عليه، فإن علينا أن نقوم بالخطوة الأهم، وهي السماح له بالنفاذ إلىٰ أفكارنا؛ وذلك بتغيير بعض مفاهيمنا وتعديل بعض مقولاتنا الجاهزة استجابة للحصيلة الجديدة من المعطيات. وهذا لا نستطيع أن نحوزه إلا من خلال تحلينا بفضيلة المرونة الذهنية. وعلينا أن نسعىٰ لجعل أفكارنا تخترق الواقع عن طريق تفكيكه وتحليله وتعليله، ثم إعادة تركيبه.

هذا النفاذ هو الشرط الأساسي للسيطرة علىٰ الواقع، ثم تغييره نحو الأفضل[1] وذلك لأن الواقع ليس جوهراً ثابتاً؛ ففيه تفاعلات وتحولات دائمة ومطردة علىٰ قواعد من توازناته الخاصة. واختراقنا له ضمن شروطه الموضوعية ـ لا شروطنا ـ يساعدنا علىٰ فهم تلك التحولات واستغلال علاقاتها وتناقضاتها الداخلية في سبيل توجيهها نحو المسارات المرغوبة. أما أفكارنا ومفاهيمنا وانطباعاتنا عن العوالم حولنا؛ فهي كذلك متحرّكة. والمطلوب منا أن نكون مستعدين لتغيير نظرتنا للواقع وفق مقتضيات مستجداته الكثيرة. والذي نلاحظه أن كثيرين منا يتعاملون مع الواقع علىٰ أنه كتلة متحجرة؛ فهم يصدرون حكماً واحداً ـ ربما غير ناضج ـ، ثم لا يزالون يدعمونه ويعززونه بالتفريعات والشواهد كلما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً. كما أن كثيرين يصرّون علىٰ المحافظة علىٰ طريقة في الاستدلال والحكم من خلال مجموعات من الأقيسة والتصورات والمقولات التي أثبتت الأيام والتجارب عقمها وإخفاقها في إدراك الواقع واستشراف المستقبل.

إن تجميد صورنا الذهنية عن الواقع سيجعلنا نعيش خارجه، وسيجمّد حركتنا في النهاية؛ لنصير إلىٰ مزيد من التخلف!.

(١) اغتيال العقل: ٧١.

١٢ ـ ظن ما تحت التاسيس ناجزاً:

تكثر الدعوات اليوم إلىٰ إقامة المجتمع الإسلامي والخلافة الراشدة. وهذه الدعوات، مصدرها الغيرة والحرص علىٰ هذا الدين وأمته. لكن الطريقة التي تتم بها هذه الدعوات؛ وكيفيات الطرح؛ تخفي وراءها ما يشعر السامع بأن النموذج المطلوب للمجتمع المسلم وللدولة المسلمة نموذج جاهز في الدماغ، أو علىٰ الورق. وهذا النموذج ينتظر فقط الفرصة المواتية؛ حتىٰ يستحيل إلىٰ حقائق معاشة ـ وملموسة. وهذا في الحقيقة منتهىٰ التبسيط لقضايا في غاية التعقيد.

والدليل علىٰ أن كثيراً من الخيرين يعتقدون هذا الاعتقاد أن أعمالاً كثيرة تعد لبنات أساسية في صرح المجتمع المسلم لا يتحرك أحد من المهتمين بذلك إلىٰ القيام بها أو تهيئتها؛ فعلىٰ الرغم من جيوش العاطلين عن العمل لدينا لا نرىٰ من يقوم بالدراسات والإحصاءات للتعرف علىٰ الواقع الإسلامي. كما أننا لا نرىٰ في الخيرين أي اهتمام بقضايا البيئة، ولا برفع المستوىٰ التقني والعلمي للناس...

بل إن من الخيرين من يصرّح بأن العمل الفلاني يتم إنجازه إذا قامت الخلافة الراشدة، والعمل الفلاني يولد عندما يتوفر لدينا مجتمع إسلامي. وهذا كله قلب للقضية رأساً علىٰ عقب. فالمجتمع الإسلامي والخلافة الراشدة لا يتم إنشاؤهما بقرار؛ وإنما يتم تشييدهما عن طريق البناء المتدرج. وهيئة ولادتهما أشبه ما تكون بولادة (كتاب)؛ فهو لا يسطر إلا بطريقة تتابعية، الحرف بعد الحرف والكلمة بعد الكلمة والسطر بعد السطر. ولا يعرف مؤلف بشكل مفصل ما سيكتبه في كتابه، ولا يستطيع التنبؤ به لكنه يخطط لأبوابه الرئيسية، ويحضّر مادته. أما ما وراء ذلك؛ فيظل مشروعاً تحت التأسيس إلىٰ أن يكتمل. وأثناء عملية التأليف قد يتم شطب جمل أو صفحات، كما يتم تقديم بعض وتأخير بعض آخر وهكذا...

ونحن لا نستطيع أن نتصور الوضعية النهائية التي سيتخذها المجتمع الإسلامي الملتزم؛ لأن الصور السابقة لمجتمعات السلف لا يمكن إعادتها

بتفاصيلها؛ وإنما بقيمها ومعالمها الأساسية وخطوطها العريضة. وقد جرت سنة الله في عباده أن يقلّبهم في ظروف شتىٰ من الابتلاء؛ ليرىٰ كيف يصنعون. وهذا كله يوجب علىٰ كل واحد منا أن يحاول وضع لبنة طيبة في صرح المجتمع الإِسلامي الراشد، ويستشرف بعد ذلك عاقبة المتقين.

وما لم نفعل ذلك فسيظل التعامل مع هذه القضية معكوساً. وتكون النتائج: (مزيد من الأحلام مع مزيد من الآلام)!.

إن هذه الأنماط التفكيرية الخاطئة التي نعاني منها في عمليات التصور والإِدراك ومراحل المعالجة ـ ليست تشويهات جنينية أصابت العقل المسلم بسبب انتماء ديني، أو الانحدار من شعوب بعينها؛ وإنما هي تشوهات في الثقافة السائدة، والتي هي محصلات سيرورتنا الفكرية والاجتماعية والعلمية. . . التي قلّ انتفاعها بالهدي الرباني في العصور الماضية. كما أنها إحدىٰ خلاصات التخلف الحضاري الذي يجعل الوعي العام ضعيف الذاتية والبنىٰ التحتية؛ مما يجعلنا غير قادرين علىٰ الاندماج في الواقع، وغير قادرين علىٰ فهم الماضي وفهم سنن الله ـ تعالىٰ ـ في خلقه.

ومن هنا فإن من أولىٰ الواجبات علينا أن نحاول التركيز أكثر فأكثر علىٰ إصابات العقل المسلم، وأن نجعل من محاصرتها ثقافة عامة موّارة تهز كيان العقل الراكد؛ لتعيد تشكيله من جديد. وفي سبيل ذلك علينا أن نبلور قوانين التفكير الراشد، ونبرز سمات التفكير المعوج. ومما يساعد في تحقيق ذلك أن نقرر علىٰ طلاب المدارس الثانوية، وفي المراحل الجامعية بعض المناهج والمقررات التي تعلّم الطالب كيف يسلسل المعقولات علىٰ نحو منطقي، كما تعلمه المنهجية العقلية التي عليه أن يستخلصها من مواد الرياضيات والفيزياء. وتقوم مناهج التفكير كذلك بتعليم الطالب وتدريبه علىٰ الوصول إلىٰ المحكّات النهائية في المسائل الكبرىٰ. تلك المحكّات التي تشكل الإِطار الأخير الأرحب لما نطرحه من مقولات وجدليات، ولما يتفاعل في ساحتنا الفكرية من إحالات منطقية وعلمية وثقافية.

إن ثقافة (ثم ماذا) ما زالت ضعيفة لدينا؛ فنحن لا نملك

(الحساسيات) المنطقية والثقافية التي تدفعنا إلىٰ أن نبني تسلسلات دقيقة من الأسباب التحليلية التي توصلنا إلىٰ نتائج ومعايير صارمة، ينتهي عندها الجدل، ويبدأ العمل. ومن ثم فإن العودة إلىٰ الصفر في الكثير من حواراتنا ومناظراتنا مألوفة جداً؛ حتىٰ إننا لنشعر أننا ندور في دائرة مقفلة نحوم فيها حول الحقيقة دون أن نقبض عليها. والله حسبنا.

الإنسان أولاً

حين ينظر المتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة يجد اهتماماً مطلقاً بالإنسان والحديث عنه؛ وكأنه محور الكون ومركزه؛ فهو العبد المكرم الذي تخدمه قوانين الكون وجماداته ونباته وحيوانه. ونجد في هذا فيضاً من النصوص ذات الدلالة المباشرة والإيحائية؛ من نحو قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1] وقال ـ عز اسمه ـ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾[2].

ومن هنا نجد أن اهتمام الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان دائماً ينصب بصورة أساسية على صقل الإنسان وتهذيبه وتقويم اعوجاجه. وحين يلتفتون إلى الجوانب المادية والعمرانية؛ فليس ذلك إلا من باب تهيئة العوامل والظروف التي تمكّن الإنسان من القيام بحق الاستخلاف والتحرك بفاعلية للنجاح في مواجهة سلسلة الابتلاءات التي لا تنتهي إلا عند انتهاء الحياة وطي بساط العمر. وحين ننظر في توجهات النبي ﷺ واهتماماته في إشادة صرح المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية نجد أن خطابه كان يركز على بناء الإنسان عقدياً ونفسياً وفكرياً وسلوكياً... وجعل كل ما عدا ذلك من جوانب الحياة عبارة عن مكملات ومتممات. والناظر في أحكام الشريعة قاطبة يلحظ ذلك بوضوح على مستوى الأصول والتفاصيل. والنظر

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المنطقي الخالص ينتهي إلىٰ هذا؛ إذ ما معنىٰ إعمار الأرض وبذل جهود عزيزة في السيطرة علىٰ الطبيعة لو لم يكن ثمة هدف كبير وراءها. وهذا الهدف لا يمكن إلا أن يكون نفع الإنسان والرقي به ومساعدته علىٰ النجاح في الوصول إلىٰ أهدافه...

ومن وجه آخر فإن صلاح الإنسان سيجعل تعامله مع باقي المخلوقات منسجماً مع الحكمة الإلٰهية في الخلق كما أن فساده سيؤدي إلىٰ فساد عريض في الكون؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

إن الإنسان المصلح يترك بصمات الصلاح علىٰ كل جوانب الحياة التي يمسها، ويجعلها جميعاً منسجمة في وحدة ضمن إطار العبودية لرب العالمين، والالتزام بأمره وتحقيق حكمته في الوجود. ومن ثم فإن السمة العظمىٰ للحضارة الإسلامية لم تكن غزارة الإنتاج المادي ـ علىٰ كثرته ـ؛ وإنما كانت التجسيد الحي لعقيدة التوحيد، والمثل والقيم الإسلامية، والتجاوب مع النزعة الإنسانية الأصيلة نحو حب الخير والإحسان إلىٰ الخلق والرفق بهم وهدايتهم.

وإذا كان بناء الإنسان الصالح هو فاتحة العمل الحضاري؛ فإن الذبول الذي أصاب الحضارة الإسلامية بدأ به أيضاً. فحين بدأ الناس يشعرون بالتقهقر كانت الجوانب المختلفة للحضارة الإسلامية في فورة مجدها وازدهارها؛ حيث ظلت تعطي قروناً عديدة بحكم الاندفاعة الأولىٰ.

ونحن إلىٰ الآن لم نؤرخ بشكل مفصل لحيثيات الخلل الذي أصاب الإنسان المسلم، ولا التغيرات البطيئة التي كانت تتعاقب عليه؛ مما جعل جذوة الانصهار في المنهج الرباني تخبو شيئاً فشيئاً إلىٰ أن انهار البناء كله،

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

وفقد أكثر المسلمين فضيلة الانتفاع بالدين والسيطرة علىٰ شئون الدنيا!.

الإنسان كلٌّ معقّد:

لا ريب في أنه قد بذلت جهود ضخمة في القرنين الأخيرين في سبيل التعرف علىٰ طبيعة الإنسان وحاجاته ودوافعه والعوامل والظروف التي تشكل مناطق (اللاوعي) لديه. وقد تم التعرف علىٰ قضايا كثيرة مهمة في هذا الشأن؛ لكن المشكلة الأساسية في هذا أن أهل كل تخصص يدرسون الإنسان من وجهة نظرهم الخاصة، كما يفعل الأطباء وعلماء النفس والاجتماع والاقتصاد... وحتىٰ يستطيع كل واحد منهم التقدم الرأسي في بحوثه؛ فإنه يحتاج إلىٰ الإغراق في تخصصه. وهذا الإغراق يحجب لديه الرؤية لباقي الجوانب. والعالم الذي يقوم بدراسة كل جوانب الإنسان يظل عاجزاً عن تجاوز السطح والقشرة الخارجية لجميع ما يدرسه حيث يكون الكم علىٰ حساب الكيف. ولو فرضنا قيام مجموعات من العلماء بذلك؛ لأدّت الخلافات في وجهات النظر الشخصية إلىٰ تمييع كثير من النتائج التي يصلون إليها أو تناقضها في بعض الأحيان.

وهذا من جهته أدىٰ إلىٰ صعوبة بلورة رؤية شاملة لطبيعة الإنسان وحاجاته وهندسة علاقاته!.

وإذا كان وزن أي رأي مستمداً من أهمية العمليات التي أفضت إليه، ومدىٰ قطعية المعلومات التي اعتمد عليها في صياغته؛ فإن (علوم الإنسان) تعدّ مصابة بعاهة لا شفاء منها؛ حيث إن مجموع الأسس والملاحظات والمقدمات التي بنىٰ الإنسان تصوره عن نفسه عليها يميل إلىٰ أن يكون فرضياً تخمينياً إلىٰ حد بعيد. ويستوي في ذلك علوم النفس والاجتماع والفلسفة والطب والاقتصاد... والناظر في جميع هذه العلوم يجد فيضاً من النظريات والمعلومات المتناسخة والمتعارضة؛ مما يجعل الإنسان يشعر دائماً بأنه يقف علىٰ أرض هشّة!.

إن شخصية الإنسان هي نتاج شبكة معقّدة جداً من الموروثات النفسية

والجسمية، ومن الخطوط العميقة التي حُفرت في نفسيته خلال السنوات الأولىٰ من عمره، ومن الثقافة العامة السائدة في بيئته. والتعليم الذي تلقاه، والظروف المعاشية المختلفة التي تكتنفه وعوامل أخرىٰ عديدة.

ويزيد المشكلة تعقيداً أن تأثير كل من تلك العوامل يختلف في شدته؛ بين شخص وآخر؛ مما يجعل شخصية كل فرد متفردة تفرداً يجعلها غامضة غموضاً شديداً؛ حتىٰ إنه ليصح القول: إن ردّ فعل أي شخص علىٰ ظروف الحياة والمثيرات الخارجية مجهول!. فالكلمة التي تثير الحماسة للعمل لدىٰ إنسان، تصنع إحباطاً لدىٰ آخر والظرف الذي يفرح إنساناً يحزن غيره، وهكذا...

ويعود كثير من الحيرة والقصور في المعلومات والنظريات المتعلقة بالإنسان إلىٰ أن العقل البشري لا يستطيع أن يعمل بكفاءة إلا من خلال (إطار توجيهي) أو قواعد ومقدمات أساسية تمنحه بعض الكليات التي تعصمه من التخبط والضياع. وكان علىٰ الإِنسان الذي أدار ظهره للوحي ورسالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن يدفع الثمن. وهو ثمن باهظ جداً! فالمشكلة لا تتعلق بكينونة الإِنسان فحسب؛ وإنما بكيفية تلبية أشواقه وتطلعاته إلىٰ ما وراء هذه الحياة وكيفية تجسيد العلاقة بين عالَمين مختلفين علىٰ نحو لا يضر بمصير الإِنسان في واحد منهما!.

إن الغرب قام بكم هائل من الدراسات؛ لكن من غير قواعد صلبة ولا إطار توجيهي. والمسلمون الذين يملكون مقدمات ومبادئ أساسية في بلورة رؤية شاملة عن الإِنسان؛ لم يقوموا بشيء يذكر من الدراسات. والقليل الذي قاموا به تم معظمه علىٰ المنهج الغربي نفسه؛ أي خارج مفاهيم الوحي!. ومن ثم كان ضياع الإِنسان بين من فقد أسس المعرفة به وبين من فقد وسائلها!.

إن إدراك طبيعة الإِنسان مهم جداً من أجل تحديد حقوقه. وما لم يتم تحديد تلك الطبيعة؛ فإن أية محاولة لتعريف الحقوق، أو لمنع إيجاد حقوق جديدة ربما تكون زائفة. ويطرح بعض الباحثين سؤالاً هو: ماذا سيكون

موقف الناس لو أن دعوة تعميمية متطرفة، تخرج في المستقبل منادية بإلغاء الفوارق بين البشر وغير البشر من الكائنات بحيث ينمحي التمايز بين ما هو بشري وما هو غير بشري[1]. ماذا سيكون موقف (منظري العالم) من استهلاك الإنسان للحيوان والنبات وغيرهما!.

وقد قامت فعلاً دعوات في أوربا قبل خمسين سنة إلىٰ التخلص من كبار السن والعجزة من البلهاء والمجانين حيث إنهم يكلفون المجتمع الكثير دون أن يعود وجودهم عليه بشيء!. وتعيد بعض دول الغرب الآن النظر في منع الإجهاض!.

إن أسئلة كثيرة ما زالت تدور حول مسؤولية المجتمع عن تصرفات الفرد ومسئوليته عن أعماله تجاه مجتمعه[2]، وكثير منها ظل دون جواب.

إن قصدنا من وراء ما ذكرناه عن تعقيد طبيعة الإنسان هو الأناة في التعامل معه وإصدار الأحكام عليه، والرفق في تحليل موقفه ودوافعه، إلىٰ جانب استشعار عظم المسئولية التي ستواجه من أخذوا علىٰ عاتقهم دعوة الناس إلىٰ الخير وتغيير مسار حياتهم وإعادة صياغتهم من جديد. كما أنه يجب أن يدفعنا وضع الإنسان هذا إلىٰ التمسك بالإطار المرجعي الرباني في فهم الإنسان، وأن نقوم بفيض من الدراسات المؤسسة والمؤصلة ضمن ذلك الإطار حتىٰ نمتلك التصور الخاص المفصل الذي نحتاجه في إصلاح الإنسان المسلم والنهوض به.

مسلم اليوم:

لا يمكن للأحكام التعميمية أن تصدق علىٰ أمة بأسرها يعيش كثير من أبنائها في ظروف كثيراً ما تكون متباينة. ومن ثم فإن ما سنذكره هنا ليس

---

(١) نهاية التاريخ: ٢٥٨.

(٢) يذكرون أن إحدىٰ المحاكم حكمت علىٰ مراهق بالقتل لارتكابه جريمة، وقبل تنفيذ الحكم قال أحد الحاضرين: عليكم أن تعاقبوا أباه الذي لم يحسن تربيته. فرد الغلام: إن أبي رباني، لكن أباه ـ أي جده ـ لم يقم بواجبه في تربيته!!.

سمة للأفراد، وإنما هو سمة للسواد الأعظم من أبناء الأمة. ومما هو غني عن القول أن ما يعاني منه المسلم المعاصر، ليس جميعه جديداً فكثير منه اختمر خلال حقب عديدة متطاولة. وشخصية المسلم اليوم هي خلاصة مجموع موروثات الماضي ومعطيات الحاضر.

والناظر في أحوال العالم الإسلامي يجد أنه يعيش على هامش العالم على المستوى الثقافي والتقني والتأثير في السياسات الكونية والتصنيع... وهذه الوضعية تجعل العلاقات التبادلية بين العالم الإسلامي ودول المركز ـ المتمثلة بشكل أساسي في الدول الصناعية الكبرى ـ لصالح المركز؛ حيث يمتلك أولئك زمام المبادرة، ويفرضون شروطهم على غيرهم من مسلمين وغير مسلمين من سكان الجنوب المستضعفين. وهذه العلاقات غير المتكافئة لا تتجلى على المستوى العام؛ فحسب وإنما أيضاً على المستوى الخاص؛ إذ إن الجزء يساوي ـ في هذا ـ الكل، كما أن الكل يساوي الجزء. والمشكلة الأساسية التي يواجهها المسلم أنه يجد نفسه مغموراً بفلسفة وأنظمة وشروط ومنتجات حضارة لم يساهم في إشادتها[1]، ومن ثم فإن استيعابه وتكيفه مع منتجاتها سيأتي دائماً متأخراً. كما أن الدول الصناعية قادرة في الوقت نفسه على تصدير مشكلاتها إلينا، وجعلنا نسدّد كثيراً من مستحقاتها عوضاً منها!.

وهذه الحضارة عقّدت الحياة إلى الحد الأقصى، وجعلت تكاليف العيش الكريم باهظة جداً، من خلال بثّ روح الاستهلاك النهم، وإشاعة أدبياته، وفرض شروط القدرة عليه...

---

(١) لا يعكر صفو هذه المقولة وجود عشرات الألوف من العلماء المسلمين الذين يعملون في الغرب، ويدفعون حركته العلمية والتقنية إلى الأمام؛ لأن إسهامهم هناك يتم باعتبارهم مثقفين وعلماء لا باعتبارهم مسلمين. وهذا كما كان الشأن في العصور الزاهرة للحضارة الإسلامية؛ حيث كان هناك ألوف من النصارى واليهود والوثنيين الذين شاركوا في تشييد الحضارة الإسلامية. وما دام إنتاجهم يتم في ظل النظم والتوجيهات الإسلامية فهو جزء من حضارة الإسلام، وإنتاج المسلمين في الغرب اليوم جزء من الحضارة الغربية.

ويجب أن نعترف أن الدول الصناعية استطاعت أن تحل كثيراً من المشكلات الكبرىٰ التي يعاني منها الإنسان لدينا؛ حيث لا يعاني الإنسان هناك من ويلات الحروب الأهلية، كما أنه ليس هناك من يتضور جوعاً - حيث الضمان الاجتماعي والصحي - إلىٰ جانب أنه لا يوجد طفل لا يجد مدرسة يدرس فيها. والمظلوم يجد - في أكثر الأمر - مرجعاً يرفع إليه ظلامته حيث سيادة القانون واحترامه...

هذه المميزات الإيجابية التي تمتع بها الإنسان هناك، لم تأت من عرق جبين المواطن الغربي، فحسب، بل دفعنا جزءاً من تكاليفها؛ فهم وراء إشعال العديد من الحروب لدينا، ووراء نهب ثرواتنا وتمزيق بنانا الثقافية والرمزية العميقة... لكن الحقيقة المرة - علىٰ أية حال - هي أن مسلم اليوم تلفُّه الحيرة الشديدة؛ فهو في منطلقاته العقدية والفكرية منتم إلىٰ أصول مختلفة عن أصول الحضارة التي تظلل عصره؛ ومن ثم فإنَّ في داخله صراعاً عنيفاً يجتاحه ويؤرقه. فهو حتىٰ يعيش عصره مطالب بأن يندمج فيه، لكن الاندماج الكامل يجعله كالخائن لمعتقداته وقيمه ومبادئه وخلفياته الثقافية المتجزّرة في كيانه. وهنا تتحكم التربية والظروف المعاشة في ترجيح أحد الخيارين. وهذا الصراع هو الثمرة المباشرة للتهميش الحضاري الذي يكتنف حياة أمة الإسلام اليوم؛ إذ إن من السنن الحضارية أن من يعيش خارج دوائر الفعل لا بد أن يتضرر من انعكاسات ردود الفعل التي تفتقر غالباً إلىٰ المبادرة والاتزان والوعي الجيد.

إن الإنسان الغربي يئن اليوم من التغير السريع في أنظمة الحياة المختلفة، ويرىٰ نفسه وأعصابه عاجزة عن التأقلم معها، مع أنه هو الذي يدفع حركة التغيير في بلاده. فكيف ستكون حالة المسلم الذي يشعر بأن عليه أن يسير في ركاب نظم ليس له أية يد في إبداعها وإنتاجها؟!.

حين خرج الاستعمار من ديار المسلمين أخذت الحكومات الوطنية تعد الخطط التنموية المختلفة لإعمار البلاد وإزالة آثار العدوان، ومحاولة سد فجوة التخلف القائمة بيننا وبين الغرب. واتخذت خطط التنمية أشكالاً

عديدة، من تنمية تعتمد الانغلاق على الذات والاعتماد على الإمكان الوطني، إلى تنمية منضوية تحت المنظومة المذهبية الرأسمالية، إلى تنمية تستمد أدبياتها وآلياتها من التجربة الاشتراكية. وكان بين هذه الأنماط العديدة قاسم مشترك تلتقي عليه هو هامشية العناية بالإنسان، وذلك الإهمال لم يكن بعدم فتح المدارس أو المشافي أو إيجاد الوظائف؛ فهذه منجزات مهمة لكنها ليست جوهرية؛ إنما كان الإهمال منصباً على اهتمام بإيجاد الصيغ والظروف والآليات التي يحقق المسلم فعاليته من خلالها على نحو يعزّز تواصله مع معتقداته وتطلعاته، ويجعل ما يقوم به من جهد في بناء الحضارة منسجماً أو جزءاً من جهده في إرضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ والفوز بالجنة. ومظاهر ذلك الإهمال أكثر من أن تحصى؛ فعلى سبيل المثال تمثل الوحدة محوراً أساسياً في ثقافة المسلم، ولم تقم أكثر الدول الإسلامية بجهود تذكر في هذا المجال. ويتشوف المسلم إلى أن يكسب لقمته عن طريق الحلال؛ لكن أكثر الخطط التنموية تعتمد على القروض الربوية. وسوء الظروف وضعف فاعلية الأنظمة والقوانين كثيراً ما يُلجئان المسلم إلى دفع الرشوة وأخذها. وعلى حين تحتل قضية الشرف والعرض مساحة هامة في ثقافة المسلم وجدنا أطراً عديدة أنشئت لإخراج المسلمة من بيتها، وجعل حياتها وعلاقتها ومظهرها أشبه بما عليه المرأة الغربية.

آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وأحكام كثيرة تنبه المسلم إلى أن من مهماته الأساسية في هذه الحياة إيصال صوت الإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى العالمين؛ ثم ينظر فيرى هذا الأمر لم يعد يأخذ أي حيز من خطط التنمية والأطر الرسمية الموجودة في غالب الدول؛ مما يعني فراغاً هائلاً على مستوى الأهداف الكبرى والمشاريع العظمى بعيدة المدى. مما جعل المسلم يشعر بأن كثيراً من أنشطته مبتوت الصلة بالتكاليف الربانية وأشواقه الروحية.

ولم يتمزق المسلم عن طريق ذلك وحده، بل أضيف إليه المعاناة اليومية الشاقة في سبيل طلب لقمة العيش، والحصول على القدر المناسب

من الطعام والماء الصالح للشرب، وما إلىٰ ذلك من ضرورات الحياة.

ونتج عن ذلك كله نوع من عدم الاكتراث بالشأن العام، بل اجتاح كثيراً من المسلمين شعور بظلم مجتمعاتهم لهم. وذلك حق لأن المجتمع الذي يعجز عن تلبية الحد الأدنىٰ من حاجات أفراده مجتمع مريض!

وقلة الإمكانات المادية وكبت النشاط الأدبي للمسلم ـ نتيجة عوامل شتىٰ ـ أدىٰ إلىٰ جعل النشاط العقلي للمسلم محدوداً؛ فإبداعاته واختراعاته وحضوره العالمي أشياء لا يكاد يسمع بها أحد، مع توفر الإمكانات العقلية ككل البشر؛ لأن الذكاء سيظل عديم الفائدة للذين لا يملكون سواه!.

ولم يتوفر للإنسان المسلم في كثير من الأحيان ما يحتاجه عصرنا من تعليم وتدريب مرموقين؛ حتىٰ يشعر بالأناقة، وحتىٰ يؤمّن لقمة العيش الكريم لأولاده. وظلت مواهبه وقدراته أقرب إلىٰ أن تكون فطرية؛ مع أن الإنسان كلما رقىٰ، وتعقدت الحياة من حوله شعر بأن ما لديه من قوىٰ فطرية لم يعد كافياً لاستيعاب تقنيات العصر. وكان هذا سبباً مهماً في الشعور بالعزلة والحدودية. وهذا الضعف العام في كياننا جعل الشعوب الإسلامية عاجزة أو قاصرة عن استيعاب ملايين الوافدين الجدد ممن تدفع بهم الأرحام في كل سنة ـ تربوياً واجتماعياً ـ؛ فحصل نوع من الانقطاع في التواصل الثقافي بين الأجيال الجديدة وأسلافها؛ إلىٰ جانب انتشار الرذائل الخلقية، وانعدام الأمن في كثير من المجتمعات، وضعف الثقة بين الناس!.

وكانت المحصلات النهائية لكل ما ذكرناه من إهمال للإنسان المسلم في برامج الإقلاع الحضاري، أن أصبحنا نشاهد في نفسية المسلم وسلوكه ما لا يمكن أن يستقيم معه دين ولا دنيا!!. ومن ذلك ما يلي:

١ ـ شعور المسلم بفقد الكرامة وضياع الحقوق وسحق الذات واضمحلالها.

٢ ـ عالم المسلم هو عالم الضرورات؛ فهو يكافح جل عمره في سبيل البقاء ليس أكثر. والضغوط المعاشية اليومية حالت بينه وبين الخلوة مع نفسه والحديث إليها، ورفع مستواه الثقافي؛ فهو في حالة من الجري الدائم للحصول علىٰ ما يسد الرمق.

٣ ـ يفتقد المسلم علىٰ مستوىٰ الفاعلية النفسية وعلىٰ مستوىٰ السلوك روح المبادرة وسلوك الاقتحام إلىٰ جانب الخوف من الجديد والخوف من التغيير.

٤ ـ يعيش مشكلاته عن طريق الانفعال، لا عن طريق التفكير والتدبر؛ مما أدىٰ إلىٰ انحسار مجاله الحيوي وفقده السيطرة علىٰ الواقع.

٥ ـ التلقي الفاتر لكل ما يحدث؛ حيث لا شيء يهم! لأن عنده ما هو أهم، ولأنه يشعر بأن اهتمامه بالأحداث غير ذي جدوىٰ.

٦ ـ كثير من العلاقات الاجتماعية ـ علىٰ المستويات كافة ـ لم يعد قائماً علىٰ التفاهم والتبادل المتكافئ، وإنما علىٰ القهر والتسلط والعنف؛ مما جعل المسلم يشعر بفقد الكثير من روح التمدن الإسلامي والشفافية الروحية[١].

كل هذا وأمور قد لا تقل أهمية، جعل هناك هوة سحيقة بين الإنسان الذي صاغته التربية النبوية؛ ففتح العالم وأنشأ الحضارة العتيدة، وبين مسلم اليوم المشتَّت الجذور، والمغلوب علىٰ أمره والمعطل عن أي مشروع عظيم!

إننا إذا لم ننجح في صياغة الإنسان المسلم صياغة جديدة؛ فليس من المرتجىٰ أن نفوز في أي مجال آخر! والله المستعان.

ابن الإسلام أو: المواطن العالمي:

محمد ﷺ هو خاتم النبيين. والإسلام هو كلمة الله الأخيرة لأهل الأرض جميعاً. فهو يتسع للإنسان عبر امتدادات الزمان والمكان والظروف والخصوصيات... وتعني شمولية الرسالة وختمها صياغة الإنسان علىٰ نحو عالمي عام، يجعله قادراً علىٰ إعمار الأرض وإبقائها صالحة للعيش. كما يجعله يبني علاقاته، ويضبط تحركاته وفق منهج الله ـ تعالىٰ ـ مستشرفاً

---

(١) انظر التخلف الاجتماعي: ٤١ وما بعدها.

بصورة دائمة جعل الحياة كلها عبادة لله وحركة دائبة في بلوغ مرضاته.

ليس هناك مقاييس لتوصيف المواطن العالمي. وحين قام بعض الغربيين ببعض الدراسات حول الوضعية العامة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان المتحضر أو المواطن الصالح ـ حددوا تلك الوضعية من خلال الفلسفة المادية و(الليبرالية) الغربية وأدبياتها... والغربيون يعنون دائماً بالجوانب المادية للحياة والإنسان، ويهملون ما يتعلق بجانب التقوىٰ والتربية الأخلاقية وتأصيل حس الانتماء إلىٰ العبودية لرب واحد فرد صمد، وما يتبع ذلك من أشواق وعلاقات وتصرفات...

وسنحاول هنا أن نعرض أهم سمات وسلوكات المواطن العالمي الصالح منطلقين من التوجيهات الربانية ومن معطيات تجربتنا الحضارية العالمية، إلىٰ جانب ما نعتقد أنه ضروري لبناء حياة الإنسان المسلم مما أفادتنا إياه التجارب العالمية، ومما يقتضيه تحقيق المنهج الرباني في الأرض. وسنمزج هنا بين ما هو حاصل وبين ما هو مطلوب مراوحين بين الواقع والمثال علىٰ النحو التالي:

١ ـ الانشغال بمشروع عظيم:

يحتاج الإنسان كيف يبقي علىٰ شيء من حيويته إلىٰ أن يعيش بين مجموعة من التناقضات. هذه التناقضات تمثل الهوة الفاصلة بين الموجود والمطلوب. فحين يكون المطلوب أكبر من الموجود فإن الإنسان يستخدم قواه المختلفة لجعل الموجود ـ بطريقة ما ـ يفي بالمطلوب. ومع أن المطلوب سيظل أكثر من الموجود ـ علىٰ المستوىٰ العالمي ـ إلا أن حداً معيناً من الوفرة وتوفر الظروف المواتية، يجعل إثارة الطاقات الإنسانية الكامنة ضعيفاً؛ مما يجعل تفاعلها وحراكها في النهاية ضعيفاً.

ونرىٰ أن المنظومة الرمزية الليبرالية توحي للمواطن الغربي بالاندفاع نحو أمرين: تحقيق الاعتراف به من قبل الآخرين، والسيطرة علىٰ الطبيعة. ويمكن تفسير أكثر أنشطة الغربي ـ حتىٰ أعمال الخير ـ من خلال هذين

الأمرين. وهذان الهدفان يمكن لكثير من الناس تحقيقهما؛ فالساسة الكبار والرياضيون والفنانون يشعرون في مرحلة مبكرة أنهم حققوا ما يطمعون إليه من شهرة وثراء وأمن وتقدير؛ مما يجعل إحساسهم بنوع من الفراغ أمراً محتماً. إن الصراع من أجل تحقيق هدف سام يعني وجود مسوِّغات للوجود. وكثير من الناس يموتون وهم واقفون علىٰ وجه الأرض؛ لأنهم فقدوا المبرر لوجودهم. من هنا كانت خشية (نيتشه) الكبرىٰ من انتصار (أسلوب الحياة الأمريكي) الذي يتميز بوجود الوفرة والأمن والحرية وأقصىٰ حدود المتعة؛ حيث إن ذلك سيعني انتهاء الإنسان بمعناه الحقيقي. سينتهي وجوده بتوقف عمله وصراعه. سيختفي العمل الذي ينفي الفرضيات والخطأ، أو بصفة عامة: الذات في مقابل الموضوع[1].

إن الصراع الدائم من أجل تحقيق أهداف بعينها يجعل الإنسان صادقاً مع نفسه، بل إنه لا يجد نفسه، ولا يحسُّ بفعاليته الداخلية إلا من خلاله. لكنَّ هناك شرطين مهمين لنجاح ذلك الصراع في تحقيق أغراضه.

الأول: أن تكون حركة الإنسان اليومية ليست عبارة عن انشغال لا صلة له بداخل الإنسان، بمعنىٰ: أن يكون صراعه عبارة عن استثمار مثمر لطاقاته الداخلية، واستجابة لكينونته الذاتية.

الثاني: شعور الإنسان أن ذلك الصراع يلبي أشواقه الروحية نحو الخلود والاستمرار الأبدي؛ حتىٰ يشعر بأن الجهد الهائل الذي يبذله ليس جهاداً في غير عدو. وبمعنىٰ آخر: أن تكون أهداف صراعه غير قابلة للنفاد والاستنزاف مهما طال الزمن، وعظم العمل في سبيل تحقيقها.

وهذا في تصورنا لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال العبودية لرب العالمين والسعي إلىٰ الفوز برضوانه ودار كرامته!.

هذا المشروع العظيم يستغرق الحياة كلها ـ ولو كانت كعمر نوح ـ

---

(١) نهاية التاريخ: ٢٧٠.

علىٰ نحو يشمل الأنشطة الخيرة كافة، حيث يشعر المرء أنه في حالة من العبودية كلما قام بعمل خيّر، وذلك أكثر من أن يحصىٰ. فالنوم مبكراً من أجل الاستيقاظ قبل الفجر، والابتسام في وجه أخ، وإماطة الأذىٰ عن الطريق، وإغاثة ملهوف، والسعي في حاجة مسلم، والكسب الحلال علىٰ العيال، والتمرين الرياضي لتقوية الجسم، كل ذلك وأشياء أخرىٰ كثيرة أنشطة يومية تعمر الدنيا وتدني المؤمن من الوصول إلىٰ هدفه الأسمىٰ. وهي جميعاً جزء من المشروع العظيم الذي التزم المسلم بأدائه ما دام حياً.

بعض المسلمين يود أن يتوج إنجازه لمشروعه العظيم بالشهادة في سبيل الله ـ تعالىٰ ـ، وبعضهم يحب أن يتوّجه بأن يموت وهو يطلب العلم، علىٰ نحو ما ذكر عن أحد العلماء أنه طلب من ابنه أن يحفّظه أبياتاً من نظم أحد الفنون وهو في سكرات الموت؛ حتىٰ يلقىٰ الله وهو يطلب العلم! وبعضهم توّج مشروعه بأن صبر عن الماء عند الاحتضار ـ كما فعل بعض الصحابة ـ وآثر أخاه به مع شدة حاجته إليه...

والجميل في هذا أن المسلم يفعل كل ذلك وهو يشعر بالغبطة والسرور؛ لأن ذلك يرضي الله ـ تعالىٰ ـ ويشعره بالنجاح في مغالبة المثبطات والملهيات. وهذا هو المشروع الوحيد الذي يستنفد العمر دون أن ينجز؛ ومن ثم فإن صاحبه لا يشعر بشيء من الفراغ، بل يشعر أن المطلوب أكثر من الموجود!.

المشكلة في هذا أن كثيراً من المسلمين انحسر لديه مفهوم العبادة؛ ليقتصر علىٰ بعض الشعائر. وبعضهم لم يحسن توزيع أنشطته بشكل جيد علىٰ كل جوانب مشروعه. ومنهم من فقد الفاعلية المطلوبة لتجسيد المبادئ في واقع ملموس...

وعلىٰ كل حال فإن المسلم هو الإنسان الوحيد القادر اليوم علىٰ الانشغال بمشروع عظيم متناسق مع معتقده ورؤيته الكونية.

٢ ـ الجوهر قبل المظهر:

حين يولد الإنسان يكون مجرداً من أي شيء يضيفه إلىٰ ذاته، أو يتجمل به. ومع هذا فالإسلام يراه بشراً سوياً كامل الحقوق، له حرمة أعظم الرجال شأناً. والدفاع عنه وصونه وحمايته واجب علىٰ من يرعاه؛ لأن الإسلام لا يقوّم الناس علىٰ أساس الشكل أو الوزن أو النّسب أو الرصيد في المصرف... إنما يقوم الإنسان علىٰ أنه إنسان وكفىٰ.

ومع هذا فالإسلام لا يدعو إلىٰ الابتذال والإهمال في المظهر، ولا يرضىٰ عن ذلك، بل حثّ علىٰ لبس النظيف وترجيل الشعر واستعمال الطيب وتنظيم البيئة والأشياء من حولنا. لكن مذهبية الإسلام الحضارية تظهر في مقدار الاهتمام الذي يمنحه لجوهر الإنسان وكينونته المجردة، ومقدار ما يمنحه للأشكال الظاهرية، والفرق بينهما في الحقيقة شاسع. ومع أننا لا نستطيع أن نتعامل مع بعضنا ومع الأشياء من حولنا دون أن نتبادل القيود؛ إلا أن ذاتيتنا يجب أن تبقىٰ حرة في داخلها غير مستعبدة لشيء ما إلا ما كان قيداً أخلاقياً أو نظامياً تفرضه طبيعة الاجتماع الإنساني.

الحضارة الحديثة تفردت بإنتاج أكبر مقدار من الأشياء مع إهمال لإنسانية الإنسان؛ فصار أكثر الناس عبيداً للأشياء! فبعد أن يعاني الإنسان الأمرين في سبيل امتلاكها يعاني مرة أخرىٰ من خوف افتقادها؛ حيث حلّت منه محل الجزء من الكل. وإذا كانت أهمية الإنسان مستمدة مما يملك، فماذا يبقىٰ له إذا خسره؟!.

وقد كان يُظن أن المزيد من الإنتاج والسيطرة علىٰ الطبيعة سيجعل الناس سادة أحراراً؛ لكنهم اكتشفوا أنهم أصبحوا تروساً في آلة (البيروقراطية)[1] وأطرافَ استخدام في عملية (الإنتاج الوافر والاستهلاك العظيم)!.

ولا بد لنا هنا من أن نعرض صورتين متقابلتين متضادتين: إحداهما

---

(١) أفدنا كثيراً مما كتبناه هنا من كتاب: «الإنسان بين الجوهر والمظهر». تأليف إريك فروم، ترجمة سعد زهران.

تصور وضعية الإنسان (الجوهر)، والأخرىٰ تصور وضعية الإنسان (المظهر) لعلنا نجتلي من وراء ذلك شخصية الإنسان المسلم أو المواطن العالمي المأمول. وذلك علىٰ النحو التالي:

* حين تكون السيادة في مجتمع ما لـ(الجوهر) يكون الإنسان هو محوره العام وموضع اعتباره واهتمامه الأول. ومن ثم تتجه كل التشريعات نحو ترقيته وترشيد أفعاله وبلورة ذاته... وحين تكون السيادة لـ(المظهر) فإن الاهتمام ينصب علىٰ تنمية الأشياء وتطويرها وتنظيم تبادلها. ومن ثم نجد ـ علىٰ سبيل المثال ـ أن تعاليم الإسلام تضبط طريقة حيازة الثروة لأن اكتسابها عمل إنساني علىٰ حين تركز حضارة الأشياء علىٰ حيازة الثروة نفسها؛ فالمهم أكثر من أي شيء آخر أن تكون ثرياً وناجحاً!.

* مجتمع (الجوهر) مجتمع تتقارب فيه المسافات بين الناس؛ حيث الجوهر الإنساني يكاد يكون واحداً. وهو ثابت لا يكاد يتقدم أو يتأخر؛ ومن ثم فإن الناس يشعرون أنهم من طينة واحدة. لكن حين يسيطر المظهر؛ فإن الناس لا يُقوّمون بجوهرهم، وإنما بما يملكون. وما يملكه الناس مختلف ومتباين إلىٰ حدود بعيدة. وحين يحدث ذلك تقوم الحواجز بين الناس؛ فتتمزق أواصر المجتمع، ويحل محل الألفة والتعاون أمراض الشعور بالغربة والوحدة والقلق والنزوع إلىٰ التدمير والحسد وحياكة الدسائس والمؤامرات لانتزاع (المتاع) والسيطرة علىٰ الثروات.

* حين يكون الاعتبار الأول لـ(الجوهر) تكثر الألفاظ المعبّرة عن الفعل الذاتي، كأن يقول المرء: أنا أقول، أنا أحب، أنا أرىٰ... وحين تسيطر (المظاهر) يكثر استخدام الأسماء، علىٰ نحو: عندي سيارة، ولي ثوب، وعندي بيت عظيم... وحين شهد الإسلام إقبالاً متميّزاً في زمان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان الرجل من رعيته إذا لقي الرجل يقول له: كم وردك الليلة، وهل أنت صائم؟. وحين سيطرت المظاهر في عهد غيره كان الرجل يسأل الرجل: أين خطت هذا الثوب؟ وماذا أكلت أمس؟ وما هو عشاؤك اليوم؟!.

* حين يسود سلطان الجوهر ينظر الناس إلىٰ الأشياء من حولهم نظرة حفظ ورعاية، حيث بذل الواحد منهم الكثير حتىٰ حصل علىٰ ما يملك. ومن ثم فإنهم يفتخرون بطول استخدامهم للآلة أو الجهاز، علىٰ نحو ما كنا نراه عند الجيل السابق من أبناء المسلمين. أما حين يكون الاعتبار للمظهر فإن الناس يتسابقون في استهلاك الأشياء وإتلافها والتخلص منها، مع أن الواحد منهم قد يكون بذل شيئاً من كرامته في سبيل الحصول عليها، ويصبح الشعار: أنا موجود بقدر ما أملك، وبقدر ما أستهلك؛ فقد حولت الحضارة الحديثة الإنسان إلىٰ رضيع أبدي لا يكف عن الصياح في طلب زجاجة الرضاعة أبداً.

* قانون الجوهر هو العطاء، وقانون المظهر هو الاستحواذ؛ إذ من الصعب توصيف الكينونة؛ لأنها تتعلق بالتجربة. والتجربة الإنسانية ـ مبدئياً ـ لا يمكن وصفها. إنما الذي يمكن وصفه هو شخصيتنا الاجتماعية والذات التي نقدمها للآخرين. ومن ثم فإن أحسن وصف للكينونة هو ما ذكره أحد المفكرين حين قال: عندما يسقط الضوء علىٰ زجاج أزرق فإننا نرىٰ لونه أزرق؛ لأنه يمتصُّ كل الألوان الأخرىٰ ما عدا اللون الأزرق، أي: لا يسمح للألوان الأخرىٰ بالمرور خلاله. ومعنىٰ ذلك أننا نصف هذا الزجاج بالزرقة؛ لأنه لا يحتجز الموجات الزرقاء، أي: أنه يُعرف لا بما يملك، ولكن بما يعطي[1]. وهكذا جوهر الإنسان لا يظهر، ولا يتبلور إلا من خلال العطاء، وعلىٰ مقداره تكون نفاسة ذلك الجوهر.

أما المظاهر فإنها ملك لصاحبها، وهي لا تعطي للآخرين شيئاً، وإنما تورث عندهم نوعاً من الحسرة والدفع نحو التسلق الاجتماعي. وقد يكون صاحبها قد استحوذ عليها عن طريق التبادل أو عن طريق السطو والقهر. إن قانون الجوهر هو قانون العمل، والعمل عطاء. وقانون المظهر هو قانون المال، وقانونه الجمع. وحين تفقد الأمة روح المجانية والتبرع تكون قد فقدت ركناً ركيناً من أركان مقوماتها!.

---

(١) السابق: ٩٢.

* من سمات الإنسان (الجوهر) الاستقلالية والحرية وحضور العقل النقدي والنمو والتدفق وتجاوز سجن ذاته المعزولة والشغف والإنصات. وهي صفات تدل على شيء واحد هو (عظم الذاتية) وتكاملها وقلة افتقارها إلى الإضافات و(الرتوش) الخارجية. أما الإنسان (المظهر) فهو يفقد غزارة الشخصية. ومن ثم فإن تشابهه مع الآخرين هو الطابع المهيمن عليه. وإذا ما تجاوزت الطلاء الخارجي وجدت نفسك أمام إنسان بدائي في فكره ومشاعره وتطلعاته!.

كل ما ذكرناه من تهميش الجوهر لصالح المظهر في إنسان العصر الحديث نتيجة طبيعية لهيمنة حضارة معدومة الشفافية ومولعة بالقوة على حساب الجمال، وإبداع سلطة القهر والابتزاز، وتهميش سلطة الكفاءة والأهلية التي تشع عن صاحبها دون أمر أو نهي.

٣ ـ الوسطية:

كل ما يبدو لنا بسيطاً هو في الحقيقة مركّب. وكل ما يبدو لنا معزولاً منفصلاً هو في الحقيقة جزء من شيء أكبر على نحو ما. وإن هناك علاقات توافق وعلاقات تناقض مبثوثة في هذا الكون، وإن منها ما هو مرئي محسوس، ومنها ما هو خفي محجوب. ومن ثم فإن من المهم للإنسان المسلم أن يكون دقيقاً في حساب أقواله وأفعاله وتحركاته؛ حتى لا تتناقض مع قوى وسنن وتيارات أقوى منها ومخالفة في طبيعتها لها. ومن هنا كان الولوغ في أي شيء واستنزافه إلى نهايته يعني في أحيان كثيرة نوعاً من التجاوز الذي سيدفع ثمنه في نهاية المطاف.

ومن هنا تكرم الله ـ تعالى ـ على هذه الأمة، فجعلها وسطاً حين قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣. ومن المفسرين من ذهب إلى أن معنى (وسطاً) هنا هو (عدولاً). ونحن نأخذ بالقول الآخر.

ويبدو في هذه الوضعية ـ بعد التأمل ـ نوع من التوافق مع طبائع السنن الكونية وقوانين الموجودات. ولعلنا نلمس هنا ثلاثة من أشكال التوسط التي ينبغي أن تتجلىٰ في شخصية المواطن العالمي علىٰ النحو الآتي:

أ ـ ما بين الاندماج والتميز:

تسعىٰ كل المجتمعات إلىٰ أن توجد قدراً كبيراً من التجانس بين مجموع أفرادها علىٰ كل المستويات. وتتولىٰ ذلك كل وسائل التربية والتوجيه والتثقيف وبناء الرأي العام. والإسلام نفسه جعل المسلمين في تجانسهم وتلاحمهم بمثابة الجسد الواحد علىٰ ما هو معروف. ولكن الترابط الجسمي بين جميع الأعضاء لا يلغي وظائفها وتحسسها للواقع والتعامل معه علىٰ نحو كثيراً ما يكون منفرداً. ومن ثم فإن التجربة الاجتماعية أثبتت أن الانسجام بين أفراد المجتمع إذا ما تم بصورة كاملة فإنه سيؤدي إلىٰ تفسخ المجتمع في النهاية. ولذا فإن من الضروري أن يوجد المجتمع نفسه نوعاً من الآليات والأطر المحفِّزة لبعض أعضائه علىٰ أن ينفذ وعيهم إلىٰ الواقع الاجتماعي والتركيبة الاجتماعية علىٰ نحو منفرد؛ حتىٰ يكتشفوا لذلك المجتمع ما فيه من أمراض وعلل ومخاطر، قد تقوضه نهائياً بفعل التغيرات البطيئة غير المرئية؛ إلىٰ جانب الكشف عن وسائل ترقية ذلك المجتمع والنهوض به. ومن هنا فإن التماثل الاجتماعي الكامل خطر، كالتفكك الاجتماعي؛ لأنه سوف يولده، ويؤدي إليه، ولو بعد حين. ولذا نجد الإسلام رسخ في المجتمع الإسلامي مبدأ (الحسبة) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ يستطيع المجتمع المحافظة علىٰ توازنه ونقائه؛ وحتىٰ يستطيع محاصرة أخطائه. وللسبب نفسه استحق أقوام ومجتمعات من بني إسرائيل اللعن بسبب رؤيتهم عوامل الفساد والاضمحلال تنخر في مجتمعهم، ثم لم يحركوا ساكناً؛ حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ

مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾[1]. ونستطيع أن نقول: إن التماثل التام في أي مجتمع ما هو إلا تماثل ظاهري، ثم تظهر التصدعات والانقسامات سنةً لله ماضية؛ ولا سيما حين يكبر المجتمع ويشتد حراكه الاجتماعي أو حين يدخل في أزمة مستحكمة. والإسلام حث المسلم على الارتباط الوثيق بمجتمعه ومحاولة خدمته والدفاع عنه مهما وجد لذلك سبيلاً؛ لكنه ترك له مساحات حرة تتجلى فيها إبداعاته وخصوصياته وهي لا تتطابق بالضرورة لدى جميع الناس؛ لكنها لا تصطدم بالإطار العام، وإنما تكسبه التنوع والثراء. بل إن الإسلام يعلم المسلم أن يكون مستعداً لمقاومة أشكال الانحراف في مجتمعه من باب الحرص عليه أيضاً. ولعل مما يطيل في حياة الحضارة الغربية ـ على الرغم مما فيها من عوامل الانهيار ـ ما يسود عند القوم من روح التصحيح والمراجعة والنقد.

ب ـ ما بين الانغلاق والانفتاح:

من أشكال الوسطية المهمة أيضاً الجمع بين نوع من التأطر ونوع من الانفتاح؛ فالشخصية الإسلامية المطلوبة ليست تلك الشخصية المنغلقة الحسيرة، والساعية إلى التقزم والانزواء؛ كما أنها ليست بتلك العائمة على أمواج التيارات الثقافية العالمية المتدافعة دون أن يكون لها قرار أو خصوصية؛ فهي وسط بين هذا وذاك. ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين آثر اختيار الشطط في هذا الموضوع؛ فمن مقاطع للعالم منكب على نفسه، لا يهجس إلا بالخصوصيات، ولا يحسن التكلم في شيء من شأن العالم الذي نحن جزء منه؛ وما بين مؤثر للانسلاخ عن هويته وتراثه والتسول على فتات ما أسموه بـ(الثقافة العالمية)؛ فباء بخسران المحلية والعالمية في آن واحد!!.

إن الإسلام حوّل العرب إلى جيوش من الفاتحين، وزجّ بهم في ساحات الصراع العالمي، لينقلوا للعالم الرسالة النبوية العظيمة دون خوف

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨، ٧٩.

أو وجل من الذوبان أو الضياع. وأسسوا بذلك حضارة زاهية ونادرة. ولو أنهم آثروا الانكفاء علىٰ أنفسهم لما حصدوا عشر معشار ما حصدوه.

لقد آن للمسلمين أن يفاتحوا العالم بقوة في الشأن العالمي العام من مشكلات التسلح النووي وتلوث البيئة واستنزاف موارد الأرض والانحلال الخلقي والبغي العالمي.... وآن أن نتحدث باسم الإسلام، ونعرض وجهة نظره في كل صقع من الأرض، وعلىٰ كل منبر. لقد مللنا من الحديث مع أنفسنا وحول أنفسنا، وحان وقت الحديث عن أمور أكبر وأوسع ضمن المعادلة التالية: أنطلق من خصوصياتي؛ لأتحدث في أي شيء، وأخاطب الجميع وأنا علىٰ وعي تام بقيمة ما أسمعه!.

جـ ـ اتزان الشخصية:

شخصية الإنسان مكوّنة من جوانب عديدة معروفة؛ لكن أهم ما يحتاج منها إلىٰ موازنة دقيقة هما الجانب العاطفي والجانب العقلي. ومهمة الجانب العاطفي إبقاء الإنسان في حالة من التوتر الحيوي الضروري للعمل والعطاء، وجعله يتواصل مع أسرته ومجتمعه بعلاقات حميمة ودافئة، وجعله يحس بآلام الآخرين، والأضرار التي تنزل بمن حوله...

أما الجانب العقلي فمجاله استخلاص العبر من الماضي ووعي الحاضر والتخطيط للمستقبل، وما يتبع ذلك من عمليات كثيرة....

ومع أن كل إنسان يتمتع بقدر ما من هذا وذاك إلا أن المهم هو نسبة سيطرة كل منهما علىٰ السلوك الشخصي للإنسان. ومن الملاحظ أن الجانب العاطفي لدىٰ الشعوب الصناعية ضعيف[1] وعند الشعوب الأخرىٰ قوي جداً؛ علىٰ حين أن وضعية الجانب العقلي معكوسة. والمطلوب نوع من الوسطية بين الطرفين. فحين يكون الموقف عاطفياً؛ فإن عظمة الرجال لا

---

(١) من الطرف التي يتناقلونها أن إنجليزياً قال: نُتهم نحن الإنجليز ببرود العواطف مع أن ابني حين جاء من الهند صافحته بحرارة!!.

تظهر إلا بالشفافية والتأثر. وقد كان النبي ﷺ يبكي تأثراً علىٰ فقد عزيز أو انفعالاً بمشهد بائس، أو عند تذكر يوم القيامة وأهواله، وكان أصحابه الكرام كذلك. وحين يكون المجال مجال تخطيط أو نقد أو تحليل أو مراجعة فإن القرآن الكريم يعلمنا أن نتعامل مع الأمور بمنتهىٰ (العقلانية) والتجرد والموضوعية. وكلنا يذكر موقف القرآن الكريم من هزيمة أُحد، وموقف أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ عند وفاة الرسول ﷺ ـ حيث اعترف بالأمر، واستشهد علىٰ إمكانه؛ علىٰ حين كان موقف غيره الانهيار أو الانفعال المفرط. إن الانفعال شرط لتفجير القدرة العالية؛ كما أن النضج العقلي شرط لامتلاك الإِرادة الحرة. ولا يستطيع المرء أن يحقق الكثير بدونهما.

٤ ـ إيثار الآجل علىٰ العاجل:

الإِنسان المسلم إنسان مستقبلي من الطراز الأول؛ فهو يضبط حركته اليومية وعواطفه ولسانه وسمعه. . . وفق ما يقتضيه ما يرتقبه من رضوان الله ـ تعالىٰ ـ، فهو يلاحق هدفاً واحداً طول عمره. وقد ظلت أمة الإِسلام تلاحق هدفاً واحداً قرابة ثمانية قرون. وكان ذلك الهدف هو التمكين لدين الله في الأرض ونشر تعاليمه. وهي أطول مدة تلاحق فيها أمة من الأمم هدفاً واحداً. والإِنسان الذي يعطي نفسه كل ما تشتهيه، لا يفكر في الغد أبداً، ولا في الإِتلاف المتدرج الذي يجره لذاته دون أن يدري. وللعاجل إغراؤه الشديد من أي نوع كان؛ لأن التيقن من حصوله والاستمتاع به قطعي مشاهد؛ علىٰ حين أن الآجل يرجىٰ حصوله عن طريق اعتقاد أو أمل. ومن ثم فإن البشرية تعجل إلىٰ اقتناصه كما يسرع الماء إلىٰ الأماكن المنخفضة.

المسلم الحق مرتبط في حركته ـ كما قلنا ـ بالمستقبل البعيد؛ لكن الحركة العامة للأمة اليوم علىٰ المستوىٰ الحضاري ليست كذلك. فنحن منغمسون في إنجاز متطلبات الواقع إلىٰ آذاننا. والتخطيط لمستقبل الأجيال القادمة شبه معدوم؛ ومن ثم فإننا نشعر بنوع من التأزم الدائم نتيجة عدم

قدرتنا علىٰ المجيء قبل الحدث لا بعده. وإذا حدث أن خططنا (توقعنا) كان صبرنا علىٰ التنفيذ ضعيفاً... ونظرنا إلىٰ مآلات الأمور أضعف، مع أن ديننا ـ كما ذكرنا ـ يعلمنا دائماً استشراف المستقبل عن كثب! وما أجمل قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «لا تغبطوا الأحياء إلا علىٰ ما تغبطون عليه الأموات»!. لأن هؤلاء الأحياء صائرون إلىٰ الموت، وستكون النظرة النهائية لهم وفق مصيرهم ذاك! وهذا ضبط عجيب لحركة الواقع ورؤاه بإيقاع المستقبل المنتظَر.

ما لم نتعلم فكرة (الاحتياط) واجتزاء شيء من قوىٰ وخيرات الحاضر لصالح المستقبل؛ فإن المستقبل سيظل أقل بكثير مما نؤمل!.

٥ ـ التشوق إلىٰ اجتراح المجهول:

هذه سمة مهمة من سمات المسلم المنتظر؛ حيث إن من المهم جداً أن نشعر أن ما لدينا من العلم ليس كافياً، وأن حركتنا وحركة العالم من حولنا تستهلك كثيراً من المعلومات والخبرات المتوفرة عندنا. وتعقد مشكلات الحياة يتطلب حلولاً؛ وإلا طحنتنا بمتطلباتها. وبقاء ما حولنا مجهولاً يشكل خطراً كبيراً علينا. لكل هذا ولغيره كان من الصفات المهمة التي علينا أن نتحلىٰ بها التشوق والتطلع إلىٰ المزيد من العلم والمعرفة.

ولعل الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أخبرنا عن ضآلة ما حصلناه من العلم حين قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1] ـ ليغرينا ويحفزنا نحو طلب المزيد منه!. وحين كان الإسلام في حالة إقبال، والحضارة الإسلامية في حالة ازدهار سطّر المسلمون من العجائب في حب العلم واكتشاف المجهول ما لم تسطره أمة أخرىٰ علىٰ ما هو ذائع ومعلوم! وحين تراجع المد الحضاري لدينا تفشت الأمية، وانعدم الاكتشاف، وخبت فينا جذوة حب التطلع والتعلم إلىٰ أدنىٰ حد. وصار التعامل مع المعرفة تعاملًا تجارياً: نقرأ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

لننال الشهادة، ولنحصل علىٰ الوظيفة. فإذا حصلنا علىٰ ما نريد عاد كثير من القراء إلىٰ عوام متنورين ليس أكثر!.

وعلىٰ الرغم من التشجيع وأنواع الجوائز الثقافية الكثيرة المرصودة لتحريك الهمم نحو العلم والبحث؛ فإن الركود الثقافي لدينا شديد! وما لم يرتكز لدينا في (اللاوعي) أن طلب العلم من أعظم ما يتقرب به إلىٰ الله ـ تعالىٰ[1] ـ وما لم نشعر بلذة (وَجَدْتُها) فإن حالة المعرفة ستظل تراوح في ديارنا بين أمية العامة وأمية المثقفين!!.

إن العلم الذي لا يثمر عظم الذاتية، ولا يشحذ الفعالية والشفافية الروحية ليس بعلم. وإن العلم الذي لا يستطيع أن يجهر به صاحبه علىٰ رؤوس الأشهاد، مع الاستعداد للبرهنة عليه والمدافعة عنه ـ هو إلىٰ الظنون والأوهام أقرب.

وفي ختام هذه الملاحظات عن الإنسان المسلم أو المواطن العالمي نود بأن نهمس في أذن القارئ أن الإنسان الناضج المكتمل يحتاج إلىٰ خمسين سنة من التربية والتعليم والصقل والتدريب ورفد الذاتية وركم الخبرات؛ لكن النتائج ستكون حينئذ مذهلة! والله المستعان.

---

(١) كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إذا لقي أبا زرعة المحدث لا يصلي إلا الفريضة؛ لأن ثواب طلب العلم أعظم من صلاة النافلة.

الفضاء الثقافي

لم تنل كلمة في العصر الحديث من التداول والاستخدام ما نالته كلمة (ثقافة) نظراً للأهمية المتزايدة التي منحناها إياها من خلال جعلها القاعدة الأساسية لتشكيل وعينا بذاتنا وبالعالم، ومن خلال مساعدتها لنا علىٰ التعامل مع المشكلات المختلفة عبر مفاهيم ومعايير محددة. إن الثقافة هي التي تترجم نظرة أصحابها إلىٰ الكون والحياة والإِنسان، وهي التي تمكن الفرد من الولوج إلىٰ البعد الإِنساني، والارتفاع علىٰ مقوماته العضوية المحضة. وهذه السيرورة الواسعة لهذه الكلمة كانت سبباً مهماً في غموض مدلولاتها وتنوع استخداماتها تنوعاً جعل تصور معناها من خلال تعريفات محددة أمراً شاقاً. وقد استعرض (كروبير) و(كلاكهوف) ما يزيد علىٰ مئة وستين تعريفاً للثقافة والمفاهيم المرتبطة بها!. وكان في مقدمة تلك التعريفات ما قدّمه (تايلور) في كتابه (الثقافة البدائية) الذي نشره عام ١٨٧١م حيث قال عن الثقافة إنها «ذلك الكل المركّب من المعارف والعقائد والفن والأخلاق والقانون والأعراف، وكل ما اكتسبه الإِنسان باعتباره عضواً في مجتمع ما»[(١)]. وهذا التعريف هو المرجع الأساسي لكل التعريفات التي جاءت بعده. ومنطوق هذا التعريف مؤداه أن في كل أرض ثقافتها، وأن الناس جميعاً مثقفون. ولا يغيب عن البال أن هناك مدلولات أخرىٰ لهذه الكلمة تغاير هذا التعريف في قليل أو كثير، من نحو قولهم: إن الثقافة تطلق ويراد بها نوع من تجاوز الطبيعة؛ حيث تصبح الثقافة عملية تهذيب، أو ما يسميه العرب بـ(الأدب)؛ وما أطلق عليه كتاب القرن السادس عشر في

---

(١) انظر دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية: ٦٦.

أوربا: تدريب العقل، ووصفه (فولتير) بتكوين الروح. وبهذا الاعتبار تطلق كلمة (مثقف) علىٰ من نال حظاً متميزاً من العلم والمعرفة. وقد تستخدم كلمة ثقافة لتمييز ميادين ذهنية ومادية مختلفة؛ فيقال: ثقافة اقتصادية وثقافة بدنية[1].

المنظومات البنائية للثقافة:

من خلال تعريف (تايلور) والتعريفات التي نهجت منهجه يمكننا حصر العناصر والمنظومات المكوّنة للثقافة علىٰ النحو التالي:

١ ـ منظومات التفكير والتمثلات. وتضم مجموع التصورات والرموز التي يستعملها الأفراد والمجموعات داخل ثقافة معينة للتعرف علىٰ أنفسهم وعلىٰ العالم من حولهم، والتي يوظفونها بالتالي في إنتاج المعرفة وإخصابها.

٢ ـ منظومات المعايير. وتشمل كل ما يتعلق بالقيم الدينية والأخلاقية والجمالية التي يستند إليها الناس داخل ثقافة معينة في الحكم علىٰ الأفعال والسلوك.

٣ ـ منظومات التعبير. وتشمل الكيفيات المادية والصورية (الرمزية) التي يتم بها الإفصاح عن التصورات والقيم والتعبير عن الإحساسات والأفكار.

٤ ـ منظومات العمل. وتشمل الوسائط التقنية التي تمكن من السيطرة بصورة ملائمة وبدرجة ما علىٰ الوسط الذي يعيش فيه الناس داخل ثقافة معينة[2]. ويخرج بعض المفكرين ما يتعلق بمنظومات العمل والتقنية من مكونات الثقافة لتكون معطياتها في النهاية متطابقة مع المنظومات الأساسية الكبرىٰ: الحق والخير والجمال. ولا ريب في أن الناس لا يتعاملون مع

---

(١) اغتيال العقل: ٨٢.

(٢) من مقال للدكتور محمد عابد الجابري منشور في جريدة الشرق الأوسط في ٢٥/٥/١٩٩٤م. وانظر أيضاً دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية: ٨٩ وما بعدها.

مقومات ثقافتهم معاملة واحدة؛ ففي المنظومات الثقافية ما يحتل موقع المركز حيث يكون الشعور والتمسك به قوياً للغاية، كما هو الشأن في القيم الدينية والخلقية. ومنها ما يعيش علىٰ هامش الثقافة، ويكون التخلي عنه يسيراً، ككل ما يتعلق بأشكال (الفلوكور)، وما يمس العادات والتقاليد من نحو ما يتصل بطريقة اللباس والأكل والشرب والمناسبات والأعياد... وهذا الجزء من الثقافة لا يخلو منه شبر من الأرض؛ ومن ثم فإن تميز الأمة عن طريقه لا يعني الكثير؛ حيث يمكن لهذه الأجزاء الهشّة من الثقافة أن تظل دون معنىٰ ما لم تجد الثقافة الكبرىٰ التي تبث فيها روحاً جديداً، وتعيد تثميرها في كل أشمل. ونظراً لهشاشة مركز (الفلوكور) يرىٰ بعض المفكرين وجود نوع من الفرق بينه وبين الثقافة؛ حيث يعد (الفلوكور) تعبيراً عن التعدد اللامتناهي لأشكال وصور تجسد الحياة الثقافية للشعوب حسب الأقاليم علىٰ مستوىٰ الاستهلاك وتربية الحسّ الشعبي البسيط. إنه لا يشكل ثقافة في حد ذاته، أي قوة تبث الروح في الجسد الجامد. علىٰ حين أن جوهر الثقافة يكمن في فاعليتها التنظيمية التي تمزج بين عناصر ومواد متفرقة ومتميزة وتؤلف بينها، وتعطيها روحاً ومعنىٰ بما تقدمه لها من قيم ملهمة، فتبعث فيها الحركة[1].

وإدراك هذه المراتبية بين مكونات الثقافة مهم جداً في موقفين: موقف المحافظة علىٰ ثقافتنا الإسلامية وتنميتها وبث الحيوية فيها من خلال العناية الفائقة بعناصرها الجوهرية والأساسية. والموقف من التغير الثقافي حيث لا ينبغي أن نتصلب حيال ما يؤدي إلىٰ تغيير ما يمس حدوديات الثقافة وعناصرها الرخوة، وننشغل بذلك عما يستوجبه الدفع عن عمد الثقافة وقيمها الكبرىٰ وصونها عن التبدل والانهيار.

مستويات الثقافة:

ليس من السهل علىٰ أفراد المجتمعات أن يحيطوا بكل المفردات

(١) نقد السياسة: ٢٤١، ٢٤٢.

الثقافية السائدة عندهم، ويتمثلوها تمثلاً كاملاً؛ فهناك في الثقافة أجزاء ومستويات غير شفافة يصعب اختراقها، واجتراحها بالكلية. ومن ثم فإن هضم الناس لثقافتهم سيظل متفاوتاً بداهة. ولذا فإن المستويات التي تشخص الثقافة في أذهان أصحابها وأفكارهم كثيرة وعديدة؛ لكن الذي يهمنا تسليط بعض الضوء عليه مستويان هامان هما: الثقافة العليا والثقافة الشعبية.

ونعني بالثقافة العليا تلك الثقافة التي لا تكتسب مجاناً عن طريق المعايشة اليومية ومجرد الانتماء إلىٰ جماعة ما؛ وإنما تلك التي يتطلب الاستحواذ عليها نوعاً من التعليم والتدريب الخاصين من خلال القراءة والحوار والمقارنة والممارسة، أما الثقافة الشعبية فهي تلك التي يتشبع بها الفرد من خلال معايشته اليومية لجماعته ومجتمعه بطريقة مجانية سهلة وغير واعية. وقد صرنا نطلق اليوم كلمة (مثقف) علىٰ من نظن أنه من حاملي الثقافة العليا أو ثقافة النخبة ومنتجيها. وتتسم الثقافة العليا بوعيها بذاتها؛ فطريقة اكتسابها تخضعها للمرور بالوعي الإنساني، ومن ثم فإنه يجعلها تمر بنوع من المساءلة حول أصولها وتكويناتها ومنطقيتها ونفعها. علىٰ حين أن اكتساب الثقافة الشعبية يتم بطريقة غير واعية، تماماً كما تنتقل اللغات من السلف إلىٰ الخلف، وتتطور بطريقة لاشعورية، ودون تدقيق مما يجعلها لا تُعنىٰ بالاتساق المنطقي، ولا بالنفعية المتوخاة من وراء تجسيدها في حركة وسلوك يومي.

وعلىٰ حين تميل الثقافة العليا إلىٰ أن تكون معقّدة؛ لانبثاقها من نظم ومعارف متنوعة ومنتمية إلىٰ حقول شتىٰ داخلية وخارجية، تميل الثقافة الشعبية إلىٰ أن تكون بسيطة تمكن كل أفراد المجتمع من تمثلها دون عناء ولا تكلفة.

وإذا كانت وظيفة الثقافة العليا هي تنظيم المجتمع وحل تناقضاته وبناء شخصيته المستقلة بوسائل (صناعية) فإن مهمة الثقافة الشعبية تحقيق التواصل بين أبنائها وتحقيق التجانس والتماثل إلىٰ أقصىٰ حد ممكن.

ومن خلال هاتين الوظيفتين قد يقع التعارض بين الثقافتين ما لم تبذل جهود خاصة للرقي بالثقافة الشعبية لتصبح أكثر منطقية وأكثر وعياً بذاتها، وما لم يتم جعل ثقافة النخبة تحقق الانتماء للجماعة، وتتصدىٰ لحل مشكلاتها ومعاناتها بدل الانشغال بتأسيس السلطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية[1].

الثقافة العليا واختراق الهوية:

وعي الثقافة العليا بذاتها كثيراً ما يكون نتيجة وعيها بغيرها، وهذا يجعلها بوابة الاحتكاك بالثقافات الأخرىٰ؛ فهي التي تمثل الثقافة العامة لأمتها أمام الآخرين، وهي رأس الحربة في أوان المواجهة، كما أنها الدريئة التي تتلقىٰ كل الضغوطات الثقافية الموجهة إلىٰ أصحابها. ومن هنا فإن الاختراق الثقافي حينما يقع فإنما يقع من جهتها وليس ذلك بسبب الاحتكاك فحسب؛ بل لأن طريقة فهمها عبر منطقية محدودة يسهل اختراقها. علىٰ حين أن الثقافة الشعبية تميل إلىٰ أن تكون رمزية هلامية أكثر من أي شيء آخر؛ مما يجعل اختراقها لا يمثل قيمة كبرىٰ، كما أنه ليس باليسير.

وحين كانت الثقافة الإسلامية تخترق الثقافات الأخرىٰ، وتضغط علىٰ رمزيتها ومنظوماتها كانت الثقافة العليا هي التي تضغط وتجتاح. كما أن اختراق الثقافة الغربية لثقافات العالم الثالث، وتحويلها إلىٰ محليات تم بفعل اختراق الثقافة العليا أيضاً. ومهما قيل عن التمايز بين ثقافة النخبة وثقافة العامة؛ فإن الصحيح أنهما يمثلان مستويين لثقافة واحدة، وبينهما من نقاط اللقاء أكثر مما بينهما من خطوط التقاطع؛ لكن دخول أية ثقافة في مرحلة العطالة والعجز عن إفراز المدنيات وإبداع النظم الحضارية ـ يجعلها تذبل وتتصدع داخلياً. وحين يقع التصدع فإن الشق الأوسع سيكون بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية.

---

(١) اغتيال العقل: ١٠٢.

ولم يقتصر الحال لدينا علىٰ دق إسفين بين النخبة والعامة، وإنما تعداه إلىٰ شطر ذوي الثقافة العليا في المجتمعات الإسلامية إلىٰ شطرين: شطر يحاول المحافظة علىٰ الهوية وإحياء دور قيم الإسلام ونظمه في توجيه الحياة، وقسم يحاول اللحاق بالغرب والتماثل معه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً. ولا نريد أن نبحث عن بداية ذلك ولا كيفياته؛ ولكن نريد أن نقول: إن ما حدث كان بصورة أساسية نتيجة عزل الثقافة الإسلامية عن تيار الحضارة.

وحين تضعف فاعلية ثقافة في تجديد نفسها وتمدين مجتمعاتها؛ فإنها تفقد الجاذبية المحلية والعالمية. وعلىٰ العكس من ذلك فإن أية ثقافة ـ بإمكانها أن تلفت الانتباه، وأن تضغط علىٰ الثقافات المغايرة إذا ما نجح أهلها في تشييد صرح حضاري شامخ. وذلك لأن الثقافة عبارة عن نظام معقد جداً. وهذا التعقيد يجعل العلاقة بين عناصره منطوية علىٰ تناقضات وتوازنات كثيرة جداً. وهذه وتلك تسمح للثقافة بنوع من الحركة والتغير في المضامين مهما بدا الإطار الخارجي ثابتاً ومستقراً.

والذي تفقده ثقافتنا اليوم هو بالضبط الفاعلية التنظيمية التي تمزج بين الأجزاء الثقافية العليا والشعبية الأصيلة والوافدة، وتحولها إلىٰ كل متجانس، يبدع الحضارة، ويؤسس المدنية. وهذه الفاعلية لا يمكن اكتسابها من خلال إدخال قيم وعناصر ثقافية جديدة؛ وإنما بإحياء قيمنا الأصيلة، وحل التناقضات الكبرىٰ التي زرعتها الثقافة الغربية المهيمنة، وإذكاء جذوة الانطلاقة الحضارية الكبرىٰ التي نتطلع إليها.

وظائف الثقافة:

نطلق كلمة (العقل الأول) ونريد بها مجموع الإمكانات الذهنية الفطرية التي نستخدمها في استيعاب ما حولنا ونقده وتوليد الأفكار الجديدة. . .

وهذه الإمكانات وزعها الله ـ سبحانه ـ علىٰ الأفراد بشكل متفاوت ـ لإتمام الابتلاء ـ؛ لكنه ـ سبحانه ـ وزعها علىٰ الشعوب بشكل شبه متساو.

أما (العقل الثاني) فإنه عقل مكتسب ـ بكل ما تعنيه الكلمة من معنىٰ ـ والمصدر الأساسي الفذ لتكوينه هو المعطيات الثقافية المتنوعة التي يكتسبها الفرد من البيئة التي يعيش فيها. ونوعيات هذه المعطيات هي التي تشكل نوعية المفاهيم الفكرية، وتحدد مدىٰ قدرتها علىٰ تمثل الواقع واستشفاف المستقبل والطرائق التي يتم بها كل ذلك. ومع أن العلم هو أداة الوصل بين الحضارات وناقل الإبداعات ومستودعها؛ إلا أن المدنية لا تنشأ إلا من ذخيرة ثقافة، ومن تراث حي، أي: من ميراث مشترك روحي واعتقادي ورمزي، يكوّن رأس المال والخميرة الأساسية لكل نهضة أو تحول اجتماعي. وهذا موجز لوظائف الثقافة نسوقه في المفردات التالية:

١ ـ تمكين الفرد ـ بغض النظر عن موقعه الاجتماعي ـ من الاستفادة من المعلومات والمعارف الموجودة في بيئته وعصره؛ من أجل تحسين شروطه ورفع قدرته علىٰ التحكم بظروفه.

٢ ـ تمكين الفرد والجماعة من التبادل والتواصل فيما بينهم. ويستدعي هذا التواصل وجود منظومات لغوية ومفاهيم ومعاني وقيم ودلالات ورموز وأهداف مشتركة.

٣ ـ تمكين الأفراد من الإبداع والبحث بشكل دائم عن حلول أصيلة وجديدة للمشاكل الطارئة. وتقاس قوة الثقافة وحيويتها بقدرتها علىٰ زرع روح المبادرة وتحجيم روح التقليد للآخرين من أبناء الثقافة وغيرهم.

٤ ـ تمكين الفرد من تحقيق ذاتيته. وتعني الذاتية هنا القدرة علىٰ بناء علاقات إيجابية مع الآخرين، ومن خلالهم مع الواقع والتاريخ والحضارة[1].

ويمكن اختصار كل ذلك بالقول: إن الثقافة تكتسب أهميتها البالغة من كونها النبع الثر لتكوين الشخصية المستقلة المتميزة علىٰ مستوىٰ الأمة

(١) اغتيال العقل: ٣٣٠. وانظر أيضاً التعليم والثقافة: ٢٢١.

والفرد. إن الثقافة الحية المعافاة تستطيع أن تصوغ ذواتنا علىٰ نحو يمكننا من إدراك التحديات المعاصرة؛ كما يجعلنا في الموضع الصحيح والمناسب للاستجابة لها. وإن الثقافة المريضة لا يمكن أن تنتج إلا التخلف والاضمحلال والانشقاق والنزاع.

تأزمنا الثقافي:

قال أحدهم: ما الدليل علىٰ أن تربيتنا في القرون الأخيرة لم تكن صحيحة؟ فأجابه آخر: الدليل هو الواقع الذي أفرزته تلك التربية!. ونحن الآن نجيب بالجواب عينه؛ فالتخلف الحضاري الذي تعاني منه الأمة علىٰ الصعيد المعنوي والمادي هو المؤشر الدقيق إلىٰ أن هناك خللاً ثقافياً كبيراً نعاني منه.

والعلاقة بين الخلل الثقافي والتخلف الحضاري جدلية؛ حيث يؤدي التخلف ذاته إلىٰ مزيد من إرباك الثقافة وسحب الثقة منها.

ونحن لا نريد الإفاضة في هذا الموضوع؛ فقد كثر طرْقه؛ لكن نود أن نورد بعض الإشارات السريعة إلىٰ مظاهر الأزمة، وإلىٰ بعض الحلول التي اتجهنا إليها؛ لكنها صارت جزءاً من الأزمة، وذلك عبر المفردات التالية:

١ ـ في ظل الاتصال الكوني الهائل لم يعد بإمكان أحد أن ينعزل. ومن الواضح أن الثقافة والحضارة الغربيتين تضغطان بقوة علىٰ كل ثقافات العالم الثالث. وهما لا تكتفيان بمجرد التأثير، وإنما تسعيان إلىٰ تفكيك كل الثقافات الأخرىٰ والحلول محلها. ونظراً للتناقض التام بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية للوجود والحياة؛ فإن كثيراً من المسلمين يقف حيران ممزقاً بين مطلب الانتماء إلىٰ هويته ومطلب الاندماج في الحضارة المعاصرة. والمسلك الوسط يحتاج إلىٰ نوع من الاجتهاد والأهلية الثقافية. وهذا ما يفتقده كثيرون.

٢ ـ من خلال واقع المسلمين المؤلم انصرف كثير من المثقفين لدينا

إلىٰ التشبع بالثقافة الغربية مع جهلهم المفرط بالثقافة الإسلامية. وجعلوا يعالجون كل قضايا الأمة من منظور غربي بحت؛ مما أوجد لدينا نوعاً من الصراع الثقافي علىٰ مستوىٰ النخبة. وكان موقف أولئك بمثابة الاستمرار لجهود المستشرقين في تشويه الإسلام ورموزه وأحكامه وتاريخه[1].

٣ ـ حين تراجع المد الحضاري الإسلامي، وتسلط الصليبيون علىٰ كثير من بقاع العالم الإسلامي من الغرب، والتتار من الشرق، جمدت العلوم الإسلامية، وصار التأليف تشويهاً أكثر من أن يكون إثراءً وإعداداً لتمكين الدين ونظمه في حياة الناس. وورثنا ذلك كله، ولم نقم بواجبنا في إذكاء جذوة الاجتهاد والإبداع؛ وإنما أخذ كثير من الناشطين منا ينسجون علىٰ المنوال نفسه الذي نسج عليه المؤلفون في عصور التدهور الحضاري.

٤ ـ الإنتاج الحضاري العالمي هو وحده القادر علىٰ تحويل (الثقافة) من ثقافة محلية إلىٰ ثقافة عالمية. وضمور الإنتاج الحضاري لدينا جعل الثقافة الإسلامية ثقافة محلية. وكانت نتيجة ذلك عدم القدرة علىٰ الحفاظ علىٰ خصوصيتنا الثقافية؛ لأن مما شرطه عصر الاتصال الكوني الذي نعيشه أن الثقافة التي لا تصبح عالمية، لا تستطيع المحافظة علىٰ خصوصيتها. كما أن ضعف الإنتاج الحضاري عاد بالضرر علىٰ المنظومات الثقافية لدينا، وجعل كثيراً من النخبة يتجهون شطر المغرب وشطر المشرق يبحثون عن ثقافة حية فاعلة منظمة لشئون الحياة.

٥ ـ انفتاحنا علىٰ الغرب لم يتم علىٰ أساس التلمذة ـ كما فعلت اليابان مثلاً ـ والاستفادة من الخبرات والتجارب بمقدار ما كان انفتاح انبهار واستهلاك.

ومن المعروف أن المستوردات الاستهلاكية لا يُدفع ثمنها المال وحده وإنما الإقرار والتسليم بالعجز عن صنع المثيل، والإقرار بعظمة الثقافة

---

(١) انظر أزمة المثقفين تجاه الإسلام: ٤٩ وما بعدها.

والرمزيات التي هيأت الأجواء وأخرجت المبدعين والصناع لتلك المستهلكات.

٦ ـ لجأ بعض المثقفين لدينا إلىٰ (التلفيق) بين القيم الإسلامية والغربية لحل التناقضات بينهما. وكان هذا شيئاً سيئاً للغاية؛ لأنه شوّه بعض المبادئ والأسس الثقافية لدينا، وصوّر معطيات الثقافة الغربية علىٰ أنها ثوابت مستقرة؛ علىٰ حين أنها معطيات سيرورة حضارية لانهائية. وكانت النتيجة طمس المشكلة بدل حلها! كما كان في ذلك نوع من صرف الأذهان عن ضرورة إبداع حلول جديدة تقوم علىٰ أسسنا وثوابتنا، وتستفيد من خبرة الآخرين.

٧ ـ لجأ كثير من الخيرين إلىٰ الماضي للبحث فيه عن حلول لأزماتنا الحاضرة.

ولم نستفد من ذلك سوىٰ الشعور بأنه كان لنا ماض مجيد، وأنه بالإمكان تكرار التجربة. أما ما كان يؤمل من وجود حلول جاهزة في التراث فإنه جاء مخيباً للآمال. وكانت النتائج مذهلة لو أن تلك الجهود التي بذلت في ذلك اتجهت نحو استنباط منهج محدّد لبناء ثقافة وحضارة مناسبتين لمعتقداتنا من خلال النظر في نصوص الكتاب والسنّة، ومن خلال استجلاء شروط الانطلاق الحضاري والبحث في معوّقاته.

٨ ـ من أكبر مظاهر أزمتنا ضعف فاعلية ثقافتنا في تجسير الفجوة بين أفكارنا وسلوكنا علىٰ نحو ما نجده في حياة السلف. وعالجنا ضعف الفاعلية ذاك بالحث علىٰ العلم وتنظيم الوقت وإقامة المصانع، بدل أن نفجر في أبنائنا روح العطاء والمجانية والتضحية والدأب، وبدل بحث أسباب الموقف السلبي الذي يتخذه المسلم من المواعظ التي تلقىٰ عليه بمناسبة وبغير مناسبة!.

٩ ـ تحولت الأفكار النهضوية التي انبعثت من أكثر من قرن إلىٰ أفكار حداثية.

والفكر النهضوي ينطلق من الثقة بقدرة الوعي الإسلامي والمنظومات الإسلامية المختلفة على إبداع الحلول لكل مشكلة طارئة بطريقة جديدة. أما الحداثة فهي عبارة عن النقل العشوائي لكل قيم الآخرين ومنتجاتهم دون رقابة أو تمييز أو تعديل. وكانت النتيجة مزيداً من الصراع الثقافي واستهلاك طاقات الأمة في جدل فارغ وتحطيم كل بنيات مجتمعاتنا المدنية في سبيل المعاصرة التي لم تحصل، وإنما الذي حصل هو الفساد والانحدار نحو الهمجية في ميادين كثيرة!.

١٠ ـ من مهام فاعلية الثقافة الدمج بين الثنائيات على نحو يولد من تناقضاتها طاقات للحركة والتجدد، ويجعلها تثمر في ظلال قانون (تكامل التناقض). وبدل أن تفنى الثنائيات من خلال إجهاض بعضها بعضاً تصبح مصدراً للتنوع في إطار الوحدة. وحين تنعدم الفاعلية الثقافية، وتضعف قدرتها على الدمج في نظم أشمل تكون الثنائيات مصدراً لحروب ثقافية واجتماعية واقتصادية. ولذا فإن الأمة تعاني أشد المعاناة من ثنائيات المدن والقرى، والفقر والغنى، والأمية والقراءة، والمدارس المدنية والمدارس الشرعية، والذين لا يعرفون عن الواقع شيئاً والذين لا يعرفون عن التراث أي شيء، والمتخصصين في العلوم التطبيقية والمتخصصين في العلوم الإنسانية، ومن الموقف السديد تجاه الانفتاح والانغلاق، والثبات والتحول، والتجذر والتجدد... وصار العطاء الثقافي لدينا في نهاية الأمر ليس ثوباً يزين، ويستر؛ وإنما كومة من الخيوط المكدّسة، ليس أكثر!.

١١ ـ عند الإنسان أشواق فطرية إلى التعامل مع الوجود والكائنات كافة من خلال إطار مرجعي، يمنحه شيئاً من المعلومات اليقينية عنها. وقد أدى ضعف انتشار العلم والعقائد الصحيحة إلى أن تنشط (المخيلة الشعبية) في سد الفراغ وتوفير بعض الأحاسيس والمقولات التي تكون بديلاً عن ذلك الإطار. فانتشر في بلاد المسلمين ما لا يحصى من البدع والخرافات والأساطير، ولجأ كثير من الناس إلى الدجالين والمنجمين والسحرة في حل مشكلاتهم والكيد لبعضهم بعضاً. كما صار الناس يصارعون الأشباح

والعفاريت الموهومة، ويخافون منها. وكثر أدعياء المعرفة بالغيب ومعرفة الحقائق. . . وكانت محصلة كل ذلك عقلية إسلامية مشوّهة وغير قادرة علىٰ استيعاب الواقع وإبصار القوىٰ الحقيقية الفاعلة فيه من خلال قانون السببية الذي وجّهنا إلىٰ التعامل مع الكون والأحداث علىٰ أساسه.

هذه بعض مظاهر أزمتنا الثقافية التي تحتاج منّا إلىٰ الكثير من العناية والاهتمام والبحث وإبداع الحلول لها بغية تجاوزها والاتجاه نحو تحقيق أهدافنا العظمىٰ.

ثقافة البناء:

تمثل الثقافة لأي مجتمع الفضاء الذي تتنفس فيه آمالها، وتتحدد به أهدافها؛ كما تمثل القلعة التي يلجأ إليها الناس عند الأزمات، والأسلحة التي يستخدمونها في التعامل مع كل جديد مُحيّر أو صد عدوان مدمر. كما تمثل الخلفية الثرة التي تمدنا بكل أسباب استيعاب الواقع ونقده وتجاوزه.

وإذا كانت الثقافة تستحوذ علىٰ كل هذه الوظائف؛ فإن من واجبنا أن نعيد النظر كرة بعد كرة في تمفصلات ثقافتنا ومحكاتها النهائية، وأن نتفحص الجوانب المشرقة والمعطوبة فيها بغية تشكيل الخميرة الجيدة التي نستنبت فيها ما نحتاجه من همة وطاقة لإعادة أمة الإسلام إلىٰ موقعها الصحيح، وتمكينها من استعادة وظيفتها في هداية البشرية وقيادتها، وتقديم الحلول للوجود الإنساني الذي بدأ يستنفد كل إمكانات الحل لمشكلاته المتصاعدة. وأمة ترنو إلىٰ الاضطلاع بهذه المهمات مطالبة بأن تعمل الكثير الكثير في سبيل بعث الروح في ثقافتها وتصحيح مسارها وغربلتها من الشوائب التي خالطتها مع تعاقب الأيام والليالي.

ونحن لا نستطيع هنا أن نفصل القول في السمات المطلوبة لثقافة الانطلاق والنهوض؛ فذاك أكبر بكثير من أن يكون فصلاً من كتاب أو كتاباً في سلسلة. وإنما نريد بيان بعض الملامح للثقافة البانية علىٰ أمل التوسع في ذلك في قابل الأيام، إذا هدىٰ الله ـ تعالىٰ ـ وأعان.

ويمكن أن نوجز ما نراه من ذلك في الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ ثقافة مبدعة:

كما ذكرنا سابقاً تعاني الثقافة الإِسلامية من ضغوط شديدة من قِبَل الثقافات المبدعة للحضارة الحديثة. وحيال هذا الموضوع اتجه أكثر المثقفين لدينا إلىٰ إيجاد نوع من التكيف بين الثقافة الإِسلامية والثقافة الغربية. وأخذ ذلك التكيف أشكالاً عديدة، تتراوح بين إلغاء أجزاء كثيرة من ثقافتنا وبين التأصيل الإِسلامي للعلوم. وهذه الحلول تنبع من أن ما نحاول التوافق معه ثابت ومستقر؛ كما أنها تعني أن ما استخلصناه من معطيات ومفاهيم من تراثنا وحضارتنا نهائي. ومن ثم فإننا نحاول التقريب بين هذين النموذجين. وهذان الافتراضان مخالفان للصواب جميعاً. إن الثقافة بما هي كلّ معقد وخلاصة لأصول وظروف وتطورات ورمزيات وتحديات وتوازنات كثيرة ومتنوعة لا تقبل التلفيق والتدجين علىٰ مستوىٰ بناها وتوازناتها العميقة. وما يراد اليوم من تأويل التراث ونقده ومحاكمته إلىٰ ثقافة أخرىٰ غير ناجزة يعود علىٰ جوهر ثقافتنا بالضرر. نعم إن الثقافة تقبل من الوافدات ما يمس خبراتها السطحية، وما ينشط وظائفها، أو يوظف مبادئها العليا[١]. أما ما عدا ذلك فإن نقله لن ينفع، وكثيراً ما يضر!

وكثير من جهود التأصيل الإِسلامي للعلوم رمزي الفائدة. فما الذي سوف نستفيده علىٰ صعيد استعادة سيادتنا وحل مشكلاتنا إذا علمنا ـ مثلاً ـ أن المسلمين هم الذين أسسوا علم المحاسبة، أو اكتشفوا الدورة الدموية! إن الذي سوف نستفيده هو الشعور بعظمة الماضي، وإمكانية النهوض مرة أخرىٰ. ومنبع الحاجة إلىٰ هذين الشعورين هو عقدة النقص التي نعاني منها. مع أننا نعتقد أن ما قمنا به من تأكيدات علىٰ عظمة الماضي ينبغي أن يكون كافياً لتجاوز هذه المرحلة والانتقال إلىٰ مرحلة جديدة، هي إبداع جديد، يمزج خبرات الماضي ومعطيات الحاضر علىٰ مستوىٰ الإِنشاء

---

(١) اغتيال العقل: ٣٣٠.

والتنفيذ لا علىٰ مستوىٰ التنظير. إن جعل التوفيق أو التأصيل سبيلاً لحل التناقضات سيجعلنا في حالة من التبعية الدائمة؛ مع قلة جدوىٰ ذلك. وهناك تجارب عديدة قامت علىٰ الإبداع، وأخرىٰ قامت علىٰ التوفيق والاستعارة. وكانت نتيجة ذلك نجاح الإبداع وتردي التلفيق. ونجد نموذجين لذلك في اليابان وكوريا الجنوبية من جهة ومصر والفلبين من جهة أخرىٰ.

وليس المقصود بالإبداع عدم الاستفادة من خبرات الماضي أو الغرب، ولا ترك نقد الماضي ونقد الغرب؛ لكن المقصود أننا ندمج كل ذلك في كل واحد ومنهجية واحدة ضمن الإطار الثقافي المستخلص من المنهج الرباني وخصوصياتنا الثقافية والحضارية. وحين ننقد التراث أو الحضارة المادية فإننا نفعل ذلك متحاكمين إلىٰ الإطار نفسه.

إن الإبداع يعني عدم وجود حلول كاملة لمشكلاتنا في الماضي أو عند الغرب، كما يعني عدم الرضا عن المعطيات الحالية والظروف المعاشة. وهذا وذاك يدفعان بنا دفعاً نحو إنتاج صور وصيغ وفعاليات ثقافية جديدة، تترجم خصوصياتنا، وتخدم مصالحنا وطموحاتنا، وتعطي في الوقت نفسه مُثُلاً ونماذج عالمية يستفيد منها الآخرون.

٢ ـ ثقافة عملية:

كان القرآن الكريم أول من أرسىٰ قواعد المنهج التجريبي قبل أربعة عشر قرناً. وبفضل ذلك استطاعت الثقافة الإسلامية إنجاز الكثير من السيطرة علىٰ الطبيعة واكتشاف القوانين الكونية وتصنيع المواد الخام.

وحين تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية القائمة علىٰ احتقار العمل والصنائع والتجريب، والاحتفاء بالفكر والتنظير، أخذ المسلمون يبتعدون شيئاً فشيئاً عن محاورة الطبيعة، وصاروا يمسّونها بأطراف أصابعهم، وبما يحقق الحد الأدنىٰ من الضروريات المعاشية. واكتفوا بالتنظير وتمثل المشكلات تمثلاً ذهنياً وحلها عن طريق الخيال والافتراض والحدس، بعيداً

عن الإحصاء واستقراء المعلومات وبحث الإمكانات وإجراء التجارب. وما زالت لدينا شواهد لا تحصىٰ علىٰ استمرار ذلك إلىٰ يوم الناس هذا!!.

ونعني بالعملية هنا نوعاً من التطابق بين أفكارنا وسلوكاتنا وبرامجنا. وذلك يعني استثمار كل المعطيات المعنوية والمادية في تحسين شروط الواقع، وتحقيق أكبر مردود ممكن لأنشطتنا المختلفة وفق أصولنا ومناهجنا.

والعملية لا تترسخ في الثقافة إلا من خلال الشعور بالأضرار البالغة التي تترتب علىٰ الأفكار والأقوال والأطروحات التي تصعب ترجمتها إلىٰ شيء ناجز علىٰ الأرض؛ أو تلك التي تستنزف طاقاتنا وإمكاناتنا دون أن تعود علينا بما يكافئ ذلك من الفائدة والنفع؛ مما يؤدي في النهاية إلىٰ تردي الواقع وقساوة شروط حل مشكلاته والحركة فيه.

إن شعار العملية يتكثف في المقولة الذائعة: (دعونا نلمس). وذلك في محاولة لجعل النتائج والمحصلات النهائية معياراً لصحة الأفكار والمقدمات وطريقة توظيفها واستثمارها، وذلك علىٰ مستوىٰ الوسائل والأساليب.

إن حالة التخلف التي تعيشها الأمة تجعل الإحساس بهذه المسألة ضعيفاً حيث (لا شيء يهم)! وعلىٰ المفكرين والمثقفين أن يبذلوا الكثير من الجهد حتىٰ يغيروا الكثير من الأفكار والسلوكات والتقاليد التي تكرّس (اللاعملية). ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن ما نعانيه من فقد الروح والأفكار والتقاليد العملية قد جرّ علينا من المشكلات والمصائب ما لا قبل لنا به! ونسوق الأمثلة التالية لتقريب الفكرة وبيان صدق ما نقول:

* في موريتانيا يأنف العرب هناك من أكل السمك مع أنهم علىٰ المحيط الأطلسي، ويبلغ الجهد بكثير منهم بسبب حرمان النفس من ذلك الخير أن يجمعوا أكياس (النايلون)، ويغلوها في الماء، ثم يفتّون فيه الخبز!!.

* وفي جنوب الفلبين يمتنع كثير من الناس عن شرب حليب البقر ـ مع كثرته ـ ويطرح علىٰ الأرض مع فقر الناس وحاجتهم إليه!!.

* في كثير من الأقطار الإسلامية يكلّف الشباب بدفع المهور المرتفعة وتقديم الهدايا لأقرباء الزوجة حتىٰ الدرجة الرابعة!!. مما يدفع الشباب إلىٰ البقاء بدون إحصان وبالتالي إلىٰ الانحراف، أو إلىٰ الاستدانة من أجل الامتثال لعادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان!.

* يعد الطعام عند كثير من المسلمين بطريقة تجعل ما يلقىٰ منه أكثر مما يؤكل؛ ولا سيما في المناسبات والولائم. ويكلف ذلك الحكومات - من خلال دعم السلع الغذائية - والأفراد أموالاً طائلة.

* جرت العادة لدىٰ بعض الشعوب الإسلامية في أفريقيا أن تعمل النساء في الحقول، ويبقىٰ الرجال في الأزقة يرجّلون شعورهم ويشحذون سيوفهم انتظاراً لدفع صائل موهوم!!.

* في كثير من بلاد المسلمين يستدين أهل الميت من أجل إطعام مشيعيه مع ما هم فيه من البلاء والحزن مع أن السنة أن يصنع الناس الطعام لأهل الميت!.

* لدىٰ أكثر المسلمين عادات مختلفة في القدوم علىٰ بعضهم دون موعد والمكوث الساعات؛ بل الأيام دون عمل أو فائدة أو حاجة؛ وساعة العمر تدق!.

أما أساليب بحثنا للمشكلات وحصرها ومعالجتها؛ فإنها ما زالت تعتمد أدبيات المنطق اليوناني الذي يبحث كل شيء في الذهن وخارج الواقع؛ مما يجعل المشكلات تزيد ولا تنقص!.

إن إحساسنا بالوقت وبالمسافات والتكاليف والأثمان التي ندفعها مقابل كل شيء نحصل عليه شرط ضروري لبعث ثقافة عملية حية.

٣ ـ ثقافة مشدودة نحو الهدف الأكبر:

الأهداف الكبرىٰ دائماً قليلة. ولكل عصر أفكاره وأهدافه المحورية التي تغمر أنشطته المختلفة بإشعاعاتها، وما تمليه من مطالب التحقق.

والفكرة المحورية لعصرنا هي السيطرة على الطبيعة وتحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة والمنفعة. وفي عصر النبوة، وما تلاه من عصور إقبال الإسلام كان الهدف المهيمن هو تحقيق العبودية لله ـ تعالىٰ ـ ونوال رضوانه بفعل الخير والتمكين لدينه في الأرض.

وبما أن الثقافة تقوم علىٰ قواعد من التوازنات العميقة والمتنوعة؛ فإن إمكانية انطماس كثير من الأهداف النبيلة تظل واردة؛ ما لم نفلح في جعل الأهداف المحورية لوجودنا جزءاً مركزياً من ثقافتنا؛ بمعنىٰ أن يتمتع الناس بالوعي المناسب بما ينبغي تحقيقه من وراء أنشطتهم اليومية المختلفة من ثمرات. وهذا يعني أن نصوغ معارفنا وأعرافنا وتقاليدنا وعلاقاتنا في كل مترابط متجانس يخدم الهدف الأكبر لوجودنا، وهو النجاح في مجموعة الابتلاءات التي نواجهها من خلال القيام بأمر الله وصبغ حياتنا بمراضيه. وتحقيق ذلك يتطلب أموراً عديدة، أهمها:

أ ـ تعليم الناس الأساسيات من أحكام دينهم وآدابه علىٰ نحو يجعلها جزءاً من مثقافاتهم اليومية.

ب ـ تحسين ظروف العيش للفرد المسلم بما يجعل القيام بالتكاليف ميسوراً والامتناع عن المحظورات غير مرهق.

جـ ـ إبداع الصيغ والأطر العملية التي تستطيع استيعاب كثير من طاقات المسلمين، وتوجهها نحو الهدف المنشود.

د ـ تنقية ثقافة الشعوب الإسلامية من البدع والخرافات، وما تراكم فيها من سيئ التقاليد والعادات.

هـ ـ ربط الناس بصورة دائمة وبطرق متجددة بمجموعة من الأهداف المحدودة والقصيرة الأمد، والتي تصب في النهاية في الهدف الأكبر.

هذه الأمور وأخرىٰ غيرها تضفي علىٰ أنشطتنا اليومية نوعاً من الاتساق المنطقي، وتجعل إحساسنا بالهدف الأكبر أقوىٰ، وتسهل أمور المراجعة ومحاصرة الانحراف بما توفره من الوعي بمعالم الصراط المستقيم.

٤ ـ ثقافة دمج الثنائيات:

لا بد من القول ابتداء إن من الثنائيات ما لا يقبل الدمج؛ لأن العلاقة بينها هي علاقة تضاد وتناف؛ إذ كيف يمكن دمج الكفر في الإِيمان والهزيمة في النصر والخطأ في الصواب والحلال في الحرام؟. وهذه قضية واضحة.

وإنما نريد بالثنائيات هنا: مجموعة الكيفيات والتنوعات والانتماءات التي يمكن تأطيرها في نظم أشمل.

من المشاهد أن تعقيدات الحياة ومتطلباتها ومفرزاتها تفرض علىٰ الناس أشكالاً لانهائية من التنوع، علىٰ المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية كافة. وتلك الأشكال يمكن أن تشكل عند توفر بعض الشروط مصدراً للتنوع والتكامل الضروريين لاستمرار الحياة ودفع مسيرتها[١]. كما أنه يمكن استغلالها لتفجير مجتمع بأكمله بتضخيم الفجوة بين تلك التنوعات لتصبح أضداداً ومتناقضات يتوقف وجود كل واحدة منها علىٰ فناء الأخرىٰ. وعند بزوغ فجر الإِسلام كان النظام القبلي السائد في الجزيرة العربية مصدراً لما لا يحصىٰ من الحروب والنزاعات التي أفنت بعض القبائل عن بكرة أبيها. وحين أكرم الله ـ تعالىٰ ـ العرب بالإِسلام، إذا به يدمج قبائل الجزيرة في شعب واحد يسعىٰ إلىٰ تحقيق هدف واحد؛ وإذا به يجعل من التمايزات القبلية عبارة عن مظاهر تنوع تعبر عن بعض الخصوصيات ـ التاريخية في مجملها ـ، وتستثمر علىٰ أحسن وجه في رفع وتائر الجهد العسكري المبذول في حرب الفتوحات. كما أن الإِسلام دمج

---

(١) في ماليزيا علىٰ سبيل المثال تنوع عرقي وديني كبير. ومن خلال إرساء صيغة الحكم والتعامل بين الطوائف والأعراق والولايات المختلفة أمكن لذلك التنوع أن يكون مصدراً للتلاقح والتفاعل وتزاوج الخبرات علىٰ نحو منتج ومثمر. والتنوع القبلي في (راوندا) أدىٰ من خلال تضخيم الولاء القبلي وصياغة العلاقات بين الناس هناك علىٰ نحو مَرَضي ـ إلىٰ فناء شعب وإرجاع من سيبقىٰ منه علىٰ قيد الحياة عشرات السنين إلىٰ الوراء. ويحدث ـ مع أشد الأسف ـ نحو من ذلك بين إخواننا الأفغان!!.

بين الأغنياء والفقراء من خلال فرض الزكاة، وما أباحه للدولة من إمكانية أخذ ما تمس إليه الحاجة من الموسرين لمساعدة إخوانهم المعوزين، ومن خلال تدابير أخرىٰ. بل إن الحضارة الإسلامية كلها كانت قائمة علىٰ مبدأ: (التنوع في إطار الوحدة) وهذا المبدأ نفسه الذي سمح لأمة الإسلام أن تندمج في (إمبراطورية) هائلة، علىٰ الرغم مما بين شعوبها من تمايزات عرقية ولغوية وثقافية. وافتقار الثقافة الغربية إلىٰ أدبيات هذا المبدأ هو الذي يجعلها عاجزة عن تحقيق ما حققته أمة الإسلام وثقافته.

ونعتقد أن اشتمال المجتمع علىٰ ذوي تخصصات متنوعة، وعلىٰ فقراء وأغنياء وملتزمين بالسلوك ومقصرين ومفرطين، وسكان مدن وقرىٰ وبادية ـ أمر طبيعي، ويمكن أن يكون ذلك ظاهرة صحية ومثمرة إذا توفرت شروط عدة، من أهمها:

أ ـ الاعتراف بالخصوصيات وتقدير الظروف والعوامل التي تؤدي إلىٰ التنوع. فالمتعلم يعترف، ويقدر الظروف التي لم تتح للأمي أن يتعلم، ويفترض أن تلك الظروف بإمكانها أن تجعله أمياً لو حاقت به. والفقير يعترف للغني بأن ما بذله من جهد وحسن تدبير يجعله يستحق ما هو فيه من رخاء، والمتخصص في الدراسات الإنسانية ـ يدرك قيمة دراسة الهندسة والعلوم والطب... في المحافظة علىٰ النوع وإعمار الأرض. كما يعترف أصحاب الدراسات التطبيقية لغيرهم من ذوي الدراسات الإنسانية بما لهم من فضل في فهم الشأن الإنساني العام ومحاولة رسم المسارات الحياتية الراشدة...

ب ـ تأسيس الأرضيات المشتركة وبيان أوجه التشابه بين الثنائيات، وذلك من خلال ردم ما يمكن ردمه من الفجوات، وتقريب ما يمكن تقريبه من المسافات الفاصلة بين أبناء الثقافة الواحدة. فالمتعلمون يظلون مقصرين ما لم يساعدوا في الحد من الأمية. والمهتدون يظلون مقصرين ما لم يأخذوا بيد الشاردين والتائهين نحو منهاج الرشاد. وعلىٰ الأغنياء مساعدة الفقراء والضعفاء والفئات الخاصة، وإلا كان انتماؤهم لمجتمعهم معدوماً.

وأصحاب تخصص ما يظلون عاجزين عن التعمق السوي في تخصصهم ما لم يطلعوا علىٰ بقية التخصصات القريبة والبعيدة، والتي تمكّن من إدراك القوانين المعرفية العامة التي تنطبق علىٰ كل المعارف.

وما أجمل الدمج بين الشرائح والأوضاع المختلفة الذي نلمسه في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[1]. حيث جعل الأصناف الثلاثة مؤطرة في إطار واحد، هو الاصطفاء؛ فهم علىٰ اختلاف مراتبهم موحدون مؤمنون.

جـ ـ لا يتم دمج للثنائيات إلا من خلال اتسام الثقافة بسمة (الفاعلية). فالثقافة الرخوة الخامدة تجعل المنظومات المكوّنة لها أشبه بكتلة من الخيوط! علىٰ حين تعمل الثقافة النشطة الفاعلة ما يعمله المنوال بالخيوط حين يحولها إلىٰ قطعة من القماش، ويحول ألوان الخيوط المتباينة المتنافرة إلىٰ وشي في لوحة بديعة، تسر الناظرين!.

وتنبع فاعلية الثقافة من الجذوة المتقدة في كيانها ومن وعيها بمحورها وحدودها. كما تنبع من قدرتها علىٰ استيعاب الجديد والفكاك من أسر الطبيعة والنمطية والتاريخ...

د ـ تمثل التنوعات مظاهر طبيعية تفرزها الظروف المعقدة التي يعيش فيها الناس ـ كما قلنا ـ. ويظل ذلك طبيعياً، ما لم يقم أصحاب تلك التنوعات بمنحها أهمية خاصة. فاشتمال مجتمع ما علىٰ طوائف ومذاهب وشرائح ولغات... أمر مألوف. وهناك كثير من المجتمعات التي لم تُحدث فيها هذه التنوعات والثنائيات أية مشكلة؛ علىٰ حين أنها تحولت في بلدان أخرىٰ إلىٰ مصادر لحروب أهلية طاحنة لم تبق، ولم تذر. والسؤال الذي علينا أن نطرحه علىٰ أنفسنا هو لماذا يضفي بعض الناس علىٰ خصوصياتهم أهمية خاصة وفوق المألوف دون بعضهم الآخر؟.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٢.

والذي يبدو أن الشعور بالظلم والحرمان من المشاركة في بناء المجتمع ودفع حركته وتوجيهها هو الذي فعل ذلك. وتمثل الخصوصيات العرقية والمذهبية والقبلية.. آنذاك الملاذ الأخير والصيغة الأقرب تناولاً على طريق إثبات الذات. ودفع الظلم ونيل الحقوق. وقد كانت الدولة العثمانية تضم أعراقاً شتى، وكانت في حالة انسجام تام؛ حيث تم دمجها جميعاً في إطار كبير هو الإسلام. واستمر ذلك قروناً إلى أن قامت الجماعات الداعية إلى القومية الطورانية، وجعلت تمارس نوعاً من التمييز والاضطهاد ضد العرب؛ حينئذ قام دعاة القومية العربية، وصارت (اللغة)، وصار (العرق) تنوعاً بالغ الأهمية في عملية الرد والمفاصلة مع القوميين الأتراك؛ على حين أنهما لم يمثلا أي شيء قبل ذلك.

سدنة الثقافة:

على المستوى الشعبي كل من يعيش في مجتمع يعد مثقفاً بما يستوعبه من نظم وعادات وأعراف وأخلاق المجتمع الذي يعيش فيه.

وعلى مستوى النخبة ليس كل متعلم مثقفاً. فالمتعلم من حاز بعض المعلومات في تخصص ما أو تخصصات مختلفة. أما المثقف فله شأن آخر.

إن خلو الأمة من المفكرين والمثقفين العظام ـ أو قلتهم بحيث لا يبلغون الكتلة الحرجة ـ يجعل ثقافتها تنمو دون قيود ولا توجيه، ويجعلها مليئة بالتناقضات والتداعيات اللامنطقية.

ومن ثم فإن المثقف الحق ـ أو المفكر ـ الذي يتحمل مسؤولية الريادة الاجتماعية هو ذلك المتعلم الذي تجاوز مرحلة تكديس المعلومات في ذاكرته إلى مرحلة الوعي الكامل بترابطاتها وتداعياتها وأساليب التوليد منها ونتائج تطبيقاتها، أي: يكون متجاوزاً لها ومالكاً لناصيتها لا أسيراً لمنطوقها ودلالاتها المباشرة.

وأهم ما يميز المثقف عن المتعلم ـ الذي قد يكون حائزاً على أعلى

شهادة في تخصصه ـ امتلاكه الجيد للرؤية الشاملة للمجتمع الذي يعيش فيه، بمعنىٰ أنه يكون مدركاً مساحات الخير والجمال في ذلك المجتمع، كما يبصر رصيده من الإمكانات والطاقات المذخورة في رمزياته وسواعد أبنائه. وهو إلىٰ جانب ذلك علىٰ وعي بالتناقضات التي تحكم مسيرة ذلك المجتمع، وعلىٰ وعي بمآلات وأخطار التغيرات البطيئة التي تزحف علىٰ أفكاره وأخلاقياته وسلوكاته.

هذا الوعي الشامل هو الذي يمنح المثقف سمة الريادة في المجتمع، ويحمله مسؤوليتها في آن واحد. إن هذا الوعي هو الذي يجعل همَّ الشأن العام يحتل من شعوره واهتمامه مساحات أوسع من شأنه الخاص. ومن ثم فإن التضحية بالخصوصيات وبالنفع الشخصي شرط أساسي لقيام المثقف بعمل شيء ذي قيمة للأمة التي ينتمي إليها. وحين يتحول المثقفون إلىٰ جماعات متنافسة علىٰ حصد المنافع المادية علىٰ حساب الرؤية التي يؤمنون بها؛ يكونون قد بلغوا أدنىٰ دركات الانحطاط!!

إن مسؤوليات المثقف الحق أن يصوغ الأفكار التي تساعد المجتمع علىٰ تفجير طاقاته ومحاصرة أخطائه وتصحيح مسيرته والنهوض به. وبكلمة واحدة منح المجتمع الرؤية الشاملة للوضع الذي ينبغي أن يكون فيه.

ولا يتم شيء من ذلك إلا بعد امتلاك الإخلاص وروح التضحية؛ وإدراك شروط الحركة الاجتماعية علىٰ نحو فذ ومتكامل.

الثقافة والتربية:

تمثل الثقافة المنبع الثرّ الذي تنهل منه التربية كل مقوماتها الأساسية بدءاً بالأهداف وانتهاء بالأساليب والوسائل.. ولم يحدث في التاريخ أن وجدت تربية إنسانية لا تستند إلىٰ ثقافة. كما أنه لم يحدث أن وجدت ثقافة لم توح وتستلزم أساليب معيَّنة في تنشئة الجيل الجديد. لكن لا يغيب عن البال أن التربية ليست انعكاساً مطابقاً للثقافة؛ فهناك دائماً علاقة معقدة بينهما تحكمها عناصر خارجة عن كلتيهما. وهي مجموعة الظروف المختلفة

التي تشكل ميادين التربية، وتشرط نجاعتها وفعاليتها. فالفكرة التربوية الواحدة والأسلوب التربوي الواحد يعطيان نتائج متباينة بحسب الظروف والشروط التي تكتنف عمليات التنفيذ لكل منهما. ومن هنا يمكن القول إن الواقع المعيش هو الذي يحدد مدىٰ فاعلية التربية وإنتاجيتها. فإذا كان ذلك الواقع عبارة عن ترجمة لجوهر الثقافة أمكن لأساليبنا ووسائلنا التربوية أن تؤدي وظائفها في صياغة الأجيال علىٰ النحو المأمول والمطلوب. وعلىٰ مقدار الهوة الفاصلة بين القول والفعل في الواقع المعاش تكون أزمة التربية؛ حيث تمتلك الناشئ الحيرة والتمزق بين ضغوط ما هو كائن ناجز وبين ما ينبغي أن يكون.

والمحصلة لكل ذلك أن الثقافة المتأزمة تؤدي إلىٰ تربية متأزمة وواقع متأزم. وكل منهما يزيد من جانبه في تأزم الثقافة وانحباسها. وإذا أمكن للتربية أن تتحرر جزئياً من هيمنة الثقافة السائدة ـ وهذا من سمات التربية الناجحة ـ كان بوسعها أن تحسِّن من شروط الواقع، وأن تعدِّل في تركيبة الثقافة واتجاهاتها. . .

أهمية التربية:

يمكن أن نعرف التربية بأنها «تعاهد الجوانب المختلفة للكائن البشري بالتنمية والإِصلاح علىٰ وجه التدرج»[1].

وتنبع أهمية التربية من كونها تعنىٰ بتأهيل الإِنسان ـ ولا سيما الطفل ـ ليحيا عصره بفاعلية أخذاً وعطاءً فعلاً وانفعالاً. ولو ترك أي إنسان دون تربية وتوجيه وتدريب لوجدنا أنه إلىٰ التوحش أقرب منه إلىٰ الآدمية. ومن

---

(١) يعرف الأستاذ محمد قطب التربية بأنها: «معالجة للكائن البشري كله معالجة شاملة، لا تترك منه شيئاً، ولا تغفل عن شيء: جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه علىٰ الأرض». انظر تربية الأطفال في رحاب الإِسلام: ٢٢. ويعرف معجم (لالاند) التربية بأنها: «سياق يقوم في أن تتطور وظيفة أو عدة وظائف تدريجياً بالتدريب وأن تتحسّن التربية نتيجة ذلك السياق». فلسفة التربية: ٣١.

ثم فإن من مهام الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الكبرىٰ تعليم الناس وتزكيتهم ودلالتهم علىٰ ما يحقق وجودهم الإنساني بشكل كامل، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1].

يمكن للحيوان أن ينشأ دون رعاية، ويشبع كل غرائزه، ويقوم بكل وظائفه دون أية مساعدة من أحد. أما الإنسان فأمره مختلف؛ إذ إن مما يميزه عن الحيوان أنه لا يستطيع أن يصبح إنساناً إلا بالتربية[2]. وبعض الناس يتذمر من تشديد علماء التربية علىٰ إبراز أهميتها وتحسين مناهجها وأساليبها بدعوىٰ أن الأجيال السابقة عملت أعمالاً جليلة دون معاهد ودون كثير من الكتب والنظريات والنظم التربوية، ونحن علىٰ كثرة ما عندنا من ذلك لم نصنع شيئاً ذا قيمة؟!!.

وكلامهم صحيح لولا أنه لم يراع اختلاف الزمان، ولم ينظر إلىٰ التمزق الثقافي والوهن الذي برئ منه القدماء، ونعاني منه أشد المعاناة. إن تعقد المصالح والظروف يجعل ـ بصورة مستمرة ـ ما هو بسيط وفطري غير كاف. سواء أكان ذلك علىٰ صعيد التربية أم علىٰ صعيد التعليم والتدريب والتفكير. . . فالأمي الذي لم يلق أي نوع من التعليم والتدريب بإمكانه أن يعيش بصورة عادية في مجتمع تسوده الأمية، وربما استطاع الرقي إلىٰ مكان الصدارة فيه. لكنه لا يستطيع أن يعيش بكرامة وفاعلية في مجتمع لا يحصل فيه الإنسان علىٰ عمل دون نوع من التأهيل التعليمي والمهني، إلا أن يكون خادماً أو حارس عمارة أو حامل أمتعة. ومن يدري فقد يأتي زمان يجد فيه الأمي نفسه لا يصلح لشيء أبداً!

وتنبع أهمية التربية مرة أخرىٰ من أنه لا شيء مما يؤلف الإنسانية: اللغة والفكر والمشاعر والأخلاق.. ولا شيء مما سعت الحضارة آلاف

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) فلسفة التربية: ٦.

السنين للحصول عليه يمكن أن ينتقل إلىٰ شخصية المولود الجديد إلا عن طريق التربية. إن وَلَدَ إنسان لا يربيه إنسان لا يملك شيئاً مما يملكه الإنسان. إن الإنسانية ليست وراثة طبيعية، بل ميراثاً يتحتم علىٰ كل إنسان أن يستعيده[1].

إن الأمة التي تتطلع إلىٰ هداية العالم وقيادته لا تستطيع أن تفعل ذلك إذا قابلت ما عند الآخرين من علم بالجهل، وقابلت التنظيم بالفوضىٰ، والغنىٰ بالجوع والتكتل والتوحد بالفرقة...

واستخلاصاً من كل ما سبق فإن الطفل الذي لا نعده الإعداد المناسب، ليعيش بكفاءة في عصر معقّد يكون حظه ـ غالباً ـ العيش علىٰ هامش المجتمع منفعلاً غير فاعل، وآخذاً غير معط؛ بل ربما جعلنا منه مخلوقاً قابلاً لأن يستغله الآخرون أسوأ استغلال!. ولا نريد هنا أن نعرض لما أصاب التربية الإسلامية في مراحل تاريخنا المختلفة؛ فذلك حديث يطول. لكننا سنسلط الضوء علىٰ بعض المفاهيم والأشكال والصيغ التي نحتاجها في بنائنا التربوي ما دمنا نسعىٰ إلىٰ وضع حضاري جديد وفريد. ويمكن أن نذكر ما نريده من ذلك في النقاط التالية:

١ ـ الفردية والامتثالية:

حين ننعم النظر في مجموعة السمات والاستعدادات الفطرية التي تحلىٰ بها كل فرد منا؛ نجد تبايناً وتفاوتاً. كما أننا نجد استعداداً تاماً لقبول التوجيه والتكيف أيضاً. وهنا يزيغ بصر كثير من الناس في التعامل مع هاتين الظاهرتين. فمنا من يجنح إلىٰ طلب كل ما تتطلبه فرديته وتحقيقه ولو كانت لا تخلو من الشطط. ومنا من يسعىٰ إلىٰ نوع من التماثل بين ولده وبين أفكاره وعاداته، وما يسود المجتمع من أعراف وتقاليد.

وفي الحالة الأولىٰ ينمو لدينا طفل متمرد علىٰ المجتمع ضعيف

---

(١) السابق: ٤٨، ٥٠.

التفاعل معه والتمثل لرمزياته ومطالبه. وفي الحالة الثانية نربي طفلاً أقرب ما يكون إلىٰ (الإمَّعة)[1] الذي يتنازل عن كل خصائصه الفردية من أجل التماهي والتجانس مع المجتمع الذي يعيش فيه. وسيكون ذلك في حال انتشاره مصدراً ثراً لإفقار المجتمع وتخريج أجيال نمطيين بعيدين عن الإبداع وقبول الجديد. والحقيقة أن من حق كل فرد أن ينفذ إلىٰ الواقع، ويدرك الحقائق المحيطة به بطريقته الخاصة دون قسر أو إكراه. وذلك النفاذ هو المصدر الوحيد لامتلاك الرؤية النقدية التي تحول بين المجتمع وبين التحنط في أشكال ميتة. وثمة مسألة أخرىٰ تنطق بصعوبة فهمنا لأبنائنا وفهم أبنائنا لنا؛ حيث إن التفتح الأولي الذي بدأنا به تدرجنا نحو اكتمال ذواتنا مغاير للتفتح الذي يلاقونه اليوم. كما أن الظروف والضغوط والآفاق والأفكار المحورية، كل أولئك مختلف بيننا وبينهم. وانطلاقاً من هذا يحبذ بعض المفكرين أن تكون الأمهات صغيرات السن؛ لأنهن بذلك يكن أقدر علىٰ فهم أولادهن بطريقة أفضل.

ولذا فإن قسر طبيعة الأولاد من أجل أن يكونوا نسخاً مكررة عنا سيظل غير منطقي ولا عملي، وسيظل غير مفهوم بالنسبة لهم. إن كثيراً من الناس يلزمون أبناءهم بدراسة تخصصات لا يميلون إليها، وليس عندهم الاستعدادات لتمثلها والإبداع فيها. وهم حين يفعلون ذلك يحولون بينهم وبين النبوغ فيما يحبون من علوم. كما أنهم يحملونهم علىٰ تعلم علوم ومهن يكرهونها، وفي ذلك مصدر للشقاء النفسي الدائم!

إن تماثل الفرد مع مجتمعه ضروري؛ لكن في حدود الأصول والمبادئ العامة والقيم المشتركة. أما في الجزئيات فإن لكل فرد طريقته الخاصة في تحقيق ذاته وإنجاز تطلعاته وطموحاته. ونجد أن من الأطفال من يلقىٰ التوبيخ الدائم من أجل التخلص من خلق الخجل أو الخوف، أو

---

(١) الإمَّعة هو الذي لا رأي له؛ فهو يتابع كل أحد علىٰ رأيه. وفي حديث ابن مسعود: لا يكوننَّ أحدكم إمَّعة. قيل: وما الإمعة؟ قال: الذي يقول: أنا مع الناس. النهاية في غريب الحديث ١: ٦٧.

لضعف همته... والنتيجة نوع من السلبية واحتقار الذات! وليس المطلوب ترك أنواع القصور لدىٰ الطفل علىٰ حالها؛ فذلك غير صحيح. لكن بالإمكان أن نغير عاداته السيئة بزجه في مواقف ـ بطريقة ساذجة وغير مباشرة ـ تفرض عليه الجرأة أو المبادأة أو الاندماج... إن قدراً من الحرية ضروري للنمو وتكوين الشخصية السوية؛ لكن إعطاء الحرية دون رقابة ـ عن بعد ـ قد يكون مدمراً.

والخلاصة أننا بحاجة إلىٰ إنسان يضيف تنوعاً إلىٰ مجتمعه دون تنافر، ويتمتع بشخصية مستقلة؛ لكن منضبطة بالمبادئ والقيم المشتركة.

٢ ـ تلبية الحاجات شرط لنجاح التربية:

ليست التربية عبارة عن نحت وتشذيب في شخصية الطفل؛ فحسب، وإنما هي قبل ذلك إغناء لشخصيته من خلال توفير الحاجات والشروط التي تسمح بنمو شخصيته بشكل متكامل وصحيح. ولعل من أهم ما يجب توفيره الحاجات التالية:

أ ـ تشتد حاجة الطفل إلىٰ الشعور بالكرامة والتقدير من قِبَل المجتمع الذي يعيش فيه. ومن ثم فإننا إذا لاحظنا علىٰ الطفل عمل بعض الأعمال غير المرغوبة وجب أن ننبهه إلىٰ ذلك بطريقة لا تجرح كبرياءه؛ فإذا رأينا ـ مثلاً ـ أنه يكذب كان من المناسب أن نقول: إن فلاناً لا يكذب. وإذا كان قد وقع ذلك منه فإنه ليس متعمداً. فذاك خير من تقريعه وتوبيخه. وعند إرادة مناصحته في خطأ ما فإن ذلك ينبغي أن يتم في السر بعيداً عن الناس حتىٰ أفراد أسرته. وكل ذلك في سبيل السعي إلىٰ محاصرة الانحراف دون إيقاع أضرار به.

إن إذلال الطفل يولد لديه مناعة ضد كل النصائح التي تلقىٰ عليه. وسلب كرامته يسوغ له عمل القبائح. وإذا كان الكبار لا يستغنون عن التقدير والتشجيع والثناء فإن الأطفال أحوج إلىٰ ذلك؛ فالطفل كائن غريب علىٰ مجتمعه الناضج؛ ومن ثم فإنه يقوم بأعمال كثيرة ولا شعورية ـ أحياناً

ـ في سبيل انتزاع اعتراف مجتمعه به. وصلاحيته لعضويته فيه. وإن علينا أن نمنحه ذلك، ونشعره به دون شطط.

ب ـ الطفل بحاجة إلىٰ إطار توجيهي؛ فهو مع حبه الاستقلال والتميز، إلا أنه يشعر بأن ما لديه من معارف وإمكانات لا يؤهله للاختيار الراشد في كل الأحيان. لكن التوجيه ينبغي ألا يتم أمام الناس، ولا بصورة مستمرة ولا عنيفة ولا مباشرة ـ قدر الإمكان ـ؛ وإنما يتم عن طريق الإيحاء وعرض أضرار بعض السلوكات، وعرض بعض النماذج الخيرة في الموضوع الذي يراد لفت النظر إليه. وحين يقع منه خطأ فإنه يتيح لنا المناسبة بتذكيره بالحاجة إلىٰ من يستعين به في بعض شأنه.

جـ ـ الطفل ـ كالكبار ـ بحاجة إلىٰ التجذر والانتماء والإحساس بالهوية. ومن واجبنا أن نشعر أطفالنا بانتمائهم إلىٰ أمة الإسلام وعقيدة التوحيد مع تلقينهم شيئاً من مزايا وخصائص هذه الأمة إلىٰ جانب إطلاعهم علىٰ طرف من مآثر رجالها وبطولاتها وأيامها... وكل ذلك من أجل تحضيره للاندماج التاريخي والمجتمعي. وذلك الاندماج ضروري لشعور الطفل بنوع من الاستقرار والاستمرار التاريخي؛ ومن أجل توكيد الشعور الجمعي الذي يولِّد نوعاً من الشعور بالأمن والسكينة.

وإن محاولة إشراك الطفل في تحسن الآمال والأهداف الكبرىٰ التي تسعىٰ أمته إلىٰ تحقيقها أمر حيوي لتوليد مشاعر الانتماء وتمحور الشخصية حول بعض المرتكزات؛ مما ينشط فاعلية العقل والروح.

د ـ إن الطفل بحاجة ماسَّة إلىٰ الشعور بالأمن ووجود من يحميه. وهو في سبيل نضجه يقوم بمغامرات من أجل اكتساب الخبرات ونمو العضلات وحين يواجه صعوبات من أي نوع كانت؛ فإن علينا أن نشعره بوقوفنا إلىٰ جانبه ومساعدته. صحيح أن علينا أن نعلم الطفل الاعتماد علىٰ النفس وتدبير شئونه الخاصة مهما كان ذلك ممكناً؛ إلا أن علينا بالمقابل أن نشعره أنه ليس وحده، وأننا قادرون علىٰ التضحية من أجل سعادته وحمايته.

ومسؤولية توفير الأمن لأطفال المسلمين مسؤولية اجتماعية عامة يشارك فيها كل أعضاء المجتمع؛ ولا سيما أولئك الأطفال الذين فقدوا ذويهم وأولئك الذين يعيشون بعيداً عنهم. وتواجه بعضَ أطفال المسلمين معضلة كبرىٰ في هذا الشأن حيث يجد الطفل نفسه ملزماً بالعمل لدىٰ الغرباء وهو في سن العاشرة أو نحوها نظراً لحاجة أهله الماسَّة. وهذا في الحقيقة يعرضهم إلىٰ مخاطر وتهديدات، وضغوط لا تحتملها جملتهم العصبية، ولا قدراتهم النفسية والعقلية. وهذا يملي علىٰ الأمة أن تحاول تقليص هذه الظاهرة إلىٰ أقصىٰ حد ممكن؛ إلىٰ جانب إيجاد الوسائل الرقابية التي تحمي الأطفال من العدوان والإِذلال والاستغلال.

هـ ـ الطفل طبيعة غير منجزة. وإنجازها يتم من خلال مجموعات الأنشطة والخبرات والتساؤلات التي يبديها. ومن ثم فإن الله ـ تعالىٰ ـ فطره علىٰ حب اللعب والحركة والتشوق إلىٰ معرفة ما حوله. ومن حقه علينا أن نؤمن له الألعاب غير الخطرة والألعاب والمواقف التي تمثل بالنسبة له نوعاً من التحدي لقدراته العقلية والجسمية؛ كيما ندفع به نحو النضج والنمو بصورة جيدة. ومن المؤسف أن أزمة الإِسكان في كثير من دول العالم الإِسلامي مستحكمة؛ مما جعل الناس يعيشون في بيوت ضيقة أشبه بـ(علب الكبريت)؛ فلا يتاح للطفل أي مكان للعب والحركة. كما أن الملاعب والحدائق قليلة أيضاً. وهذا دفع بكثير من الأسر إلىٰ التضايق من لعب الأطفال إلىٰ جانب إبداء مشاعر الرضا والارتياح تجاه الطفل الهادئ مع أن اللعب ضروري، والسكون الزائد قد يكون أمارة علىٰ مرض نفسي أو قصور عقلي أو ضعف في المشاركة والاندماج الاجتماعي.

و ـ كل ما ذكرناه يسهل تأمينه لأطفالنا، لكن المشكلة الكبرىٰ التي تواجه أكثر المسلمين هي الحاجات الضرورية المادية التي تحتاجها أطفالهم من مطعم ومسكن وملبس وتعليم وتدريب؛ فأكثر الشعوب الإِسلامية فقيرة. وبعضها مصنَّف مع الدول الأشد فقراً. وهذا جعل كثيراً من أطفال المسلمين لا يحصلون علىٰ التغذية المناسبة ولا الماء الصالح للشرب. كما

أن ٩٠٪ من لاجئي العالم مسلمون! وكثير من أبناء المسلمين لا يجد اللباس الذي يتجمل به؛ كما أن كثيراً من الأسر الإسلامية لا يجد الطبيب ولا الدواء..

هذا الوضع المأساوي الذي يعيش فيه كثير من أبناء المسلمين جعل أكثر جهودنا تنصب على الكفاح من أجل بقاء الطفل حياً لا أكثر ولا أقل. ومن ثم فإن إمكانات تأهيله ليعيش عصره بكفاءة، ويؤثر فيه ضعيفة في الموازين العالمية!.

٣ ـ النمطية في التربية:

تميل التربية ـ بطبعها ـ إلى أن تتخذ أشكالاً وأنماطاً ثابتة، يتوارثها الأبناء عن الآباء. وتشكل تلك الأنماط ـ على مرور الزمن ـ جزءاً من الأعراف والتقاليد التي تنبغي مراعاتها والمحافظة عليها. وهذا في الحقيقة أول تحدٍ تواجهه التربية ذاتها؛ إذ إن التغير السريع يجعل كثيراً من الأساليب التربوية التي ألفناها لا يستطيع مسايرة المستجدات؛ مما يُلزمنا باستمرار أن نبدع من الطرق والوسائل التربوية ما يساعدنا على إيصال ما نريده إلى أطفالنا بشكل يناسب روح العصر ومنطقه ولغته.

إن من المهم والحيوي في الأعمال التربوية ـ كما في غيرها ـ ألا ندمج الذات في الموضوع، ولا المضمون في الشكل؛ فنحول المضامين إلى أشكال باهتة لا روح فيها؛ على نحو ما حدث لمدرسي (الكتاتيب) والمؤدبين في تاريخنا الطويل. حيث صارت لهم رسومات في تدريس الطلاب وتأديبهم (وتكسير عظامهم) يتناقلها الخلف عن السلف دون أي تطوير أو مراعاة للمستجدات أو مراجعة لجدوى تلك الأساليب؛ مما أجج نار الكراهية ـ لدى كثير من الطلاب ـ للمؤدب والكتّاب وكل ما يلتصق بهما!. إن مهمة التربية ليست تفصيل إنسان على مزاجنا ولكن تنمية استعدادات إنسان وتهيئته ليعيش بكامل قواه المعنوية والمادية وتنشيط وإنضاج وظائفه الحيوية في هذه الحياة على نحو يحقق عبوديته لله ـ تعالى ـ ويسعفه في الحصول على مستوىً من العيش الكريم.

٤ ـ التربية الذاتية:

إن حاجة أطفالنا إلىٰ التربية ليست أكثر من حاجتنا إليها؛ فنحن بحاجة ماسَّة إلىٰ أن نشعر أننا لم ننضج بعد. وهذا الشعور هو المدخل الوحيد إلىٰ جعلنا نستفيد العبر، ونستخلص الدروس من نتائج ومعطيات أنشطتنا المختلفة. وهو الذي جعل لدينا القابلية لأن نتعلم، ونضيف كل يوم خبرة إلىٰ خبراتنا. فالإِنسان ـ مهما كان ـ يظل قاصراً عن الإِحاطة بالصورة الكلية التي ينبغي أن يكون عليها الشأن العام، بل شأن نفسه. ومن ثم فإن أكثر دعاء يردده المسلم كل يوم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾. إن علينا معاشر الراشدين أن نتربىٰ، وألا نحول الصيرورة إلىٰ صير، ونضفي علىٰ ذواتٍ وخبراتٍ صفة الوضع النهائي، وهي ما تزال تحبو في مدارج الكمال.

لقد قال أفلاطون: إن تكوين إنسان يتطلب خمسين سنة[1]. وإذا كان التكوين يتطلب كل تلك المدة فإن الوصول إلىٰ النضج الكامل لا سبيل إليه مهما عاش الإِنسان!.

إن جهلنا بكثير من الحقائق ومجريات الأحداث التي تتم تحت السطح، وعجزنا عن مقاومة كثير من الشهوات والإِغراءات إلىٰ جانب طروء جديد كل يوم ـ يوجب علينا أن نظل في حالة من المطاردة الدائمة لهدف أو أهداف لا نملكها بغية إنجاز ذواتنا والبلوغ بها أسمىٰ ما يمكننا الوصول إليه. وإن استنفادنا للأهداف التي نحيا من أجلها يقطعنا عن إنسانيتنا، كما يجعل حياتنا عبارة عن أيام مكرورة لا فائدة نجنيها من ورائها سوىٰ انتظار الرحيل!

إن الشخص الذي لا يملك تغيير عاداته في التفكير والتعامل وقبول النقد والتكيف مع الجديد والأوبة كلما حاد عن الجادة ـ هو شخص دخل في مرحلة (التخشب) التي تجعل منه شخصاً يعيش حياة نباتية؛ فهو يأكل

---

(١) فلسفة التربية: ١٣.

وينام ويتنفس ويتكاثر ثم يموت ليس أكثر! وإن من أهم الظواهرالتي تدل علىٰ أن أمتنا ما زالت شابة، وأنها لم تدخل في مرحلة الشيخوخة، وأن ما أصابها وعكة ليس أكثر أن تحاول رسم أهدافها الكبرىٰ البعيدة المدىٰ والمرحلية، وأن تبدع في إيجاد الأنظمة والأوعية والوسائل التي تقربها من تلك الأهداف.

إن الشباب ليس في سواد الشعر ولا قوة الجسم؛ ولكن في المواقف التي تدل علىٰ أننا ما زلنا نحتفظ بحيوية الأطفال ودهشتهم من الجديد وحديثهم عن المستقبل! ولله عاقبة الأمور.

تجديد الروح

الروح ذلك البعد الفذ (اللامرئي) في شخصيتنا، الذي يشكل الجانب الأهم في حياة الفرد والجماعة.. وهذا الكائن العجيب (الإِنسان) إن هو إلا مزيج من نفخة الروح وقبضة الطين، وهو أبداً متردد بين الاستجابة لمطالبهما التي لا تنتهي.

وحين انبعثت أمة الإِسلام في بناء عالم جديد علىٰ هدي جديد كانت روحها طليقة بصورة لم تعهدها البشرية من قبل؛ فلا قيود ولا رسوم ولا أشكال، وإنما التدفق بالعطاء والتضحية والإيثار والبذل والتفاني والتجاوز لكل محددات المكان وإرث الزمان ومحدودية العقل، علىٰ نحو مؤثر ومثير، ما زلنا نتنسم عبيره كلما طالعناه، أو تذكرناه! لم تكن القوانين والنظم والأطر واضحة في زمان النبي ﷺ زمان الانطلاقة الكبرىٰ، حيث استغنىٰ الناس بإيمانهم وثقتهم ورغبتهم فيما عند الله ـ تعالىٰ ـ عن ملاحقة الحقوق واقتناص الفرص للكسب الشخصي. وإنما كان الهمُّ الأكبر هو الحصول علىٰ فرصة للتقرب إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ ونيل رضوانه، علىٰ نحو ما نجده في حياة الصحابة والتابعين؛ رضوان الله عليهم.

لم يكن العطاء والأداء متوقفاً علىٰ درجة الإِلزام الشرعي لما يقومون به، بل إن كثيراً من الصحابة لم يتأصل في وعيهم الفرق بين الواجب والمندوب؛ فالمسارعة إلىٰ كل منهما حاصلة. كما لم يكن هناك حاجة إلىٰ التدقيق في الفصل بين المحرَّم والمكروه؛ فكل منهما موضع توقٍ واحتراز! وذلك مجسَّد فيما نشاهده في العلاقة الأسرية؛ فالابن البارّ لا يخطر في خلده شيء من التفريق بين ما يجب تنفيذه من أمر والديه وما يُستحب؛ فمحبوبات الأبوين كلها أوامر لا تحتمل التأخير!

وكان تقسيم الأصوليين الحكم التكليفي إلىٰ واجب ومندوب ومباح ومكروه ومحرم، وبلورة الحدود بينها ـ فيما بعد ـ أمراً لا بد منه؛ لكنه كان يومئ من بعيد إلىٰ أن شيئاً ما في تدفق الروح الإسلامي قد حدث.

وحين تعمد الأمة إلىٰ تجسيد روحها في رسوم وشكليات ونظم ولوائح فإنها تقوم في الحقيقة بتنظيم الوعي المدني لديها. وذلك أمر لا بد منه. لكن المشكلة التي تواجهها الأمم أن روح المدنية حين يضعف ويبدأ بالانسحاب من الأشكال الحضارية؛ تكون تلك الأشكال هي البديل الجاهز عن ذلك الروح؛ بل ربما أغرت بإضعافه والاستهانة به، من خداعها وإيهامها بالإغناء عنه!.

وحين ينسحب الروح تصبح الأشكال والنظم واللوائح.. عبارة عن قيود لا قيمة لها؛ فهي لا تحقق خيراً، ولا تردع عن شر؛ بل ربما صارت أدوات ظالمة يستفيد منها الأقوياء، وتستخدم ضد الضعفاء! ولا تخلو دولة في الدنيا من نظام قضائي ولوائح تحدد الحقوق والواجبات، لكن كل ذلك لا يجدي شيئاً إذا ماتت روح المدنية، وسيطر الهم الخاص. والمتأمل في تاريخ هذه الأمة يجد صدق ما نقول[١].

ومما لا يحتاج إلىٰ بيان أن التوتر الروحي يظل ملموساً لدىٰ أفراد كثيرين في الأمة، لكن أولئك الأفراد لا يشكلون الكتلة الحرجة الكافية لصبغ الأمة

---

(١) ورد في الصحيح أن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كان يحمل علىٰ ظهره للناس أمتعتهم من أجل أن يتصدق بأجرة ذلك أو بعضها! وهذه الصورة لا مثيل لها في تاريخ الأمم؛ فمن ذا الذي يؤجر نفسه ويكد جسده طول اليوم من أجل التصدق بمردود ذلك علىٰ غيره؟!!. وحين تراجعت تلك الروح صار الموقف من المال ليس التصدق، وإنما الاستهلاك. وصار الشعار اليوم: لا معنىٰ للثروة إذا لم يكن ثمة طريقة للاستمتاع بها!. وهذا هو الفرق بيننا وبين سلفنا! وبهذه المناسبة فإن علينا أن نكون علىٰ حذر من استهلاك روح الإيمان في الحث علىٰ الفاعلية وتنظيم الوقت ومضاعفة العطاء... دون أن نجعل ذلك كله جزءاً من نَسَق أساسه ورأسه صلة بالله ـ تعالىٰ ـ تطلق العنان لأرواحنا؛ كيما تحلّق في فضاءات حبه والشوق إليه وإيثاره علىٰ ما سواه.. وإلا فإننا نوقع وعينا في ارتباك، وتكون النتيجة هي استهلاك طاقات الإيمان دون مردود يذكر.

بصباغ ذلك التوتر. ومن ثم فإنه في حال أفول فاعلية الروح لدىٰ السواد الأعظم من الناس يصبح أولئك الأفراد غرباء، وتكون مواقفهم موضع دهشة واستغراب؛ حيث يتعود المجتمع عدم القيام بأي جهد دون مقابل. وحيث تصبح الشجاعة تهوراً، والكرم تبذيراً. والاهتمام بالشأن العام مضيعة للعمر..!

استعمار الروح:

دخلت أمة الإسلام العصور الحديثة وقد خبت فيها روح الانطلاقة الأولىٰ، كما فقدت مبادئها الفاعلية في توجيه سلوك كثير من أبنائها. وكان ذلك سبباً جوهرياً في إمكانية وقوعها تحت تأثير ضغوط الحضارة الغربية. تلك الحضارة التي خاضت ضد الروح الإنسانية حرباً لا هوادة فيها، إلىٰ أن انتهت إلىٰ الاعتقاد بأن المعرفة العلمية وحدها قادرة علىٰ خلاص البشرية من الشقاء والتعاسة والظلم والظلام... كما انتهت في الوقت ذاته إلىٰ أن فكرة وجود جوهر إنساني ثابت تجب الصيرورة إليه وتحقيقه ليست فكرة لا تقبل الجدل؛ بل إن التوكيد المستمر علىٰ وجوب تحقيق الذات الفردية المبدعة التي تنشئ عالمها الخاص، إلىٰ جانب إضفاء أهمية خاصة علىٰ المتمردين علىٰ الأعراف والفنانين الأحرار والمنبوذين والعدميين والوجوديين - كل ذلك يوحي بأنه لا يوجد شيء ثابت ولا إطار إنساني يُحتكم إليه عند الخلاف!. وهكذا صارت شفافية الروح والاستعلاء علىٰ المادة والغرائز والشهوات أمراً غير مفهوم لدىٰ الكثيرين من المواطنين الغربيين.

وحين جرىٰ احتكاك حضاري بيننا وبينهم تمكنوا من خلال تفوقهم المادي الكبير أن يحتلوا وعي المسلم، وأن يستعمروا روحه! وهكذا حلَّت الرغبة في حيازة الأشياء محل الغبطة والبهجة والسعادة العميقة والتذوق الأدبي الرفيع. وساد نمط الاستهلاك الغربي، وارتقىٰ العلم - عند كثيرين - إلىٰ مرتبة الإيمان، وحل محلّه. ومن خلال امتلاك الغرب لمصادر المعلومات وروح المبادرة الحضارية صار المسلم عاجزاً عن فهم ذاته وشروط وجوده وأهداف نشاطه إلا من خلال مقولات الغرب عنه. وهناك من إخواننا من يزعم أن شيئاً من ذلك لم يحدث، وهم عندي لا يختلفون عمن يترنم في المقابر!!

روح جديد:

لم يشهد العالم الإسلامي منذ قرون يقظة للروح الإسلامية على نحو ما نراه اليوم على مستوى العمق، وعلى صعيد الشمول. وذلك كله من الوعد الصادق بتجديد هذا الدين كلما كادت شعلته أن تنطفئ، وكادت معاهده أن تندرس. فالصحوة المباركة ـ على الرغم من كل ما ينقصها ـ بعثت روحاً جديداً في الكيان الإسلامي الكبير. هذا الروح يستمد ماءه ورواءه وقوة اندفاعه من مبادئ الإسلام الخالدة، ومن الروح الذي سكن النهضة المباركة التي فجر شرارتها الأولى النبي ﷺ حيث يشهد جيلنا تياراً هادراً من التضحيات والعطاءات السخية التي نعدها امتداداً لتضحيات السلف في نشر أعلام هذا الدين.

هذه الأوبة الراقية فرصة نادرة للمدنية الإسلامية، كيما تعيد تأسيس ذاتها وصقل جوهرها وبعث الحياة في أوصالها.. وما يقع من أخطاء وتجاوزات من بعض الشباب لا ينبغي أن يصرف الأمة عن أن تقبس من رمزية هذه الصحوة ما تصحح به مسار حياتها، وتحرر به وجدانها، وما تتعلم منه كيفية بناء قيم التضامن والتكافل والتضحية والبذل المجاني، وقيم الألفة والمودة والتسامح[1].

إن الصحوة لم تعم كل المسلمين؛ فما زال كثير من شريحة النخب الثقافية لدينا بعيدين عنها؛ كما أن روح كثير من العامة فقدت الكثير من شفافيتها وانحسر مجال إبداعها الحيوي. ولا بد من جهاد لا يعرف الكلل في سبيل تحرير روحهم من ربقة المادة وعبودية الشهوات والغرائز والأنانية الفردية والجماعية. ولن نحرز الكثير مما نريد ما لم تتجسد المعاني التي نتطلع إليها في سلوك نسبة من أبناء الأمة تبلغ النقطة الحرجة، وتشكل حربة التغيير والتجديد، وتعلمنا بسلوكها كيف يتم انتصار نفخة الروح على قبضة الطين!.

---

(١) نقد السياسة: ٣٠٠ وما بعدها.

الخلق الأسمىٰ

أخذ الناس عندنا يتحدثون منذ عقود عدة عندما بدأنا نتحسَّس واقعنا حول تحديد المشكلة الأساسية التي نعاني منها. وقد رأىٰ كثيرون أن أزمتنا الأساسية أزمة تربوية خلقية. ورأىٰ فريق ثان أن مشكلنا الأكبر هو مشكل فكري. والصحيح أننا نعاني من أزمتين صغراهما كبيرة! لكن لا ريب عندي في أن وضعية فكرية صحيحة تظل هي المدخل للإصلاح؛ حيث إن عملية التربية والتنشئة الخلقية لا بد أن ترتكز علىٰ منهجية سليمة، وتلك لا نستطيع بلورتها إلا عن طريق الفكر.

وللخلق الكريم والفضائل النفسية مكانة عظمىٰ في الإسلام؛ إذ إن المجتمع بلا أخلاق أقرب إلىٰ الغابة منه إلىٰ أي شيء آخر. وإعلاءً لشأن الأخلاق أثنىٰ الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ خلق نبيه ﷺ حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1]. وجعله النبي ﷺ معياراً للخيرية العامة حين قال: «**إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً**»[2]. وجعل أهل الخلق الحسن من أحب الناس إليه حين قال: «**إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً**»[3].

وتمثل الأخلاق والقيم السائدة في مجتمع ما انعكاساً مباشراً لعقيدة المجتمع، وثمرة لكل الظروف والتطورات والأوضاع التي مر بها وعيه، والتي تسود في حاضره. ومن ثم فكما أن الأخلاق السامية تساعد المجتمع علىٰ تجاوز الكثير من محنه وأشكال معاناته؛ فإن أزمات المجتمع الفكرية

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه البخاري وغيره.

والسياسية والثقافية والتربوية والاقتصادية، وما يتحصل منها من وعي المجتمع بذاته تنعكس بصورة واضحة علىٰ أخلاق الناس وترتيب سلم القيم لديهم.

وتنبع أهمية القيم من أنها تضبط سلوك الفرد من الداخل، حيث تقصر الأنظمة والقوانين والأعراف عن ضبط تصرفات الإنسان في خلواته وشؤونه الخاصة. كما أن النظم والأعراف والتقاليد لا تستطيع ـ مهما كانت دقيقة وشاملة وواضحة ـ أن تغطي كل مساحات حياتنا الاجتماعية. ومن ثم فإن وظيفة الخلق الكريم أن يردع أصحابه عن استغلال مساحات (الفراغ القانوني) علىٰ وجه سيئ يضر بالفرد نفسه أو مجتمعه. وهاتان الوظيفتان الاجتماعيتان للأخلاق لا يمكن أن يقوم بهما أي نظام أو سلطة أو علم أو عقل إذا ما عجزت أخلاق الفرد والجماعة عن القيام بهما.

ومن هنا فإن الأخلاق الشخصية والاجتماعية والحضارية جميعاً تشكل لدينا جزءاً مهماً من منظوماتنا العقدية والفكرية والرمزية؛ فالمسلم حين يقف موقفاً خلقياً يؤدي عبادة لله ـ تعالىٰ ـ. وحين يقف موقفاً (لاأخلاقياً) يشعر بالذنب والتناقض والخور النفسي.

مأزق الأخلاق:

لا يتمارىٰ كل من يعيش في مجتمع متمدن بضرورة التحلي بجملة من الأخلاق الشخصية والاجتماعية؛ حتىٰ يشعر بالتأنق وبصلاحيته لنيل العضوية في ذلك المجتمع. ومن ثم فإن كثيراً من مكارم الأخلاق لا يخضع للمناقشة، ولا يقبل الجدل؛ بل أصبح جزءاً من وصايا عالمية تتناقلها الأجيال في كل زمان ومكان مما يمنح المجتمع الاستقرار والاستمرار.

ولكن هذا لا يعني بحالة من الأحوال أن الأخلاق تستطيع أن تنجو من المحن وأنواع التراجع. فهناك أمور عديدة تعرض الأخلاق الشخصية والاجتماعية للتضاؤل والانهيار. ومن تلك الأمور والعوامل ما يلي:

١ ـ ينظر الناس إلىٰ العديد من القيم والأخلاق علىٰ أنها أمور نسبية؛

فالإحسان والكرم والشجاعة والنظافة والتواضع وحسن المعاشرة... تختلف في درجتها وشدتها ورمزيتها بين شخص وآخر. فالقدر من المال ينفقه زيد من الناس؛ فيدلك علىٰ كرم ما بعده كرم؛ لأنه يشكل بالنسبة له كل ما يملك. وينفق القدر نفسه عمرو، فيدلك بذلك علىٰ بخل ما بعده بخل؛ لأنه لا يشكل شيئاً مما يملك، ولأن أقرانه ونظراءه ينفقون أضعاف أضعافه... ومن ثم فإن من السهل علىٰ كل إنسان أن يقول: فلان أشجع مني لأن سلاحه أمضىٰ من سلاحي، وفلان أكرم مني؛ لأنه يملك الكثير، فماذا أملك؟ وفلان عمل العمل الخيري الفلاني لأن له مصلحة فيه....

والخلاصة أن القيم إذا تسلط عليها العقل بتقسيماته واحتمالاته وموازناته ـ ولا يكون ذلك إلا عند اضمحلال الروح ـ أمكنه أن يوفر للناس تأويلات تجعلهم في حل من الالتزام بالكثير منها. وهذا ما نشاهده اليوم؛ فنحن علىٰ استعداد أن نقول عن موقف (لاأخلاقي) إن ظرف صاحبه صعب، وإن ما عمله ليس شيئاً بالنسبة لما عمله فلان وهكذا...

والحقيقة أنه لا يمكن تصنيف درجة سمو الأخلاق ورمزيتها من خلال نظام أو قانون؛ وإنما الأعراف والثقافة العامة هي التي تتولىٰ ذلك. وهي تختلف بين المجتمعات والعصور خلافاً بيّناً.

٢ ـ يرتب كل مجتمع مجموعة القيم التي يؤمن بها في سلم خاص يوضح مراتبية تلك القيم ومقدار الأهمية التي يوليها لكل منها. وهذا الترتيب لا يأخذ أبداً شكلاً نهائياً ولا مستقراً؛ فنظراً لاختلاف الظروف ومحدودية الطاقات وقبل ذلك تكلفة الالتزام بالقيم، ومدىٰ تجذرها في الثقافة يصير الأفراد ـ كما المجتمع ـ إلىٰ إجراء سلسلة من التوازنات العميقة والسطحية عند قيامهم بتنزيل القيم والمثل التي يؤمنون بها علىٰ الواقع الذي يعيشونه. فحين تتعارض ـ مثلاً ـ قيمة صلة الأرحام وقضاء وقت معهم مع قيمة العمل، أو حين تتعارض قيمة النظافة مع قيمة الراحة، أو قيمة أداء الصلاة علىٰ أول وقتها مع قيمة كسب مادي وفير ـ يسلك الناس حينئذ مسالك شتىٰ في الجمع بين تلك القيم أو إيثار بعضها علىٰ الآخر. وهذا

بالضبط ما يجعل هيمنة الأعراف والثقافات علىٰ توحيد السلوك الاجتماعي ضعيفة، ولا سيما حين تتعقد الحياة الاجتماعية. وتتعزز العوامل التي تمنحها التنوع. وهذا ما نلاحظه من صرامة الأعراف وقدرتها علىٰ ضبط المواقف الأخلاقية في الريف والمجتمعات الضيقة، علىٰ حين نرىٰ ضعف فاعليتها في المدن الكبرىٰ والمجتمعات المفتوحة. ومن ثم فإن نمو المدن واتساعها علىٰ النحو الذي نرىٰ سيضعف من حضور بعض القيم ما لم يكن المجتمع قادراً علىٰ توظيف أخلاقه ومثله واستثمارها في أشكال جديدة تناسب الوضع الجديد.

٣ ـ بما أن كثيراً من القيم يتعلق بالسلوك الفردي للناس، وبما أنها قابلة لأشكال من التأويل والتجاوز والتقدير المختلف فإن فاعلية كثير من القيم ومدىٰ قدرتها علىٰ صبغ السلوك الشخصي بصباغها يتوقفان علىٰ نوعية الإطار المرجعي الذي يستمد المجتمع منه قيمه الكبرىٰ. فالأمم الوثنية والتي لا تدين بدين ما؛ ترتكز قيمها إلىٰ ما تراكم لديها من فلسفات وأعراف وتقاليد عبر الزمن. ومأزق القيم ينبع في الحالة الأولىٰ من أن أي ضعف يعتري وضعية التدين لدىٰ الفرد أو الجماعة ينعكس علىٰ فاعلية القيم التي تستند إليه. وهذا ما نجده واضحاً في حياة كثير من المسلمين؛ فبر الوالدين وإعمار الأرض واستغلال الوقت والجهاد والصدقة ـ كل هذه قيم واضحة جداً في أذهان المسلمين لكن ضعف التدين، ووهن علاقة الناس بربهم، جعل كثيراً من الناس يشعرون أن القيام بأداء هذه الأعمال القيمة عبارة عن تكليف ناجز. أما شعورهم بالمكافأة الأخروية عليها فهو ضعيف. وبالتالي فإنهم يفقدون الطاقة اللازمة والمحرض الضروري للبذل والعمل. ووضع القيم في هذه الحالة أشبه بـ(مصباح الكهرباء) تضعف إضاءته وإشعاعه كلما انخفض التيار الوارد عليه. وقد سجلت هذه الأمة أثناء إقبال الإسلام والتدين العميق من المبادرات والأعمال الخيرة والسلوك الحميد ما ينتزع الدهشة، ويثير الإعجاب!.

أما في الحالة الثانية، فإن مأزق الأخلاق يعود إلىٰ أن الأعراف

والتقاليد لا تستطيع أن تجعل من نفسها إطاراً مرجعياً للأخلاق، والممارسات الفردية التي يقوم بها الإِنسان في خلواته وشؤونه الخاصة. أما في وضعية السلوك الاجتماعي، فإن الحركية التي تتسم بها الأعراف والعادات تجعلها لا تضمن الثبات لنفسها فضلاً عن أن تكفله لغيرها؛ ولا سيما بعد أن اتسع مفهوم الحرية الفردية إلىٰ أبعد مدىً في العصر الحديث، حيث يمكن القول إن القانون والنظام قد احتل أكثر المساحات التي يمكن أن يغطيها العرف الشعبي؛ مع أن وظيفة القانون تظل قاصرة عن وظيفة العرف، ولذا فإن مفهوم الأخلاق نفسه قد انحسر إلىٰ أبعد مدىً في الحضارة الغربية الحديثة إلىٰ درجة أن القوم لم يفكروا في مسألة (التربية الخلقية) إلا منذ مدة لا تتجاوز ربع قرنٍ من الزمان!!.

٤ ـ الأصل في حياة البشر أن تكون النظم التي يخضعون لها عبارة عن تجسيدات واستجابات محسوسة للقيم التي يؤمنون بها، وأن تكون سلوكاتهم العامة منسجمة مع مجموعة النظم التي اختاروها وسيلة لتنظيم شأنهم العام. وتظل القيم فاعلة في حياة الناس ما داموا يشعرون بانسجام بين الأنساق الثلاثة: القيم والنظم والسلوكات اليومية؛ فإذا ما حدث لأمر ما أن زالت المطابقة بين القيم التي أفرزت النظم وبين الواقع الاجتماعي؛ فإن فاعلية هذه القيم تأخذ في التراجع؛ فحين يصبح التمسك بخلق معين عاجزاً عن تأمين تحقيق الذات والتقدير الاجتماعي[١] والمكسب المادي الضروري يتعرض ذلك الخلق لضغوط شديدة من أجل التخلي عنه. وهذا ما يعاني منه كثير من المجتمعات الإِسلامية معاناة مرهقة؛ فحين تغلب علىٰ مجتمع ما صفة (الكذب) فإن تحقيق المصالح المادية يصبح أسهل وأقرب عن طريق ممارسته؛ ويظهر الصادق بمظهر الشاذ أو (المسكين) الذي لا يحسن التصرف؛ وبالتالي فإنه يكون الضحية الوحيدة! وحينئذ تدفعه مصالحه، كما يندفع كل من حوله إلىٰ حثه علىٰ الكذب بصورة ما، ولومه علىٰ كل كلمة

---

(١) انظر اغتيال العقل: ٢٥٥.

صدق جرّت له المتاعب. وقليل من الناس آنذاك من يقبل بوضعية التضحية بالمصالح والسباحة ضد التيار.

هذه العوامل التي ذكرناها تمثل محنة حقيقية لكل القيم والمثل التي يعتنقها بنو البشر. وذلك من كمال ابتلاء الله ـ تعالىٰ ـ لخلقه؛ ليرىٰ كيف يصنعون؟!.

حدود أزمتنا القيمية:

لا بد من القول ابتداء إن مدلول كلمة (قيم) أوسع من مدلول كلمة أخلاق؛ فالأخلاق جزء من القيم، وليست القيم كلها. وقد رأينا هنا ذكر ملامح الأزمة القيمية من باب تركيز الانتباه علىٰ أنواع القصور القيمي بشكل عام في المجال الأخلاقي والمجالات الأخرىٰ، وجمعها في حيز واحد.

إن الطبيعة شبه الهلامية للمعايير الخلقية والقيمية عامة تمنح وضعيتها سمات خاصة، تفرض علينا تعاملاً خاصاً. وإذا ثبت أن الأزمة الأخلاقية تستمد الكثير من عواملها ومسبباتها من الأزمات الحياتية الأخرىٰ، وجب علينا أن نتأمل بعمق انعكاسات تلك الأزمات والعلاقات السببية القائمة بينها، حتىٰ نتعلم بعض أساليب وطرق العلاج المطلوب لما نحن فيه. ولعلنا نستجلي ذلك من خلال محاولة استشفاف كنه الأزمة وأسبابها.

أولاً: كنه الأزمة:

لا أظن أن هناك من يماري في أن أمة الإِسلام تعاني من ضعف سيطرة عدد من قيمها علىٰ سلوكها وحركتها اليومية. كما أنها تعاني من عدم وضوح عدد آخر منها في أذهان أبنائها. ولا نريد هنا أن نغوص في هذا، فيكفي التعداد والعرض الموجز لما نظنه قيماً متأزمة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن درجة التأزم تختلف من شخص إلىٰ آخر، كما تختلف من شعب مسلم إلىٰ آخر بحسب تفاوت معطيات الظروف المختلفة الشديدة التعقيد.

ومن تلك القيم:

١ - الالتزام، حيث إن كثيراً من المسلمين لا يؤدون الفرائض، ولا يمتنعون عن المحرمات.

٢ - خلق العطاء والبذل والمجانية؛ حيث تقل لدينا إلىٰ حد بعيد المنظمات الإغاثية والتطوعية التي تسهم في مساعدة الضعفاء والمنكوبين.

٣ - الشفافية الروحية؛ فالتدين الموجود لدىٰ أكثر الناس يميل إلىٰ السطحية؛ فالصلة الحقيقية بالله - تعالىٰ - (الإحسان) لم تعد لباب التدين، كما كان الأمر عند السلف.

٤ - النزاهة؛ حيث إن كثيراً من المجتمعات الإسلامية تجتاحها موجات الرشوة والمحسوبية والالتفاف علىٰ الأنظمة والقوانين وخرقها.

٥ - الشورىٰ، فهي ضعيفة في حياة المسلمين العامة والخاصة، فكل يسعىٰ إلىٰ فرض رأيه وجعل الآخرين تبعاً له.

٦ - الإنصاف وعدم بخس الناس أشياءهم؛ فما لدينا ولدىٰ الصديق خير كله، وما لدىٰ العدو شر كله.

٧ - المستقبلية، وإيثار الآجل علىٰ العاجل؛ حيث التفكير الآني وهمّ اقتناص اللحظة الحاضرة وغض الطرف عن العواقب.

٨ - العدل وتكافؤ الفرص؛ فليس كل مظلوم لدينا قادراً علىٰ الوصول إلىٰ حقه، ولا كل الأكفاء ينالون الفرص التي يستحقونها.

٩ - الفردية؛ حيث روح الفريق لدينا ضعيفة، وإبداعاتنا تأتي من قبل الأفراد لا المجموعات. مع أن الأعمال الكبيرة لا ينجزها إلا الفريق المنظَّم.

١٠ - المشاركة في الحياة العامة وخدمة المجتمع، فكثير من الناس منكفئ علىٰ ذاته أو ساع في تحقيق المصالح الخاصة، حيث الأطر الصالحة لتحريك الجهد الجماعي قليلة أو ضعيفة الفاعلية.

١١ - الإتقان والتجويد؛ فأكثر الأعمال الأدبية والمادية موسومة بطابع العجلة والشكلية ورداءة المستوىٰ.

١٢ - الشعور بالمسؤولية والاعتراف بالخطأ والمصارحة في تشخيص الأدواء والعلل.

١٣ ـ المبادأة والمخاطرة والإصرار علىٰ الوصول إلىٰ الهدف والتنافس الشريف.

١٤ ـ تنظيم الوقت واستغلاله استغلال من يشعر أن الوقت هو الحياة.

١٥ ـ الاقتصاد في الاستهلاك وحسن التدبير والمحافظة علىٰ الثروات ووضع المال في الموضع المناسب.

١٦ ـ التكيف الإيجابي بتفهم شروط الواقع من أجل النهوض به نحو المثال.

١٧ ـ تقدير العمل اليدوي والمهني المنتج[١].

١٨ ـ العملية، فهناك دائماً هوة واسعة تفصل بين أكثر ما لدينا من شروط ونظم وأفكار وبين حقيقة ما يجري؛ بل يصح أن يقال: إن لدينا أفكاراً كثيرة غير قابلة للتطبيق؛ كما أن لدينا أعمالاً كثيرة لم يسبقها أي تفكير!

١٩ ـ الشغف بالجديد والميل إلىٰ الابتكار واجتراح المجهول.

ويمكن القول: إن الضعف في هذه القيم جميعاً إنما جاء بسبب نوعين أساسيين من التخلف، هما: التخلف عن المنهج الرباني وتداعياته، والتخلف عن الركب الحضاري وتداعياته.

ثانياً: أسباب ضعف القيم لدينا:

ينبغي أن نقرر أن المشكلات المختلفة التي تعاني منها أمتنا اليوم؛ لم تولد في يوم واحد ولا في قرن واحد؛ فما نحن فيه هو النتائج النهائية لما تراكم من أسباب وعوامل عديدة ضاربة في أعماق التاريخ. وما كان بالإمكان أن تظل حالة الأمة علىٰ نفس المستوىٰ من الرقي والسمو النفسي والخلقي الذي أحرزته أيام النبي ﷺ وأيام الجيل الذي تربىٰ بين يديه؛ لكن

---

(١) أجريت دراسات عديدة في بعض بلدان العالم الإسلامي، منها: مصر والأردن والكويت علىٰ مجموعات من الشباب، وتبين من خلالها ضعف العديد من القيم التي ذكرناها. انظر ما ذكره كمال المنوفي عن أنظمة القيم في جريدة الحياة في العدد الصادر يوم ٥/١/١٤١٤هـ.

كان، وسيظل بالإمكان إحداث تجديدات وتغييرات تمكّن من استعادة كثير من خلق السلف وقيمهم ومثلهم، ما دمنا مكلفين بمثل ما كلِّفوا به.

ولا يتسع المقام هنا لسرد تفاصيل الأسباب التي أدخلت الأمة في مرحلة الجمود والتفكك والانحطاط. تلك المرحلة التي ظهرت مكوناتها في حادثة سقوط بغداد؛ حيث وجد التتار آلات اللهو والمعازف وزقاق الخمور تملأ البيوت عوضاً عن السيف والرمح وآلات الجهاد!!.

وحين دخلت الأمة في العصور الحديثة؛ واحتكت بالأوربيين في القرن الثالث عشر كانت الأمة في حالة ضعف وشرذمة وشعور بخيبة الأمل، علىٰ حين كان الغرب آنذاك يتوثب للسيطرة علىٰ العالم ووضعه تحت إدارته، وقد فعل. ويمكن أن نضع أصبعنا علىٰ أهم أسباب أزمتنا الخلقية في المفردات التالية:

١ ـ ظلت تعاليم الإِسلام تمد المسلم بالقيم، وتحفز همته نحو مطابقة سلوكه معها. وعلىٰ الرغم من كل ما أصاب المسلمين من بُعد عن دينهم، إلا أنه ظل لهم من مثله وقيمه ما يعصمهم من الانحدار نحو الهمجية والتوحش.

لكن يمكن أن يقال أيضاً: كيف لمسلم يجهل كل شيء عن دينه أن ينفعل به، وينتفع بهديه؟

ويضاف إلىٰ هذا أن الفرد المسلم كان إبان الاحتكاك بالأوربيين يعيش في ظروف صعبة للغاية؛ فهو علىٰ مستوىٰ الثقافة ـ فاقد للوعي بذاته ومنظوماته الرمزية. وأما علىٰ مستوىٰ الواقع؛ فإن الفقر والجهل والمرض والتشرذم وقلة الحيلة وضعف الإِنتاج الحضاري ـ عامة ـ كل أولئك كان يخيم علىٰ أكثر بقاع العالم الإِسلامي! وهذا كله انعكس علىٰ خلق المسلم وفكره انعكاساً سيئاً جداً؛ إذ لا يمكن بحال من الأحوال الفصل بين القيم، والأحوال المعيشية ووسائل كسب العيش والإِنتاج، والضغوط الاقتصادية التي يتعرض لها الإِنسان.

٢ ـ عند احتكاك المسلمين بالأوربيين حصل في الشعور العميق لدىٰ المسلم انبهار بكل ما عليه الغرب من أحوال، وما لديه من قيم ومنتجات.

والعامة وكثير من المثقفين لا يستطيعون التميز بين ما يجب اقتباسه، وما يجب تركه من قيم ونظم؛ ومن ثم فإن السواد الأعظم من الناس امتلكتهم الدهشة والحيرة. أما المثقفون الذين حصلوا علىٰ درجة امتياز؛ فقد كان أكثرهم ممن درس في الغرب، ثم جاء يبشر بالقيم التي رآها هناك، وصنع كثير منهم من أنفسهم وكلاء للترويج لها. وانضم إلىٰ ذلك سعي الغرب الحثيث إلىٰ تدمير النظم الاجتماعية المحلية في كل البلاد المستعمَرة، واتخذ من محو الثقافة الأهلية مدخلاً للإبادة (الإثنية) من خلال ضخ قيمه الحية في تلك البلاد. وبما أن قيم الغرب علىٰ مستوىٰ الإيمان والتواصل والتعاطف الاجتماعي كانت قد تضاءلت منذ عهد بعيد، فإن ما حاول تصديره ونشره في العالم الإسلامي كان قيم العلم والتقنية والتنظيم والفاعلية والتنمية والاستهلاك والمتعة والسيطرة علىٰ الطبيعة. وقد تلقف ذلك كثير من أبناء المسلمين، وراحوا يضغطون به علىٰ قيم التدين والجهاد وإيثار الآخرة، وكل ما يبني الشخصية الإسلامية المستقلة.

٣ ـ استجاب السواد الأعظم من الباحثين والدارسين لدينا لهوىٰ الغرب وضغوطاته، فصار الحديث في وسائل إعلامنا يتركّز بصورة دائمة علىٰ المطالب المادية؛ حتىٰ صار الواحد منا يعتقد أن الرجل الغربي وحده الذي تشكّلُ المطالب الروحية والإنسانية والخلقية أهمية لديه!!. وصارت معاملة الشعوب الإسلامية تتم علىٰ أساس غياب إحساسها بالكرامة والحرية والعدل والمساواة.. وصار من المستغرب لدىٰ النخب المروّجة لثقافة الأجنبي والمنفذة لتطلعاته أن تطالب شعوبنا المستضعفة بشيء سوىٰ الخبز[1]!!. وإن من المؤسف جداً أن حديث المجالس الشعبية صار هو الآخر يدور حول البناء والعقار والأثاث والرياش والمضاربات التجارية

---

(١) نقد السياسة: ٣٠١ وما بعدها.

وأشكال المتع المادية؛ مما أوحىٰ للأجيال الجديدة بمحورية هذه القضايا في الحياة؛ ومما غيَّب الإحساس بالقيم الروحية والأخلاقية السامية!.

هذا التهميش المتعمَّد لقيم الإيمان والالتزام والبذل والعلاقات الاجتماعية الحميمة وما شاكلها من مقومات الحياة الروحية دفع كثيراً من الشباب والكهول دفعاً إلىٰ محاولة ترسيخ هذه القيم وإعادة توطينها في الحسّ الإسلامي والواقع المعيش؛ وذلك لإحداث نوع من التوازن بين مطالب حياتنا الاجتماعية المختلفة.

إحياء الخلق الكريم:

إن من المشكلات التي نعاني منها في معالجة قضايا الإنسان تمزيق أعماله، وفصل مجالات نشاطه الحيوي عن بعضها بعضاً، مما يجعل فهمنا لآلية تولد المشكلات وآلية حلها دائماً مرتبكاً وغير فعال. وهذا ما نجده واضحاً في الطروح التي تتلقاها الساحة حول معالجة المشكلات المختلفة؛ فالذين يحرِّضون الناس علىٰ الاستمساك بالأخلاق الفاضلة، لا يسألون أنفسهم عن مدىٰ إمكانية استجابة الناس لهم، إذا كان الواقع المعيش يجعل من النزاهة والاستقامة والامتناع عن الولوغ في المكاسب المحرمة مأزقاً لا يجلب لصاحبه سوىٰ الفقر والتدني الاجتماعي. كما أنهم لا يسألون أنفسهم عن إمكانية إيجاد تنشئة اجتماعية قويمة لطفل يعيش مع أسرته في خيمة، أو علىٰ الرصيف، أو في بيت يتسولون أجرته من الآخرين! ونتيجة لذلك فإن المهتمين بالأخلاق والتربية الأخلاقية يظنون أن وظيفتهم تنتهي عند قول ما يرونه حقاً وكفىٰ!.

أما الذين جعلوا من قيم التنمية والإنتاج همهم الأكبر؛ فإنهم أيضاً لم يسألوا أنفسهم كيف يمكن بناء هذه القيم في نفوس المسلمين، مع أنهم خلعوها عن إطارها المرجعي (الدين)؛ بل جعلوا شغلهم الشاغل هدم ذلك الإطار، ظناً منهم أنه المعوِّق للتنمية، وتبني قيمها الحديثة، وكيف يمكن ترسيخ قيم يراها المسلم فرعية هامشية، علىٰ حين يرىٰ قيماً هي موضع تقديره واحترامه تُهدم بصورة مستمرة؟!.

إن المسلم لا ينشط لإعمار الأرض وتنمية الموارد، وتنظيم شئون الدنيا عامة إذا لم يمر كل ذلك عبر صلته بالله ـ تعالىٰ ـ وعبوديته له. حيث إن وجود الطبيعة وما يتصل بها من شئون هامشي في حسّه وثقافته؛ فـ(الدنيا مزرعة الآخرة) ليس أكثر. أما الإنسان الأروبي الذي نحاول أن نجعل منه نموذجاً كاملاً؛ فإن فكرة (الإله) في ثقافته الهيلينية ـ المسيحية هامشية، علىٰ حين تحتل الطبيعة والسيطرة عليها المركز والمحور في تلك الثقافة. ومن ثم فإنه ينشط للأعمال الدنيوية دون أي ارتباط بدين أو إله.

وغض الطرف عن هذه الحقيقة جعل جهود وغاظ التنمية في بعث الهمة الحضارية عبارة عن ضرب في حديد بارد، ونفخ في قربة مقطوعة، وكانت نتيجة ذلك وجود نمطين من الناس: نمط أقبل علىٰ الدنيا ومتاعها، وبذل جهده في قنص المنافع المادية لنفسه لا لمجتمعه، ولإشباع غرائزه دون إقامة أي اعتبار للمطالب الخلقية.

أما النمط الثاني فكان عبارة عن فرقاء تمسكوا بالعديد من القيم والمثل الأخلاقية والروحية، لكن دون أن ينشطوا لإعمار الأرض واستثمارها علىٰ الوجه المطلوب، فترىٰ الواحد منهم يسعىٰ سعياً حثيثاً لإدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام، لكنه لا يفعل ذلك؛ ليكون علىٰ رأس عمله في الوقت المحدد! وينشط لأداء العمرة والحج، لكنه لا ينشط في خدمة المواطنين وأداء واجبه الوظيفي أو إشباع فقير..

أما النمط الثالث الذي جمع بين فضائل النمطين؛ فهو قليل لا يرقىٰ ليشكل ظاهرة محسوسة في واقعنا المعيش.

وإذا ما أردنا بناء شخصية المسلم علىٰ نحو يجعل منه: رجل آخرة ودنيا، ورجل مُثُل وعمل، فإن علينا أن نوفر الشروط النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تساعد في ذلك. ويمكن أن نعدد منها ما يلي:

١ ـ إن المسلم بحاجة ماسّة إلىٰ أن يشعر أنه بشر كباقي البشر؛ وأن كرامته ليست أهون عليه من كرامة الآخرين علىٰ أنفسهم. فأنواع الخسف

والظلم وأشكال التمزق والتخلف التي عانىٰ منها المسلم في تاريخه الطويل ـ وما لبث يورثها لأحفاده عن طريق قصص وأمثال وحكم وإيحاءات منوعة ـ كل أولئك غرس في حسّ المسلم وفي (اللاشعور) منه الإحساس بالمهانة والدونية والتدهور المستمر؛ مما جعله يتقبل أشياء كثيرة يأنف الآخرون من القبول بها. ويعزز ذلك الشعور طبيعة الأعمال التي يقوم بها المسلم في كل مجال يحتك فيه مع الأوربيين ـ كما في حالة العمال المسلمين في أوربا ـ حتىٰ إن المتأمل للحال يقتنع أن المسلم لا يكاد يصلح إلا للأعمال البدنية الشاقة والمذلّة! أما أعمال الفكر والتخطيط والتنظيم فهي من شأن (الخواجا) الذي يكاد كثيرون يصدقون بنبل دمائه الزرقاء؛ وكأنه خلق من طينة أخرىٰ!.

شعور المرء بالمهانة والذلة يقطع علينا الطريق نحو استثارة حماسته وتنخيته للقيام بالأعمال الجليلة؛ فـ(العبد لا يكر ولا يفر). ومن ثم فإن العمل علىٰ جعل المسلم يحس بكرامته وقدرته علىٰ الوصول إلىٰ حقوقه، وأهليته للقيام بالأعمال الكبيرة ـ يعد مدخلاً ضرورياً لبناء أخلاقه الفاضلة. وعلىٰ الحكومات أن تسن من التشريعات، وعلىٰ الشعوب أن توجد من الأدبيات والآليات ما يحقق ذلك ويؤكّده.

٢ ـ إن كثيراً من الأضرار التي لحقت المنظومة الأخلاقية لدينا ـ نبع من حرمان المسلم من المشاركة الإيجابية الفعالة في مختلف شئون الحياة؛ فأصيبت ـ نتيجة لذلك ـ بعض أخلاقنا بالتأسن والجمود. ومن هنا فإن من الضروري أن يتاح للمسلم كل ما يساعده، ويدفعه إلىٰ الانخراط في الحياة العامة، وتحمل المسؤوليات المختلفة؛ لأن ذلك يفتح السبيل أمام تألق منظوماتنا الأخلاقية، ويشحذ فاعليتنا الروحية؛ حيث إن الروح الإسلامي لا يمكن له أن يتجلىٰ واضحاً إلا من خلال الأعمال الحضارية العامة. ثم إن إتاحة المشاركة تخفف لدينا ما نعانيه من لازمة التلاوم والعتب والشعور بالإقصاء، وتحميل معطيات الواقع السيئ لبعضنا بعضاً، علىٰ مقدار ما نحاول التنصل منها! إن في كثير من شبابنا طاقات هائلة وخيِّرة، وهي

تبحث دائماً عن الإطار الذي تبدع فيه وتعطي. وإذا لم يتهيأ له ذلك فإن تصريف تلك الطاقات في غير الوجه المشروع والمفيد يبقىٰ هو البديل الأسهل.

٣ ـ إن طبيعة المنظومة القيمية تميل إلىٰ الرمزية. وهي تقوم علىٰ قاعدة من التوازنات المعقّدة. وهذا وذاك يسمحان بتأويل القيم وتجاوزها، علىٰ نحو يلغيها في حياة كثير من الناس علىٰ نحو ما وضحناه سابقاً. ومن ثم فإن أخلاق الفرد المسلم وغير المسلم يمكن أن تصاب بالعطب، بل بالانهيار إذا ما توفرت ظروف سيئة جداً، تجعل التمسك بالفضائل مجلبة للمصاعب والمشكلات، أو تجعل صاحبها يشعر بأنه ضحية الأخلاق الحميدة التي يتحلىٰ بها.

ويمكن أن نجعل (الفقر) العدو الأول للخلق الكريم. وآثار الفقر تظل تحت السيطرة ما دام المجتمع كله فقيراً أو متقارب الحال، لكن حين يلبس أبناء الأثرياء ما يلبسون، ويركبون ما يركبون، ثم يجد الفقير نفسه عاجزاً عن تأمين حذاء لابنه يذهب به إلىٰ المدرسة، أو تأمين ثوب أو ملعقة دواء؛ فإن العواقب ستكون خطيرة علىٰ الشعور بالكرامة وسلوك النزاهة معاً. صحيح أن الله ـ جل وعلا ـ جعل من تمام الابتلاء تفاوت الناس في العيش والرزق[1]، وأنه لا يمكن غير ذلك؛ ومن ثم فقد أخفقت التجربة الاشتراكية في التسوية بين الناس علىٰ نحو ما هو معلوم إلا أن علىٰ المجتمع حكومة وشعباً أن يساعد الضعفاء والعجزة والذين لا يجدون فرصاً للعمل علىٰ الخلاص من الفقر المذل وتأمين الضروريات لهم ولأسرهم؛ وإلا فإن علىٰ المجتمع أن يكون مستعداً لتخريب منظوماته الأخلاقية وتدمير شبكة علاقاته الحيوية. وحينئذ لن يستطيع أحد أن ينجو!.

وهذا ما وقعت فيه شعوب كثيرة اليوم؛ فحيث يكثر الفقراء، ولا

---

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً...﴾ [الزخرف: ٣٢].

يجدون العون المناسب من أحد يكثر الاحتيال والرشوة والسرقة والكذب والتملق والمديح الكاذب والمتاجرة بالكرامة؛ حتىٰ بالعرض! وهذا يعني أن بناء المنظومة الأخلاقية علىٰ الوجه المطلوب لا يمكن أن يتم في فراغ، ولا من خلال الحث والتحفيز، إذا لم يساند ذلك ظروف مواتية تساعد المسلم علىٰ التخلق بالخلق الأسمىٰ، ولا تجعل موقفه الأخلاقي سبباً في عقوبة المجتمع له.

٤ ـ قدمنا أن كل أحاديث الناس وفعاليتهم صارت تتمحور بصورة أساسية حول الاقتصاد والتنمية وتداعياتهما، وما يرتبط بهما. وتجاوز ذلك أحاديث المجالس، ليصبغ كثيراً من الخطط التنموية الخمسيّة والعشريّة التي ترصد لتنفيذها الأموال الطائلة؛ فقلَّ أن نجد في خطة بنوداً مستقلة يصرف منها علىٰ مؤسسات وأطر وبرامج تستهدف تأصيل الأخلاق الكريمة في المجتمع ورفدها بما يشخصها في الواقع العملي، أو أن نجد بنوداً للإِنفاق علىٰ برامج وأنشطة تحارب الكذب والرشوة والتبذير والشح وعقوق الوالدين وإضاعة الوقت، وما شاكل ذلك من الأخلاق والعادات الذميمة.

ومن ثم فإن من واجب الحكومات والهيئات الشعبية والمؤسسات الخيرية والوسيطة أن توجد آليات جديدة لتقدير المواقف الأخلاقية التي يقفها بعض الأشخاص، وذلك كإصدار شهادات ثناء وشكر، ومثل إطلاق أسمائهم علىٰ بعض الشوارع والمعاهد والمؤسسات والمخيمات... والتنويه بكل صورة ممكنة بأولئك الكرماء الشرفاء؛ حتىٰ نغرس في حسّ الأجيال المقبلة ملامح الأخلاق المدنية الطيبة التي يسعىٰ مجتمعهم إلىٰ ترسيخها وتوكيدها.

٥ ـ لا سيادة للقيم بدون تضحية. وديننا هو دين التضحية ودين الفداء والعطاء والبذل السخي. وإذا كنا نظن أننا نستطيع أن نكون من ذوي الخلق النبيل بدون أن ندفع ثمناً لذلك؛ فنحن واهمون. فلذَّة راحة الضمير، والتمسك بالمبدأ، والشعور بالأناقة ونشوة الانتصار علىٰ الأهواء، لا تكون أبداً مجانية وبدون مقابل. وعلىٰ قدر انهيار المجتمع وتآكله يكون

الثمن أكثر. وكلما كان المجتمع أقرب إلىٰ الخير والصلاح كانت التضحية أقل.

ومن العسير علىٰ الواحد منا أن يكون قدوة في كل شيء ـ فذاك شأن ذهب به الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ لكن بإمكان كل واحد منا أن يكون قدوة لمجتمعه في أمر من الأمور؛ فهذا قدوة في خدمة إخوانه، وذاك قدوة في المحافظة علىٰ الوقت، وثالث قدوة في صلة الأرحام وبر الوالدين ورابع قدوة في المحافظة علىٰ الصلاة في الصف الأول وهكذا...

وهؤلاء القدوات هم الرموز التي ترفع سوية المجتمع، وتجذبه نحو الخير والفضيلة، كما أنهم مصدر مهم من مصادر التفاعل والتجديد القيمي.

وانظر معي كيف ستكون حال منظوماتنا القيمية لو أنها خلت من النماذج الرفيعة في تاريخنا في الكرم والشجاعة والعدل والتضحية والإتقان والتفكير المنطقي الحر...

وهذا الفهم للمسؤولية الأخلاقية يلقي علىٰ كل واحد منا جزءاً من تبعة كل تدهور أخلاقي يمكن أن يصيب إخواننا وأبناءنا، كما أنه في الوقت ذاته يمنح الفرصة الذهبية لكل واحد منا؛ كي يقدم شيئاً في سبيل جعل واقعنا استجابة حية لمعتقداتنا وقيمنا وأخلاقنا.

٦ ـ يسعىٰ الإسلام في بنائه قواعد التراحم والتعاطف والتعاون وحفظ المصالح بين البشر إلىٰ إيجاد أطر أوسع من الدائرة الإنسانية؛ وذلك من خلال إيجاد بعض الأدبيات والقواعد التي تربط المسلم بالطبيعة وبالحيوان وسائر الموجودات، وذلك لترسيخ وحدة الخَلْق والترابط التسخيري بين وحدات الكون، ومن أجل أن يشكل ذلك خط الدفاع الأول عن قيم التراحم والتواصل الإنساني إذ من المستبعد أن يتورع الإنسان عن الإسراف في استهلاك الأشياء المجانية ثم يسرف في استهلاك ممتلكات مدفوعة الثمن. كما أنه من المستبعد أن يتورع إنسان عن قتل حيوان بغير حاجة أو غرض، ثم يستهين بقتل إنسان. وإنا لنجد في هذه المسألة سيلاً من التوجيهات الربانية، نقتصر علىٰ بعضها:

أ ـ المحافظة على البيئة نظيفة صالحة للعيش والمحافظة على مواردها وعدم استنفادها في غير مصلحة الإنسان، أو على وجه يتجاوز حاجات الانتفاع البشري. وفي هذا نجد أن الله ـ تعالى ـ يمتن على الناس بتسخير الطبيعة لهم، ويطلب منهم شكر ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]. فالخيرات التي يتمتع بها البشر فضل من الله ونعمة، وعلى الناس أن يشكروه عليها. ومن لوازم الشكر استخدامها على وجه الانتفاع وفي مرضاة الله. ونجد هذا واضحاً في تحريم الإسلام قتل الصيد لغير حاجة، ونهيه عن قطع الأشجار التي ينتفع بها العامة، ويستظلون بها. وفي هذا ورد قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«من قطع سدرة في فلاة صوّب الله رأسه في النار»**[2]. وعلق على هذا الإمام الخطابي بأن حاجة الفقير والمسكين الذي يستظل بهذه الشجرة وراء هذا النذير والوعيد بالعذاب الأليم. ويمكن أن يقال إن هذا النهي يتجاوز في مقاصده ما ذكره الخطابي إلى المحافظة على التوازن البيئي وثراء الطبيعة. ويدل على ذلك نهيه ﷺ للجيوش عن قطع الأشجار مع أن حالة الحرب حالة استثنائية وطارئة.

ومن محافظة الإسلام على موارد البيئة التحذير والنهي عن الإسراف في استعمال المياه التي جعلها الله سبباً مهماً من أسباب حياة الكائن الحي. وقد نهى النبي ﷺ رجلاً يسرف في استعمال الماء في وضوئه، فقال الرجل متعجباً: أفي الوضوء إسراف؟ فقال: **«نعم ولو كنت على نهر جار»**[3].

ووجّه الإسلام المسلمين إلى المحافظة على نظافة البيئة، وحذّر من إلقاء أهل البيت فضلات بيوتهم في طريق المسلمين، إلى جانب حثه على

---

(١) سورة (يس): الآيات ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه ابن ماجه.

إماطة الأذىٰ عن الطريق؛ كما أنه نهىٰ عن التبول في الماء الراكد[1]، وعن التبرز في طريق الناس ومستظلاتهم[2].

ب ـ أما بناء تعاطف المسلم مع الحيوان ورحمته به، وحسن الاستفادة منه وعدم تحميله ما لا يطيق، وعدم قتله لغير انتفاع، وتأمين حاجاته ـ فهناك الكثير من النصوص التي توجّه إلىٰ ذلك، منها قول النبي ﷺ: **«عُذّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[3].

ومر ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ حمار قد وسم في وجهه، فقال: **«لعن الله الذي وسمه»**[4]. وذلك لما في وسمه من التعذيب. وحين رأىٰ قوماً اتخذوا طيراً هدفاً يرمونه بسهامهم قال: **«لعن الله من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً»**[5]. وحين رأىٰ حمرة (طائراً) تحوم تطلب أفراخها التي أخذها بعض الصحابة من عشّها قال: **«من فجع هذه بولدها؟ ردوا عليها ولدها»**[6] ويتجاوز الأمر ذلك كلّه حين يأمر الإِسلام بحسن معاملة الحيوان عند ذبحه أو قتله؛ فإذا كان لا بد من الاستفادة منه فليكن ذلك بطريقة مشوبة بالرحمة والرفق؛ وفي هذا يقول ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليرح أحدكم ذبيحته، وليحد شفرته»**[7].

جـ ـ في الدائرة الإِنسانية العامة وجهنا الإِسلام إلىٰ نصرة المظلوم

---

(١) كما في رواية مسلم وغيره.

(٢) انظر مقالاً للدكتور إبراهيم زيد الكيلاني في ندوة اتجاهات الفكر الإِسلامي المعاصر: ١٠٩، ١١٠.

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه الشيخان.

(٦) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٧) أخرجه مسلم.

حتىٰ يصل إلى حقه، وإغاثة الملهوف وإكرام الضيف، والإِحسان إلى الجار، وشكر من أحسن إلينا وتخفيف الآلام عن الناس بقدر الإِمكان، واستحب لنا التصدق ببعض فائض أموالنا، وكل ذلك عام في كل إنسان سواء كان مسلماً أم كافراً؛ ما لم يكن محارباً فهناك تفصيلات.

هذه المعاني التي قدمناها تشكِّل خلق المسلم علىٰ نحو إيجابي ومتعاون ومتعاطف مع المخلوقات جميعاً؛ كما أنها تبرز الوجه الحضاري المدني للإِسلام كما تبرز الوجه الرسالي الدعوي لهذه الملة العظيمة! وإن من واجبنا أن نعلم أطفالنا هذه الأخلاق، ونربيهم عليها حتىٰ نرقىٰ بالجوانب الخلقية لدينا إلىٰ أسمىٰ غاياتها وآفاقها.

٧ ـ تاريخنا ثري جداً بالمواقف الأخلاقية النبيلة؛ حيث تتجلىٰ فيه صور رائعة لا تحصىٰ من الشهامة، والمروءة والكرم والتعاطف والتضحية وحب الاستشهاد. . .

ومن واجبنا أن نبرز تلك الصور للناشئة، وذلك بنشر الكتب التراثية المتضمنة لها، ومن خلال نسج القصص القصيرة حولها وتأليف المسرحيات والتمثيليات التي تحكي للأجيال الجديدة خير ما في ذلك التاريخ. وبإمكان الأدباء والكتّاب وأصحاب دور النشر والمكتبات الصوتية ووسائل الإِعلام المختلفة أن ينهضوا بهذا العمل الجليل، عوضاً من الأعمال الكثيرة التي تخرب أخلاق الأجيال، وتلك التي تنشر الغثاء من الكتيبات والرسائل؛ حيث لا نفع لأحد منها سوىٰ فئة محدودة من مثقفي التجار وتجار المثقفين!.

٨ ـ مهما بذلت الأمة من جهود في ترسيخ القيم والمثل العليا في حياتها، فسيظل في الناس من يميل ـ لاعتبارات شتىٰ ـ إلىٰ أن يكون نموذجاً سيئاً ولبنة رخوة في البناء الاجتماعي. ومن ثم فإن تماسك المجتمع والحرص علىٰ طهارته هو الضمان الحقيقي لمحاصرة الشر ورموزه. ثم إن الصلاح إذا كان غالباً فإن عافية المجتمع تسمح له بتحمل آثار الانحرافات الجزئية التي تقع من بعض أفراده.

ومحاولة ضبط الأفراد لا تنسينا ـ بالطبع ـ أن القيم لا تفرض فرضاً علىٰ أحد بل إنها لا تدفع؛ لكنها تجذب من خلال المثل الطيب والقدوة الحسنة. ولذا فإن الأمم لا تفقد في الغالب قيمها الفاضلة، لكن تلك القيم تفقد الجاذبية التي تساعد علىٰ الاستعلاء علىٰ الظروف القاهرة. لكن الامتثال الاجتماعي لا يقوم دائماً علىٰ القناعة؛ فلا بد أن يكون للمعالجة والمسايرة بل والخوف حظ في خضوع الناس للمجتمع الذي يعيشون فيه.

إن الإسلام يضمن الحرية الفردية لكن المواقف (اللاأخلاقية)، والسلوكات السيئة، تحدث الارتباك في وعي الأمة بمنظوماتها الخلقية، وربما كان تأثير أصحابها في خبال المجتمع واضطرابه لا يقل عن تأثير المستعمر الذي يحتل الأرض، وينهب الخيرات... وربما كان التشهير بالمفسدين عن طريق وسائل الإعلام المختلفة خير وسيلة لردعهم وتحجيمهم. وذلك علىٰ مقدار ما يحاصر ذوي الأخلاق المنحرفة يساعد الأمة علىٰ بلورة وعيها بمنظوماتها الخلقية.

وأخيراً فإن التحلي بالأخلاق الفاضلة هو عمل فردي ـ جماعي، وإن المتابعة والتضحية شرطان دائمان لدوام ذلك. والعاقبة للتقوىٰ.

المجتمع المنشود

زرع الله - جل ثناؤه - في فطرة الإِنسان الميل إلىٰ معايشة أفراد جنسه، والأنس بهم، وإقامة العلاقات التبادلية والتكاملية معهم. ووجود المعايشة الاجتماعية شرط أساسي في تمدين الإِنسان ورقيه ونموه المتكامل؛ فهو لا يتعلم اللغة، ولا يكتسب العادات والتفكير الراقي، ولا يرقّي سلوكه ومنتجاته المادية إلا من خلال تعاونه مع أخيه الإِنسان، وحين هبط آدم - عليه السلام - من الجنة لم يهبط وحده، وإنما هبطت معه زوجه حواء ليشكلا معاً نواة الجماعة الإِنسانية الأولىٰ. وهبط معه إبليس؛ ليكون وجوده في الأرض جزءاً من الابتلاء، وبوابة مشرعة للصراع بين الحق والباطل الذي سيمكن الإِنسان من الوعي بذاته، وبلورة جوهره وإثارة طاقاته الكامنة. . .

وللمجتمع تعريفات كثيرة[١] جداً يمكن أن ندمج منها تعريفاً مقارباً كقولنا: إنه «أوسع تجمع للناس الذين يتشاطرون عقائد ونظماً مشتركة من الاتجاهات والعادات، والمثل، ويتطلعون إلىٰ أهداف عامة مشتركة، مع سكناهم في أرض محددة، واعتبارهم أنفسهم وحدة اجتماعية واحدة».

كل مجتمع مضطر إلىٰ أن يقسم نفسه إلىٰ وحدات أو جماعات عديدة علىٰ أساس قرابي أو إقليمي أو مهني أو ثقافي. . . وذلك باندفاع من الألفة أو المصلحة أو سهولة التفاهم. ويمكن أن نعرف الجماعة بأنها: «وحدة اجتماعية تتكون من عدد من الأفراد يشغلون مراكز محددة، كما يقومون

---

(١) انظر الاجتماع ودراسة المجتمع: ٤٧ وما بعدها.

بأداء وظائف محددة بالنسبة لبعضهم بعضاً، ولديها جهاز من القيم والمعايير خاص بها، ينظم سلوك الأفراد فيما يؤثر في بقاء وحدة الجماعة بصورة أخص»[1].

إن المجتمع في حقيقة أمره مجموعة أنظمة، وإن الإنسان حين يجتمع مع أخيه الإنسان، ويتفاعل معه في موقف من المواقف لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا من خلال مجموعة من النظم والمعايير؛ حتىٰ إن الصغار من الأطفال - كما يرىٰ بياجيه - الذين لم يتم بعدُ تنشئتهم اجتماعياً يقيمون قواعد ومعايير للتفاعل عندما يلعبون مع بعضهم بعضاً[2]. ويزداد المجتمع تعقيداً مع نموه وتقدمه، وحينئذ فإن علاقاته ونظمه تتجه أيضاً إلىٰ التعقيد، وتحتاج إلىٰ بلورة وتوضيح أكثر؛ حتىٰ لا تنشب النزاعات نتيجة سوء الفهم واستغلال الغموض في العدوان أو تحقيق مصالح غير مشروعة.

ومما يجب التأكيد عليه في البداية أن لله - جل ثناؤه - سنناً ماضية تحكم علاقات بني البشر في مجتمعاتهم. وتلك السنن لا تبتعد - علىٰ المستوىٰ النظري كثيراً عن سننه في الطبيعة والكون عامة[3]. والسنن عامة لا تكشف عن وجهها للذين لا يعترفون بها، ولا لأولئك الذين لا يعيرونها أي اهتمام؛ وإنما تتجلىٰ للذين يبذلون عرق الجبين في استنباطها وتتبعها وتحليلها. ويؤسفني القول: إننا لم نبذل من الجهود ما تستحقه معرفة السنن الاجتماعية، مع أنها تمثل المدخل لكل إصلاح.

البناء الاجتماعي:

يمكن القول: إن المجتمع عبارة عن وحدات أو مجموعات متمايزة،

---

(١) السابق: ٧٧ مع شيء من التصرف.

(٢) دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية: ١١.

(٣) يرىٰ (سبنسر) أن المجتمع البشري يشبه الكائن العضوي، وهو جزء من النظام الطبيعي للكون؛ ومن ثم فإن السنن التي تحكم الجسم الحيّ هي نفس السنن التي تحكم المجتمع البشري في مقوماته ونظمه وفي تغيره وتطوره أيضاً. انظر مقومات المجتمع المسلم: ١٤، ١٥.

تقوم بينها علاقات منظمة. وتلك العلاقات تتحكم فيها معايير وقواعد محددة.

ولا يقتصر انتماء الفرد ـ في أكثر الأحيان ـ علىٰ مجموعة واحدة؛ بل ينتمي إلىٰ مجموعات عديدة قد تصل إلىٰ عشرة أو عشرين. وهذا الانتماء منه ما هو قهري لا حيلة للمرء فيه، كانتمائه إلىٰ أسرته وقبيلته، ومنه ما هو طوعي، كما في حالة انتمائه إلىٰ نقابة أو ناد أو رابطة ثقافية. وانتماؤه القهري إلىٰ جماعة من الجماعات يكون (رسمياً) شكلياً في أغلب الأحيان. ويؤمن له ذلك الانتماء نوعاً من المرجعية؛ علىٰ حين يؤمن له الانتماء الطوعي تحقيق بعض حاجاته النفسية وتحقيق بعض أهدافه. وتكون درجة تفاعله وعطائه وانسجامه في هذا الانتماء أعلىٰ وأوفر. ويمكن القول: إن كثرة انتماءات الفرد الاختيارية تعد مؤشراً واضحاً إلى حيويته وانفتاحه علىٰ مجتمعه. كما أن كثرة خيارات الانتماء ووفرة المجموعات والوحدات الطوعية دليل آخر علىٰ مدىٰ تقدم المجتمع وحيويته وإمكاناته في استيعاب تطلعات أفراده.

أما المجتمعات التي لا يتوفر فيها إلا مجموعات الانتماء القهري فإنها إلىٰ البدائية والركود أقرب.

وتميل المجتمعات علىٰ كل حال إلىٰ ضبط سلوك أفرادها، وإيجاد نوع من التماثل والتجانس بينهم وفق القيم والمعايير التي تسودها. ويمكن القول: إن المجتمعات تمارس علىٰ أفرادها ضغوطاً رهيبة كيما تحافظ علىٰ تماسكها ووحدتها. ويتذرع المجتمع إلىٰ ذلك بجعله كل فرد من أفراده رقيباً علىٰ تصرفات غيره من أجل ضبطها وسوقها في مساقات متجانسة إلىٰ أقصىٰ حد ممكن.

وقد لوحظ أن أعضاء الجماعة وهم يحاولون التماهي معها لا يرتفعون عن المستوىٰ الذي تحدده الجماعة، كما أنهم لا ينخفضون عنه في أكثر الأمر. والذين يجازفون في التحرر من قيودها فئات محدودة جداً من أمثال ضعاف العقول والشاذين وبعض العباقرة الكبار؛ إذ ليس بين العبقرية

والجنون في هذا الموضع سوىٰ شعرة واحدة[1]!.

وحرص السواد الأعظم من أبناء الجماعة علىٰ التماثل معها يحولهم إلىٰ (مرايا) تعكس لبعضهم بعضاً واقع استجاباتهم؛ ففي عقل كل فرد عملية دائبة التساؤل: كيف أبدو للآخرين وأنا أتفاعل معهم؟ وكيف يفسرون ما يرونني عليه؟ وما تقويمي لنفسي بناء علىٰ رأيهم هذا فيّ؟. ولربما كان كثير من ذلك من باب الوسوسة؛ حيث لا يشعر كثير من الناس بوجوده، ولا يقومون بوزن ما هو فيه[2]؛ ولكنه الخوف من نبذ الجماعة والرغبة في استحقاق عضويتها بجدارة. ولا يخفىٰ أن درجة ضبط المجتمعات لسلوك أفرادها ومدىٰ نجاعة رقابتها عليهم متفاوتة إلىٰ حد بعيد. وهي تتأثر بعوامل عديدة منها: بساطة الثقافة وتعقدها؛ فالثقافة المعقدة المتنوعة والغزيرة تتيح أنماطاً كثيرة من السلوك؛ كما تسمح بمقتضىٰ غزارتها بمواقف اجتماعية أكثر تبايناً، علىٰ نحو ما نشاهده في المجتمعات الغربية. ويصاحب ذلك في العادة نمو للمعايير الشخصية علىٰ حساب المعايير الاجتماعية؛ فحرية الفرد عندهم قد احتلت مساحات أوسع بكثير مما هو مسموح به في المجتمعات الأخرىٰ.

ومن المؤثرات في درجة الضبط الوضع السكاني؛ ففي القرىٰ والأرياف وفي مضارب القبيلة تكون الرقابة الاجتماعية أشد، ويكون الفرد تحت المجهر؛ مع ضيق مساحة الخصوصيات. أما في المدن الكبرىٰ فتكون الرقابة أضعف، حيث الصلات بين الناس أضعف وأقل، كما أنها تكون (رسمية) في غالب الأمر، وحيث يتوكد في حسّ الناس وعرفهم ضرورة الإعذار وغض الطرف عن أشياء عديدة مما لا يرضون عنه، أو مما لا يستوعبه وعيهم الاجتماعي.

وعلىٰ ما للقهر الاجتماعي من مزايا وفوائد في ضمان استقرار

---

(١) انظر في هذا الاجتماع ودراسة المجتمع: ١٣٣.

(٢) السابق: ١٨٠.

المجتمع وتفاهمه واستمرار الجماعة؛ فإنه يفرز بعض الأعراض الجانبية الضارة، من نحو النفاق الاجتماعي والمراءاة، حيث يكون التماهي مع الجماعة شكلياً.

ومن نحو إحباط كثير من المبادرات الفردية والتجارب المتفتحة علىٰ مستوىٰ الفكر والعمل، والتي قد يكون المجتمع بأمسّ الحاجة إليها.

ولتلافي ذلك فإنه لا بد للمجتمع من أن يساعد الأسرة والمدرسة ومحاضن التربية الفردية الأخرىٰ علىٰ تنمية الوازع الأخلاقي الداخلي لدىٰ الفرد كما أنه لا بد للمجتمع حتىٰ يضمن تجدده وتلافي أخطائه من أن يشجع روح المبادأة لدىٰ أفراده، ويفسح صدره لكثير من الاعتراضات والمناقشات حول أوضاعه العامة.

ولا يتم شيء من ذلك إلا بعد أن يكون وعي المجتمع بذاته ومحاوره وهامشياته جيداً؛ حتىٰ يتمكن من تقديم ثقافته لأبنائه علىٰ نحو مقنع؛ وحتىٰ يتمكن من روز التجديدات المقترحة لبناه المختلفة والكشف عن مساهمتها في تجديد المجتمع، إلىٰ جانب الآثار التي قد تتركها في وحدته وانسجامه.

الترابط الاجتماعي:

حين تطلب الجماعة من أفرادها نوعاً من التجانس والتماثل معها؛ فإنها لا تفعل ذلك دون أن تقدم الثمن؛ فهي تلبي لأبنائها مقابل القيود التي تفرضها إشباع حاجات عديدة لا يمكن لهم أن يشبعوها من غيرها، بل إنه ليصح القول: إن الجماعة لا تستطيع أن تمارس من فرض معاييرها الاجتماعية إلا علىٰ مقدار ما تستطيع أن تقدمه لأفرادها من خلال كونها جماعتهم التي يعتزون بالانتساب إليها.

وحين نطالع التعليمات الإسلامية في هذا الشأن نجد توسط الإسلام علىٰ نحو دقيق جداً؛ إذ علىٰ المجتمع أن يقدم كل ما في وسعه من تعاطف وتضامن مع أبنائه، كما أنه يحث الفرد علىٰ الحرص علىٰ مجتمعه

ومحاولة الامتثال له والانسجام معه في كل ما لا يشكل خروجاً على المعتقدات الأساسية والمبادئ العامة التي على المجتمع كله أن يرضخ لها.

ونجد من التشريعات والنظم في جانب حنو الجماعة على الفرد ما يلي:

١ ـ يفسح المجتمع الإسلامي لكل فرد فيه مجال الريادة والأفضلية والصدارة على مقدار ما يتمتع به من خصال الخير والكمال من وجهة نظر الثقافة الإسلامية؛ وذلك بقطع النظر عن نسب ذلك الفرد وعرقه وجاهه وماله.... وفي هذا يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. وقد ولى المسلمون عليهم بعد وفاة النبي ﷺ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو من تيم أذل فخذ في قريش. وحين بلغ أباه أبا قحافة ما صنعه الناس تعجب من ذلك وقال: لله في خلقه شئون!. كما أن النبي ﷺ ولى أسامة بن زيد مولاه إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر، على ما هو معروف.

٢ ـ يؤمن المجتمع الإسلامي للمسلم الشعور بالانتماء، كما يدفع عنه مشاعر الاغتراب، ويقدم له الدعم المعنوي من خلال إجراءات كثيرة جداً، حيث يشعره باهتمام الناس به من خلال إلقاء السلام ـ وقد كان النبي ﷺ يلقي السلام على الأطفال! ـ وزيارته وعيادته إذا مرض ومن خلال مشاركته في أفراحه، وتعزيته عند مصابه، والذب عنه إذا ظُلم، وإغاثته في حالة الأزمات، والذب عن عرضه، والدفاع عنه في حال غيابه، وكف الأذى عنه، ونصحه وتشجيعه على أعمال الخير وغير ذلك، مما يجعل المسلم يحس بأنه عضو في جماعة توليه ما يستحقه من الرعاية والاهتمام.

٣ ـ لا يغفل الإسلام الحالة المادية في الترابط الاجتماعي، حيث يأمر المجتمع بمساعدته عند الحاجة من أموال الزكوات والصدقات والكفارات

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

والنذور والقرض الحسن، كما أنه يساعده من خلال الاقتطاع من مال الجماعة ـ حين تدعو الحاجة ـ بما يؤمن له حد الكفاية علىٰ مقتضىٰ ما يراه الحاكم المسلم مناسباً. وحين ينفعل المجتمع المسلم بتوجيهات الإِسلام في هذا الشأن يكون أفراده أرغد الناس عيشاً وأكثرهم أمناً وطمأنينة وشعوراً بالتضامن الأخوي.

أما حقوق المجتمع علىٰ الفرد فيمكن إيجازها في التالي:

١ ـ محاولة الفرد المسلم التماثل مع مجتمعه، من خلال مبادئه العليا، ومراعاة أعرافه وآدابه ـ في إطار الشريعة ـ وليس ذلك فحسب، وإنما الدعوة إلىٰ تلك المبادئ والآداب ومساعدة الآخرين علىٰ تمثلها، وحمايتها والدفاع عنها.

٢ ـ المبادرة الخيرة في بناء مجتمعه والتطوع الكريم لمساعدة أبنائه علىٰ حل مشكلاتهم المعنوية والمادية علىٰ قدر الاستطاعة.

٣ ـ تأدية الحقوق العامة التي يفرضها العيش في مجتمع، سواء أكانت تلك الحقوق معنوية أم مادية، من نحو مساعدة الضعيف، وكفالة اليتيم، وإكرام الضيف والإِحسان إلىٰ الجار، والدفاع عن الوطن الذي يعيش فيه، وبذل النفس والمال في درء العدوان عنه، والمحافظة علىٰ سمعته بين الأمم.

٤ ـ محاولة المحافظة علىٰ حيوية المجتمع، وجعله يسير في الاتجاه الصحيح، وذلك من خلال مبدأ الدعوة والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحسبة والاقتصاد في الإِنفاق، وحفظ الموارد المادية المتاحة، واستغلالها علىٰ الوجه الأمثل والمحافظة علىٰ مرافقه العامة، والمساهمة في تنميتها وصيانتها...

ولكل ما ذكرناه تكميلات وتفصيلات لا يعنينا كثيراً استكمالها. لكن الذي ينبغي أن يقال: إن علىٰ الفرد المسلم أن يعلم أن رقيه في النهاية مستمد من رقي مجتمعه؛ حيث إن الجزء ـ في هذا الباب ـ يساوي الكل،

كما أن الكل يساوي الجزء؛ فالانتساب إلىٰ شعب عظيم يرفع من قدر المرء مهما كان، والانتساب إلىٰ أمة وضيعة ينزل بقدر المرء مهما كان. ثم إن النهوض بالمجتمع المسلم من القربات التي علىٰ المسلم ألا يحرم نفسه منها. كما أن علىٰ الإرادة الجمعية، وعلىٰ المؤسسات والسلطات الاجتماعية والحكومية المختلفة أن تساعد أبناء المجتمع وأفراده علىٰ العيش فيه بأمن وكرامة، وأن تساعدهم علىٰ الوصول إلىٰ حقوقهم المشروعة، وأن تحاول تهيئة الفرص المتكافئة أمامهم؛ إذا ما كانوا ينتظرون منهم البر والوفاء والعطاء.

ويلخص كل ذلك المقولة الذائعة: «أنا لمجتمعي ومجتمعي لي». وما لم نفعل ذلك فإن تحول المجتمع إلىٰ حشد من الأجساد لا تربط بينهم سوىٰ روابط شكلية تافهة سهل الحصول؛ وحينئذ فلن يكون ثمة رابح، ولن ينجو أحد!.

التفكك الاجتماعي:

لا يعني تفكك مجتمع شيئاً سوىٰ انهياره؛ إذ إن الأمم لا تستأصل شأفتها ـ في الغالب ـ وإنما يموت ما يجعل منها أمة واحدة، أي: التجانس في المعتقدات والآمال والأهداف والتقويمات المشتركة.

وذلك التفكك يكون أشبه شيء بثوب أعدناه إلىٰ مادته الخام، وحولناه إلىٰ خيوط. ومن هنا فإن انزلاق المجتمع وصيرورته إلىٰ حشد من الأفراد لا تربط بينهم سوىٰ عبقرية المكان، يظل وضعاً جاهزاً خلف الباب، إذا ما تم إهمال رعاية الشأن الاجتماعي العام، ومداراته إلىٰ أقصىٰ حد ممكن. ويمكن أن نوجز العوامل التي تؤدي إلى التفسخ الاجتماعي في المفردات التالية:

١ ـ الأصل في حياة الناس أن يكون هناك انسجام بين مبادئهم ومصالحهم. وتكون مهمة الثقافة والمجتمع تأسيس المعايير والنظم التي تساعد علىٰ تحقيق مصالح الأفراد، وتلبية رغباتهم وطموحاتهم، علىٰ هدي

المبادئ العامة التي تمثل العمود الفقري للعقيدة الاجتماعية. ويحدث الوهن الاجتماعي حين يشعر الناس أنه لا يمكن لهم أن يحققوا مصالحهم المشروعة من خلال العقيدة الاجتماعية السائدة والنظم المعمول بها، فيصيرون إلىٰ تحقيقها بطريقتهم الخاصة؛ لكن ليس بدون انحطاط أخلاقهم! أما القلة من أبناء المجتمع فإنهم يكافحون من أجل إحياء فاعلية النظم، والبرهنة علىٰ أنه يمكن تحقيق الرغبات والطموحات المشروعة من خلال النظام؛ لكن الثمن سيكون الشعور بخيبة الأمل، حيث يمتلكهم الشعور بأن الأكثرية علىٰ خطأ، وحيث يشعرون بتقديم التضحيات الجسام إلىٰ مجتمع لا يستحقها!.

والابتلاء الإِلَهي لنا في هذه الحياة يقضي بعدم تطابق مصالحنا مع مبادئنا دائماً؛ ليرىٰ الله ـ جل وعلا ـ كيف نتصرف وعلىٰ أيهما نضغط في حالات الشدائد والمكاره. ومن ثم يمكن القول: إنه لم يحدث أن شعر جميع أفراد مجتمع بأن مصالحهم متطابقة دائماً مع مبادئهم، ويمكن الوصول إليها عن طريقها بشكل مستمر؛ فلا بد من وجود أفراد يشعرون باستحالة تحقيق وجودهم العام إلا من خلال الخروج علىٰ النظام؛ أو هكذا لسان حالهم. ولكن المهم هو النسبة، فالمجتمع المعافىٰ يشعر السواد الأعظم من أبنائه بالانسجام بين المبادئ والنظم والمصالح. وهو بتلك الكتلة الضخمة يستطيع تحجيم الشواذ والمنحرفين ومرضىٰ النفوس والخارجين علىٰ النظم، كما أنه يستطيع تحمل الإِفرازات السلبية لسلوكاتهم. لكن الطامة الكبرىٰ حين يرتب الواقع الاجتماعي العقوبات والخسائر وتفويت المصالح علىٰ كل من يلتزم بقيم المجتمع ومثله، ويأتي البيوت من أبوابها المشرعة. وأظن أن عدداً غير قليل من مجتمعاتنا الإِسلامية قد وصل إلىٰ حافة هذه الحالة، إن لم يكن غاص في لجتها!.

٢ ـ ما عاد اليوم بإمكان أي مجتمع أن يفرض علىٰ نفسه أطواق العزلة وحماية أفراده من قيم الحضارة الحديثة؛ ومن ثم فإن علىٰ كل

مجتمع إذا أراد المحافظة علىٰ تماسكه أن يطور ثقافته ونظمه، لتصبح قادرة علىٰ إنتاج قيم العصر واستهلاكها؛ فالسيطرة علىٰ الطبيعة، والمساواة أمام النظم، وتكافؤ الفرص، والحرية الشخصية المقيدة بقيود ما، ومحاولة التقدم نحو الأفضل هي أهم القيم السائدة في عصرنا هذا. ومن حسن حظ المجتمعات الإسلامية أن هذه القيم لا تتنافىٰ مع مبادئنا الإسلامية؛ وإن كان سُلّمنا القيمي يعطيها أهمية مختلفة، ويرتبها ترتيباً مغايراً؛ لكن المسافة التي علينا أن نقطعها تكمن في المفارقة بين المبادئ والواقع. وهذا في الحقيقة أحد أهم عوامل التخلف الحضاري في المجتمعات الإسلامية. والخلاصة النهائية التي تحصدها المجتمعات من وراء هذه المفارقة انهيارات داخلية في بنانا الاجتماعية، والشعور بالدونية، والعجز عن هضم قيم العصر وإعادة إنتاجها. والحل يكمن في المجاهدة والمصابرة في بلورة القيم الحديثة وتوضيح مكانها في سُلّمنا القيمي، إلى جانب تحريك النظم، وتجديدها بما يجعلها ترجمة لعقائدنا، إلىٰ جانب تفعيل الأنظمة والقوانين؛ لتضبط سلوك الناس، وتجعله ترجمة لها.

٣ ـ تطرأ علىٰ كل مجتمع من المجتمعات طوارئ وحالات عديدة في السياسة والاقتصاد والاجتماع... ويحدث أن تكون خبرة المجتمع في إيجاد الحلول لها ضعيفة أو معدومة. وتعد (العقيدة الاجتماعية) ترجمة لجماع مبادئ المجتمع ومصالحه، كما أنها مركز الموازنة بينها. ويتعامل المجتمع من خلال تلك العقيدة مع الطوارئ التي تداهمه. والذي يحدث في كثير من الأحيان أن يكون وعي الجماعة بتلك المشكلات ضعيفاً؛ مما يعرضه للانقسام علىٰ نفسه؛ فيؤدي ذلك إلىٰ ضياع معايير الخطأ والصواب، والتيه والرشاد التي ستقوم الجماعة باستخدامها في علاج المشكلات الطارئة. وتكون النتيجة هي الاحتراب الداخلي والفتنة الأهلية، علىٰ نحو ما حدث في بعض المجتمعات الإسلامية الأولىٰ، وعلىٰ نحو ما يحدث اليوم في بعض المجتمعات الإسلامية، ولا سيما المجتمع الأفغاني! وتترك الفتنة والحرب الأهلية ندوباً وأخاديد في الثقافة والنظم والوعي، وقبل ذلك في ثقة المجتمع بنفسه ومدنيته واستحقاقه للوقوف علىٰ قدم المساواة مع المجتمعات الأخرىٰ.

وفي هذه الحالة فليس أمام المجتمع من حل سوىٰ رفض حلول القوة، واللجوء إلى الاجتهاد والشورىٰ، وإعادة تنظيم خبراته الفكرية والشعورية، وبلورة عقيدته الاجتماعية، علىٰ نحو يعيد للمجتمع تماسكه وتضامنه من جديد.

٤ ـ ذكرنا من قبل أن كل مجتمع يشتمل علىٰ عدد من الوحدات أو الجماعات التي تكوّنه. وحين يكون المجتمع صحيحاً معافىٰ؛ فإنه يسمح بتعدد الانتماءات فيه؛ لكنه يدمجها أيضاً في أنظمته الأشمل والأرحب؛ ومن ثم فلا يشعر الناس بنوع من التصادم بين الانتماء إلىٰ قبيلة أو ناد أو حزب، وبين الانتماء إلىٰ مجتمعهم الكبير. فلكل من الانتمائين وظائفه الخاصة، وكذلك واجباته وأغراضه. وفي كثير من الأحيان يخدم الانتماء الخاص الانتماء العام، حيث يكون الانتماء الطوعي لجماعة أو مؤسسة وسيلة في تقوية النسيج الاجتماعي، وفي دفع المجتمع نحو تحقيق أهدافه الكبرىٰ.

وهذه الانتماءات الخاصة المتنوعة يمكن تحويلها ـ بسهولة ـ إلىٰ انتماءات بديلة عن الانتماء إلىٰ المجتمع الكبير. وذلك من خلال إضفاء أهمية خاصة عليها[١]؛ فيصبح الشعور بالانتماء لها لا إلىٰ المشترك العام؛ وينصبُّ الجهد آنذاك علىٰ بلورة فلسفة وجودها وخدمتها؛ بما يجعلها شيئاً مستقلاً تماماً بل معادياً. وهذا ما نلاحظه في كل الدول والشعوب التي تخوض حروباً أهلية؛ فالقبيلة تصبح شعباً مستقلاً، والأعراق واللغات والمذاهب عند منحها أهمية خاصة واستثنائية قد تصبح أساساً للمطالبة بتشكيل مجتمع مستقل، أو دولة منفصلة وهكذا... وهذا يدفعنا إلىٰ السؤال عن الأسباب الداعية إلىٰ منح أهمية خاصة لشيء عند شعب، علىٰ حين لا يشكل ذلك أية قيمة عند شعب آخر[٢]؟.

---

(١) نظام الطائفية: ١٢٣.

(٢) في أوربا وأفريقيا وآسيا شعوب تتكلم لغات شتىٰ، وتنتمي إلىٰ عروق ومذاهب شتىٰ، وهي تؤلف مع بعضها شعباً واحداً؛ ولم يؤد ذلك التنوع إلىٰ الشقاق الأهلي. ولو نظرنا في حالة الأكراد ـ مثلاً ـ لوجدنا أن وضعهم العرقي واللغوي صار يشكل لديهم مصدر تميز.

إن الوحدات الكبرىٰ المندمجة في إطار اجتماعي أشمل تظل راضية بذلك الاندماج ما دامت تشعر أن خصوصياتها العرقية أو اللغوية أو الدينية لم تصبح مصدر اضطهاد وإذلال بالنسبة إليها أو صارت دون غيرها موضعاً لظلم اجتماعي؛ سواء أكان ذلك علىٰ صعيد الحقوق المعنوية أو المادية أو المشاركة في إدارة المؤسسات الاجتماعية المختلفة؛ فحينئذ تضخُم خصوصياتها، لتتخذ منها نقطة انطلاق نحو وجود جديد متميز.

يحدث مثل هذا حين تلجأ بعض الوحدات المكوِّنة للمجتمع إلىٰ ذلك حيث تنبه الوحدات الأخرىٰ إلىٰ إبراز مكوّناتها الخاصة، علىٰ نحو ما حدث أيام العثمانيين، حين قامت في الأتراك الدعوة إلىٰ القومية الطورانية؛ فأدىٰ ذلك إلىٰ اندفاع القوميات والأعراق الأخرىٰ إلىٰ أن تبحث عن نفسها.

ومن ثم فإن العدل الاجتماعي، وأخذ السلطات العليا مسافة عن كل تلك الخصوصيات؛ لتصبح راعية للجميع، ومحققة لمصالحهم دون تمييز أو استثناء هو الطريق الأمثل لحفظ الوحدة الاجتماعية، وإبقاء ولاء جميع المجموعات للمشترك العام حياً فاعلاً.

٥ ـ حين يفد إلىٰ المجتمع مولود جديد فإنه يكون غريباً عنه كل الغرابة؛ وهو بحاجة إلىٰ عناية خاصة ومدة من الزمن غير قصيرة حتىٰ يستطيع تمثل مبادئ مجتمعه وقيمه ومعاييره الأخلاقية ورموز تواصله... وعلىٰ المجتمع أن يوجد الآليات التي يتمكن بها من دمج الوافدين الجدد إليه. وهذا الدمج تقوم به مؤسسات عديدة، تأتي علىٰ رأسها الأسرة والمدرسة؛ فوظيفة التنشئة الاجتماعية تقع بشكل رئيس عليها. والناظر في أمر هاتين المدرستين يجد أنهما ـ في كثير من الأحيان ـ أقرب إلىٰ العجز والكلالة عن القيام بهذه المهمة منهما إلىٰ الكفاءة والقيام بالواجب. فالأبوان كثيراً ما يكونان أميين أو كالأميين. وفي كثير من الحالات يكون الأب مشغولاً في طلب الرزق؛ فيعمل الساعات الطوال خارج المنزل، دون أن يعرف شيئاً عن حال أولاده. ومتوسط الأطفال في الأسرة يصل إلىٰ أربعة

أو خمسة، وهذا يجعل الجهود التي يحتاجونها أكبر؛ حتى يمكن استيعابهم تربوياً واجتماعياً.

أما المدرسة فإنها تشكل عين المشكلة؛ فالساعات التي يقوم المدرس بإعطائها مرهقة وكثيرة؛ كما أن عدد الطلاب في الفصل الواحد مرتفع، ومدة مكوث الطالب في المدرسة محدودة، ولا يمكن زيادتها؛ حيث يقتضي ذلك تقديم وجبة طعام للطلاب. وهذا ما لا يستطيعه السواد الأعظم من المدارس في العالم الإسلامي. وكانت نتيجة كل ذلك قلة احتكاك المدرس بطلابه وعدم وجود إمكانية جيدة لمتابعتهم تربوياً ودمجهم اجتماعياً.

والخلاصة لكل ذلك وجود هوّة كبيرة بين جيل الآباء وجيل الأبناء؛ فلا الأبناء قادرون علىٰ فهم طبيعة التفكير لدى آبائهم، ولا الآباء قادرون علىٰ استيعاب تطلعات أبنائهم ورغباتهم. وهذا الوضع يمثل مصدراً مهماً للمعايير الاجتماعية المزدوجة، كما أنه يساعد علىٰ وجود توترات اجتماعية عديدة، ويدفع إلىٰ حدوث تغييرات متسارعة، لا يتمكن المجتمع من التكيف معها.

وليس حلّ هذا الإشكال بالأمر اليسير؛ حيث إنه مرتبط بتقدمنا في المجالات الاقتصادية خاصة والتربوية عامة. لكن بالإمكان إيجاد المؤسسات والدوائر المساندة من مثل حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المساجد، والمراكز الصيفية والأنشطة اللاصفية ودوائر تقديم الخدمات الاجتماعية للفئات الخاصة. ويمكن مع كل هذا تقرير بعض المواد التي تدرس القيم والعادات والتقاليد والتغير الاجتماعي وأنماط السلوك...

تجدد المجتمع:

ذكرنا أن الناس يتعاملون بعضهم مع بعض وفق معايير وقيم معينة. وتغير تلك المعايير يحتاج إلىٰ تلقين جديد وتنشئة جديدة؛ مما يسبب إزعاجاً للناس. ثم إن الناس يستوحشون من الجديد، لعدم ألفتهم له،

ولخوفهم من عواقبه وعقابيله. لكن سنة الله ماضية في أن تجعل صروف الأيام والليالي كل جديد قديماً، وكل طارف بالياً إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وذلك التقادم والتحول ماض في الأشياء والأفكار والنظم والأطر والأدوات. وقد ألف الناس أن يعبروا عن فزعهم من الجديد بالشكوىٰ الدائمة من الزمان وتغيره؛ حتىٰ تأكد في آدابهم أن القديم خير من الجديد، وأن الأمور تسير دائماً نحو الأسوأ؛ مع أن بني البشر حققوا نجاحات كثيرة في تاريخهم الطويل، كما أنهم خسروا معارك كثيرة أيضاً.

وقد جرت محاولات عديدة لدىٰ كثير من شعوب الأرض لتحنيط المجتمعات وعزلها عن تيارات التغير والتجدد. وكلما ظن الناس أن تلك المحاولات وصلت إلىٰ غاياتها كانت النتائج تؤكد أن ذلك كان أوهاماً، وأن كل ما حدث هو جمع تلك التغيرات وضغطها؛ حتىٰ إذا ما أَسِنَ المجتمع ووصل إلىٰ الطريق المسدود نتيجة ركوده وجموده انفجر، ونسف من الجذور كل الأحوال والأوضاع التي ينبغي أن تتغير علىٰ سبيل التدرج المنطقي المستوعَب من قبل من بأيديهم مراكز التوجيه الاجتماعي.

ولن يكون الانفجار الاجتماعي الهائل الذي أصاب دول المعسكر الشيوعي هو آخر الانفجارات، كما لم يكن أولها!.

عوامل التجدد الاجتماعي:

إن نسيج المجتمعات معقد غاية التعقيد؛ فالعناصر المكونة للعقيدة الاجتماعية وتجسيداتها المختلفة تفوق الحصر. وتلك العناصر لا تشتغل علىٰ منوال واحد، وإنما تتوزعها قوتان ـ كما في الطبيعة ـ إحداهما جاذبة والثانية نابذة؛ فالحياة الاجتماعية يسودها التوافق، كما يسودها التنافس. وكما أن أفراد المجتمع يرضخون للأعراف الاجتماعية في الغالب إلا أن ذلك لا يمنعهم من أن يجعلوا وعيهم ينفذ إلىٰ الواقع الاجتماعي بصورة فردية. وهذا النفاذ ـ في الحقيقة ـ هو المصدر الأساسي لكل تنوع وكل

تغير. فالمخترعون والمفكرون والمنظرون الأفذاذ يرون ما لا يراه الناس؛ ومن ثم فإنهم يحاولون نقل رؤاهم إلىٰ الحسّ الاجتماعي العام، فيبذرون في المجتمع بذلك بذور التغيير. كما أن انتشار الأفكار وتراكم الخبرات، وما يحدثه التقدم في بعض المجالات الاجتماعية ـ كالاقتصاد مثلاً ـ كل ذلك يجعل عمليات تغير المجتمع وانتقاله من طور إلىٰ طور أمراً لا بد منه.

وإن كثيراً من العادات والأعراف الاجتماعية تأبىٰ بطبيعتها النقاش، وتستمد قوتها واستمرارها من أنها تحيا خارج منطقة الوعي المجتمعي، وكان بالإمكان أن يستمر بعضها قروناً دون تغيير يذكر. لكن منطقة الوعي لا تظل علىٰ حالة واحدة؛ فهي تتمدد في أحيان كثيرة لتدخل في دوائرها وتحت هيمنتها أشياء كثيرة؛ مما يجعلها موضع نقد. ثم إن عصرنا الحاضر شيء مختلف تماماً عما سبقه من عصور؛ حيث غيرت المذاهب الفلسفية والمنطقية والنفعية والواقعية والعدمية الكثير من الموازين الاجتماعية، ودفعت الناس إلىٰ مناقشة كل شيء، ومحاولة جعل الحياة أكثر عملية وأكثر اقتصاداً. ومن ثم فإن كلمة (تقاليد) بدأت تفقد رنينها القديم، بل صارت تعني نوعاً من إعطاء الأهمية الزائدة لسلوكات وعادات لا تستحقها. ولم تكن جميع عمليات مراجعة الحياة الاجتماعية شيئاً يدعو إلىٰ الأسف؛ بل إن منها ما كنا بحاجة ماسّة إلىٰ إعمال غربال الشرع والمصالح العليا فيه. وذلك لأن من عادة الناس الميل إلىٰ جعل المنهج الرباني جزءاً من ثقافتهم، وإلباس كثير من شعائره وعباداته ثياب التقاليد والعادات المتوارثة. وفي هذا خطر عظيم علىٰ جوهر التدين؛ حيث إن الوضعية الصحيحة للمنهج الرباني أن يكون مهيمناً علىٰ الثقافة وموجهاً لها لا جزءاً منها.

ومن ثم فإننا نأمل أن تتمحور عمليات مناقشة ما لدينا من تقاليد وعادات حول مدىٰ انسجامها مع مبادئنا أولاً، ثم حول مدىٰ تحقيقها للمصالح الكبرىٰ للأمة ثانياً.

إذا كان تغير المجتمعات ـ كما الأشياء ـ سنة من سنن الله في

الخليقة؛ فإن ذلك التغير قد ينحو منحىٰ السرعة والانعطاف الحاد؛ وهذا يسمىٰ عادة بالتغير الثوري. وقد أثبتت التجارب العالمية أن التغيرات السريعة والتحولات الجذرية العنيفة قليلة الفائدة كثيرة الضرر؛ حيث إن قدرة الأنظمة الاجتماعية علىٰ تقبل الجديد محدودة؛ فإذا ما اتخذ التغير شكل دفق عنيف متتابع؛ فإن ذلك يؤدي إلىٰ تفسخ الأنظمة وإظهار عجزها عن هضم التغيرات الجديدة، وأقلمتها مع أطرها ومرجعياتها العليا؛ مما يعني في النهاية نوعاً من الاختلال في التوازنات العميقة للمجتمع. وذلك لا يمرُّ دون مقاومة وردود أفعال طائشة، تؤدي في النهاية إلىٰ انقسام الوعي الاجتماعي علىٰ نفسه وعجز معايير الخطأ والصواب عن روز الحراك الاجتماعي وتوجيهه.

إن التغير الاجتماعي شيء محتوم، وإن علينا أن نرشّده بدل أن نقاومه. وترشيده يكون من خلال المراقبة الدقيقة؛ فنضع الخطوط الحمراء في وجه كل تغير يمسّ الأصول، والأهداف الكبرىٰ، والمبادئ العليا للأمة، ونرحب؛ بل نبدع الوسائل والطرق والآليات التي تساعدنا علىٰ تنشيط وظائف نظمنا الاجتماعية وتوظيف كل طاقاتنا وإمكاناتنا علىٰ طريق تحقيق آمالنا وأهدافنا السامية في هذه الحياة.

إن الإسلام بإغفاله الكثير من الطرق والأطر والأدوات التي تنظم شئون حياتنا ـ أتاح لنا إمكانات واسعة من التجديد والتغيير واجتراح المجهول. وإن واجبنا أن نمتلك الفاعلية اللازمة للاستفادة من تلك الإمكانات وتجسيدها في ترقية وإصلاح شأننا الاجتماعي العام.

المجتمع المأمول:

ذكرنا أن المجتمع مكوّن من عدد من الوحدات أو المجموعات، وأن هناك وشائج ومعايير محددة، تؤدي في مجموعها إلىٰ تكوين إطار شامل نسميه مجتمعاً.

وتحدد ثقافة كل مجتمع أهدافه وطرائق تعامله مع بعضه بعضاً،

وأشكال تضامنه وتواصله الأخلاقي والروحي. ونظراً لتعقد العوامل والمكونات التي تحدد الملامح النهائية لكل مجتمع؛ فإن خبرة البشر في أشكال سيرورة المجتمعات والمآلات التي سيفضي إليها تحركها الدائب لا زالت ـ في نظرنا ـ قاصرة. كما أن الدراسات الاجتماعية الحديثة ستظل محصلاتها محدودة ما دامت بعيدة عن الهداية الربانية، وما دامت محرومة من إطار مرجعي وأرضية أولية تجعل انطلاقها في الاتجاه الصحيح.

وبما أن التقدم والتأخر المادي شيء نسبي؛ فإن الذي يحدد معاييره الدول والشعوب التي تقود التقدم. فعلىٰ سبيل المثال يظل شكل من أشكال الأقلام جديداً ما لم يأت من ينتج شكلاً مختلفاً يجعل من الشكل السابق شيئاً قديماً. والشكل الجديد بمواصفاته الخاصة المتميزة يوجد مقاييس جديدة للجودة، كما يعطي معنىٰ التقدم بعداً جديداً.

أما التقدم علىٰ الصعيد الروحي والأخلاقي؛ فنحن نعتقد أن الثقافة هي التي تتولىٰ تحديد أبعاده ودرجاته ومعاييره. ومن هنا فإن مواصفات المجتمع الذي نأمل أن تشيده أمة الإِسلام لا يمكن أن تكون مستمدة إلا من ثقافتنا وقيمنا الخاصة بنا. ولا يعني هذا أننا لا نعبأ بالمعايير العالمية، ولكن يعني أن لنا تقويمنا الخاص لكل ما نراه في المجتمعات الأخرىٰ مع تمكننا من ترشيده ونقده.

ولعلنا نستطيع وضع بعض النقاط علىٰ الحروف في سمات المجتمع الإِسلامي الذي علينا جميعاً أن نجعله حقيقة ماثلة يتفيأ ظلالها كل مسلم. وذلك علىٰ الوجه الآتي:

١ ـ استقر في التصور الإِسلامي أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يحدد أهدافه العليا؛ فذاك فوق طاقة البشر. فالرشد الإِنساني مهما بلغ عاجز عن أن يحدد للفرد والمجتمع الغايات الكلية للوجود بعيداً عن الوحي. ومن ثم فإننا نجد فلاسفة الغرب مختلفين اختلافاً بيّناً حول الهدف النهائي والأسمىٰ للحياة الاجتماعية؛ فـ(أوجست كونت) يرىٰ أنه يكمن في تحقيق تقدم مطرد للجنس البشري تلبية لنزعة فطرية نحو تحسين مركزه في جميع نواحي

الحياة. ويرىٰ (هربرت سبنسر) أن الهدف النهائي للحياة الاجتماعية هو تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة المتمثلة ـ في رأيه ـ في المنفعة.

وبما أن الإحسان والتكافل الاجتماعي ليس من قبيل ما يحقق السعادة والمنفعة للفرد؛ فإنه يرىٰ أن الإجراء المناسب تجاه العجزة والشيوخ والأيتام هو تركهم بلا مساعدة؛ حتىٰ يموتوا؛ لأن ذلك يتمشىٰ مع قوانين الطبيعة التي أساسها الانتقاء والبقاء للأقوىٰ!!. أما (دوركايم) فإنه يقرر أن الحياة الاجتماعية ذاتها هي الغاية القصوىٰ؛ فليس من فائدة يجنيها البشر من الحياة الاجتماعية سوىٰ الحياة الاجتماعية باعتبارها هدفاً ذاتياً وجوهرياً للإنسان[1]!.

وقد خطا (براتراند راسل) خطوة إلىٰ الأمام حين ذهب إلىٰ أن الحياة إذا كان لها أن تكون إنسانية كلياً وجب أن تخدم غاية تبدو بمعنىٰ من المعاني خارج نطاق الإنسان مثل (الله) أو الحقيقة أو الجمال. إن أولئك الذين يخدمون تقدم الحياة علىٰ أفضل وجه ممكن لا تكون الحياة غايتهم[2]...

وواضح أن قول (راسل) لم يترك أي أثر في الحياة الغربية، وأن طلب اللذة والمنفعة والمزيد من السعادة هو الهدف الأسمىٰ للمجتمعات الغربية هناك.

أما هدف الحياة كلها فلا يختلف لدينا بين أفراد ومجتمعات ـ وإن تنوعت الوسائل بينهم ـ وهذا الهدف واضح وهو حيازة رضوان الله تعالىٰ عن طريق النجاح في الابتلاءات المختلفة التي نواجهها في هذه الحياة.

ولا ينبغي أن نغمض العين عن أن فلسفة الحياة الغربية قد أثرت في المجتمعات الإسلامية تأثيراً ظاهراً، وأن إحساسنا بالهدف الكبير صار

---

(١) انظر مقومات المجتمع المسلم: ١٥١ وما بعدها.

(٢) أسس لإعادة بناء النظام الاجتماعي: ١٩٦.

ضعيفاً! ومن ثم فإن أمامنا مسؤولية بلورة هذا الهدف بكل الوسائل الإعلامية والتربوية والدعوية الممكنة؛ إذا ما أردنا لمجتمعاتنا الإسلامية ألا تفقد الاتجاه، وألا تدور في حلقة مفرغة.

٢ ـ لا بد للتنشئة الاجتماعية لدينا أن تتمحور حول قضايا أساسية ذات خطر في حياة الناس. ويمكن أن يكون من أهم ما تجب العناية بالتنشئة عليه ما أسماه الأصوليون بـ(الكليات الخمس) التي هي: حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال. وهذه الكليات هي المقاصد الكبرىٰ التي جاءت الأحكام التكليفية؛ لتجعل منها محاور لثقافة الناس عامة.

فالمسلمون مطالبون بالقيام بكل ما يحفظ جوهر التدين من التزييف والطمس والعدوان الداخلي والخارجي. كما أن المكلفين مطالبون بألا يتصرفوا بالأنفس والأموال والعقول والأعراض إلا علىٰ الوجه المشروع.

فليس للمرء أن يزهق روحه، ولا أن يذهب عقله، أو يبيح عرضه للناس.

وكما أن كل فرد في المجتمع المسلم مطالب بحفظ نفسه وماله... فإنه مطالب أيضاً بالقيام بكل ما من شأنه المحافظة علىٰ أنفس الآخرين وعقولهم وأموالهم في إطار شروط موضوعية معينة. وبذلك يشعر كل مسلم بحرص مجتمعه عليه وعلىٰ حقوقه وممتلكاته حرصاً لا يختلف عن حرصه هو علىٰ ذلك[١]. وحين يرىٰ المجتمع عدواناً من بعض أفراده علىٰ حقوق الآخرين فإنه مطالب بوقف المعتدي عند حدوده مهما كان الثمن. ومن ثم فإن الإسلام شرع جملة من الحدود الرادعة لأولئك الذين تسول لهم

(١) المواقف الاجتماعية التاريخية التي تفيض بحرص المسلم علىٰ كل ما يخص أخاه المسلم أكثر من أن تحصىٰ ومن الطريف الذي رووه في هذا أن رجلاً اقترب من أحد الفقهاء، وخطف قبعته من فوق رأسه ومضىٰ هارباً. فما كان من الفقيه إلا أن جعل يجري خلفه وهو يقول: وهبتك قل قبلت. وذلك حتىٰ لا يصبح الرجل لصاً في نظر نفسه ونظر المجتمع!!.

أنفسهم العدوان علىٰ هذه الأصول والكليات من مثل القصاص، وحدود الردة، وشرب المسكر، والسرقة، والزنا والقذف. وحين نعطي في تربيتنا الأولوية لتثقيف الناس بهذه القضايا وتنشئة الأجيال علىٰ ذلك؛ فإننا نضمن لمجتمعاتنا تجانساً ثقافياً وتربوياً واجتماعياً نحن بأمسّ الحاجة إليه؛ حتىٰ يصبح الحراك الاجتماعي لدينا عبارة عن وتائر استجابة مستمرة لقيمنا ومثلنا وثقافتنا؛ وإلا فيمكن أن تتحول مجتمعاتنا إلىٰ تجمعات هي حشد أجساد أكثر من أي شيء آخر!.

٣ ـ إن المجتمع الذي ننشده ينبغي أن يكون ثرياً بالمؤسسات والدوائر الوسيطة التي لا تمثل مصالح خاصة لبعض الناس، كما أنها ليست جزءاً من مؤسسات الدولة؛ وذلك من أمثال المراكز الثقافية والاتحادات والنقابات والجمعيات وهيئات الإصلاح والإغاثة والمعونة الاجتماعية ومراكز البحوث والدراسات والإحصاء ومعرفة الرأي العام... ولهذه المؤسسات وظائف عديدة، من أهمها: مساعدة الأسرة والمدرسة في الوصول بالتنشئة الاجتماعية إلىٰ أدوارها النهائية بما توفره من معلومات وخدمات، وبما تحله من مشكلات، وبما تقدمه من أشكال الرعاية الاجتماعية لكل من يحتاج إليها.

ومن وظائف هذه المؤسسات تخفيف العبء عن الدولة، والقيام بجزء من مهماتها الاجتماعية؛ حتىٰ تتفرغ للقضايا الكبرىٰ.

ومن وظائفها أيضاً توفير أطر جيدة لتثوير الطاقات الاجتماعية الخيرة واستثمارها فيما يعود علىٰ المجتمع بالنفع. ومن المعروف أن كثرة الأطر والدوائر والمراكز تمكّن المجتمع من استيعاب أكبر قدر ممكن من طاقات الأفراد وإمكاناتهم ومواهبهم علىٰ تنوع ميولهم واستعداداتهم؛ حيث إن مجتمعاتنا الإسلامية ما زال أكثرها (خاماً)، وهي بحاجة إلىٰ الكثير حتىٰ تستوي علىٰ سوقها.

ومن وظائف المؤسسات الوسيطة تأمين الاستقرار الاجتماعي، وذلك من خلال كونها تقف الموقف الوسط بين الدولة والأفراد؛ حيث يمكّنها

موقعها من القيام بدور الوسيط الخيّر، كما يمكّنها من تعزيز التوازن المجتمعي بما تملكه من نفوذ ووسائل، وبما تستطيع ممارسته من ضغوط أدبية مختلفة في جميع المجالات الاجتماعية.

ويضاف إلىٰ كل ذلك أن المؤسسات الوسيطة تكون أقدر من سواها علىٰ تأمين التجدد الاجتماعي؛ حيث إنها من خلال إمكاناتها المادية والبشرية، وبما تملكه من روح البذل والمجانية تكون أقدر من الأفراد علىٰ النفوذ إلىٰ الواقع المجتمعي، كما تكون أقدر من الأفراد علىٰ تحليل الواقع واستشراف المستقبل. فهي إذن تؤمن التجدد المتدرج أو الاستقرار المتجدد. وهذا ما تحتاجه جميع مجتمعات الأرض.

٤ ـ من السمات الأساسية للمجتمع المنشود أن العلاقات بين أفراده تقوم علىٰ التفاهم والتعاون والإِقناع والمجادلة بالتي هي أحسن؛ حيث إن المتوقع من مجتمع حدد أهدافه ومحاوره التربوية، وأشاع في أرجائه روح التعاطف والتضحية في سبيل الآخرين ـ أن يكون قادراً علىٰ إقامة علاقات اعتمادية متبادلة تضمن وصول الناس إلىٰ حقوقهم، كما تضمن تعاونهم واقتدارهم علىٰ تطوير مجتمعاتهم، وحل مشكلاتهم، دون الحاجة إلىٰ استخدام العنف أو التسلط أو الحرب الباردة.

وحين تسد كل طرق التغيير أمام أي مجتمع، ولا يبقىٰ أمامه سوىٰ طريق التدمير والصدام؛ فإن ذلك يعني أن خللاً كبيراً أصاب أساليب التنشئة الاجتماعية لديه، كما يعني نوعاً من انقسام حاد في الثقافة؛ فصار المجتمع عبارة عن جزر اجتماعية معزولة بدل أن تعمل التنشئة الاجتماعية علىٰ دمج كل الشرائح الاجتماعية في إطار مجتمعي أشمل وتوجيهها وجهة واحدة! إن مما لا ينبغي أن يغيب عن البال أن الترابط الاجتماعي مرهف الحساسية تجاه أي ضغط، كما أن القيم تتأبىٰ دائماً علىٰ الإِلزام، وإنما تعمل في ضبط السلوك الاجتماعي من خلال جاذبيتها الخاصة؛ ومن ثم فإن مجتمعاتنا بحاجة إلىٰ مداراة فائقة وحل مشكلاتها عن طريق الفكر المستنير والبذل السخي والتضحية التي يستشرف أصحابها عاقبة المتقين. وإلا فمن

السهل على الأفراد والمجموعات أن ينسحبوا ضمناً من مجتمعاتهم، ويصبحوا معاول هدم في أصولها. والذرائع والمداخل إلى ذلك أكثر من أن تحصى!.

٥ ـ إن من أهم ما ينبغي أن يتوفر للمجتمعات الإسلامية الوعي بذاتها، والإدراك الجيد لموقعها في سلّم الحضارة، مع الإحاطة الحسنة بإمكاناتها ومشكلاتها والآفاق المتسعة الجديدة التي بإمكانها استشرافها واحتلالها. وذلك من خلال التوتر المبدع الكائن في مجموعة التناقضات الموجودة في حياتها. وهذا الوعي لا نستطيع اكتشافه بشكل حسن إلا من خلال مجموعة الثوابت التي توفر لنا الإطار المعرفي المبدئي الذي سننطلق منه، ثم من خلال الحركة الدائبة في مجالات الحياة المختلفة. ويتجلى هذا الوعي في قدرة المجتمع على تحديد اتجاهاته كلما حرفه الامتداد وتطاولُ الأمد، كما يتجلى في قدرته على تحديد مشكلاته وتصنيفها بحسب أولوياتها، وفي تحسس إمكاناته الظاهرة والكامنة المعنوية والمادية. فالمجتمع الذي يملك الوعي بذاته يدرك خطورة الانحرافات السلوكية التي تشيع في أرجائه، فيسعى إلى محاصرتها من خلال المناصحة والحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن خلال توفير البدائل المشروعة، والتحفيز المعنوي والمادي من أجل تجاوز الرغبات الفردية المخلّة بانسجام المجتمع والمنافية لتوجهه العام.

والمجتمع الواعي بنفسه يدرك في الوقت نفسه خصائصه المحورية والمركزية فيوفر الآليات المختلفة لحمايتها وتعزيزها، كما أنه يدرك الفرعيات والهامشيات، فيسمح بتطويرها وتحويرها ويجعل منها وسائل ومداخل لتنويع المجتمع وإثرائه، كما يجعل منها مجالاً للحرية في إطار التوحد المجتمعي العام. فهو يتصلّب في مجال العقائد والفرائض وفي القطعيات والمحرمات ويتسامح في المسائل الخلافية والفرعية والجزئية، وما يختلف باختلاف الأزمنة والأعراف والأشخاص والإمكانات؛ فلا يخلط هذه بتلك. وهو في كل ذلك يسعى إلى تحقيق الجوهر وتمييزه عن الشكل

والعرض. ويتوصل المجتمع إلىٰ بلورة كل ذلك في ثقافة أبنائه من خلال حركة اجتهادية موّارة ومنضبطة تكتشف ما حقه الثبات مما حقه التغير والتطور، وتدرك إلىٰ جانب ذلك وجود هوامش للخلاف قد تتسع، وقد تضيق في كل ما ذكرناه. وليس المطلوب في كل ما سبق حيازة الصفوة والنخبة لذلك الوعي فحسب؛ وإنما إشاعته في ثقافة الناس من خلال التداول الحر، والتنشئة الاجتماعية بكل مؤسساتها وأدواتها، ومن خلال النقد البناء الهادئ والمتزن المنصف. وهذا كله ليس مطلوباً لضمان سلامة اتجاه المجتمع وضمان استمرار حيويته فحسب، وإنما من أجل أن يتفادىٰ المجتمع الانقسام علىٰ نفسه، ولا سيما في أوقات الشدائد والمحن والطوارئ.

٦ ـ استطاعت الحضارة الغربية عزل المجتمعات الهامشية عن تراثها، وإيجاد هوّة بين مجتمعات (الريف العالمي) وبين ماضيها، كما أنها استطاعت طمس رؤيتها لكثير من مفردات الواقع وآفاق المستقبل وسد مجالات النمو والتطور أمامها إلا من خلال الشروط والنوافذ التي تحددها الثقافات والمجتمعات القائدة لركب الحضارة. وكان ذلك يعني ببساطة قطع الطريق علىٰ المجتمعات النامية والحيلولة بينها وبين امتلاك نماذجها الخاصة في التربية والبناء الاجتماعي والمسار التنموي.... فتحول كثير من المخططين للمجتمعات الإِسلامية إلىٰ مروجين للنماذج الغربية في كل شئون الحياة حتىٰ في طريقة الأكل والشرب واللباس والتحية والاستقبال والوداع.... مما لا ارتباط له بأي معنىٰ من معاني الرقي والتقدم! وأدىٰ ذلك إلىٰ الإِجهاز علىٰ الثقافات المحلية ونبذها من قبل أهلها، فانمحت معالم الشخصية الوطنية، وحلّت محلها شخصية تائهة مرقّعة، خرجت من فطرتها وأصالتها، وعجزت عن الاندماج في الحضارة؛ فصار كثير من الناس لدينا كالمرأة المعلّقة لا هي مزوَّجة ولا هي مطلَّقة؛ فلا انتفاع بماض ولا حاضر!!.

والرد الطبيعي علىٰ كل ذلك يكمن في أن يقوم كل مجتمع إسلامي

ببناء نموذجه الخاص المستقل في كل شئون الحياة، من غير انعزال ولا نرجسية، وإنما من خلال ركائزه الثقافية، وإمكاناته المتوفرة، ورؤاه التمدنية لما ينبغي أن يكون عليه وضعه في المستقبل. وهذا يتطلب قبل كل شيء نوعاً من الإدراك لنعمة الهداية التي أكرمنا الله بها، والتي نستطيع من خلالها أن نشعر بضرورة التميز عن باقي الشعوب، وبقدرتنا علىٰ أن نساعدها علىٰ الخروج من نفق الظلمات الذي تسري فيه.

كما أنه يتطلب استقلال الإِرادة عن طريق التلاحم المجتمعي الكامل، وتطوير الممكن المتوفر، وإيجاد التكامل بين المجتمعات الإِسلامية، وتداول الخبرات والمنافع بينها، بدل ارتباطها بالمجتمعات الغربية ذات الخصوصية الثقافية والتاريخية المناقضة للكثير مما عندنا. ولن نستطيع إنجاز شيء من ذلك من غير مصابرة ومجاهدة ووعي ووقت وتنازل عن كثير من الرغبات الشخصية في سبيل الصالح العام. والله المستعان.

٧ ـ فقدت المجتمعات الغربية اليوم دفء العلاقات الاجتماعية، كما فقدت التضامن الروحي والأخلاقي الذي يحتاج إليه كل إنسان في كل زمان ومكان؛ حيث تقطعت الأرحام، وبردت العواطف، وتحولت العلوم الروحية ـ كما يقول شبنغلر ـ إلىٰ علوم طبيعية، وصار الناس يبحثون عن مهرّج لا عن صديق، وعن نديم لا عن رفيق[(١)]. وسادت المنفعة الخاصة، وتحكمت الفردية في كثيرين، لا علىٰ نحو مبدع وإنما علىٰ شكل أناني مشوّه. وكانت نتيجة كل ذلك شعور الناس بالملل والسأم وفقد الحياة لمائها وروائها، إلىٰ جانب الخوف من المستقبل والإِهمال الاجتماعي عند تقدم السن.

وظلت المجتمعات الإِسلامية ـ رغم كل ما أصابها من تقهقر ـ أكثر مجتمعات الأرض تواصلاً وتماسكاً وتضامناً علىٰ المستوىٰ الروحي والأخلاقي، واستطاعت أعمال الخير ـ علىٰ الرغم من حاجتها إلىٰ التنظيم ـ

---

(١) من مقدمة كتاب (تدهور الحضارة الغربية): ١٦.

أن تسد كثيراً من الفجوات التي ولّدها الخلل في النظم الاقتصادية المعمول بها في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ وبمحاولة النموذج الاجتماعي الغربي الهيمنة علىٰ المجتمعات الإسلامية وطبعها بطابعه صار من الواجب علىٰ المجتمعات الإسلامية أن تجدد رموز تواصلها وآلياتها وأطرها في مجالات التضامن والتكافل الأخلاقي والروحي ومجالات الإحسان والمساعدة للفئات الضعيفة، وسن النظم والتشريعات التي تجسد الرعاية الاجتماعية لهم، وإبراز أشكال القدوة الشعبية الحسنة وبناء المؤسسات الأهلية التي تساعد الناس علىٰ المزيد من التعاطف والتراحم والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ وصنوف أعمال الخير، وتعليم طلاب المدارس وتدريبهم علىٰ خدمة الفئات الخاصة والمحتاجين من ذويهم وأبناء المجتمع عامة، إلىٰ جانب الإشادة والتشجيع لكل الظواهر والمواقف الحميدة في هذا الميدان؛ حتىٰ نستطيع تحصين مجتمعاتنا ضد الإفرازات السيئة للحضارة الغربية في المجال الاجتماعي بشكل أخص.

٨ ـ إذا كان واقع المجتمعات الإسلامية سيئاً ومليئاً بالتحديات فليس دواء ذلك بكاء الأطلال، وندب الحظوظ، والبحث عن مجرمي العصر الذين ألحقوا بنا كل هذا الأذىٰ. . . إن الدواء يكمن في استشراف المستقبل، والترفع علىٰ الواقع لا من باب تجاهله، ولكن من باب الاستعلاء النفسي عليه، وتحرير الفكر من وهقه وإرهاقه وإشعاعات يأسه وخباله. إن الإرادة الحرة الأبية تستطيع أن تحول عوامل الهزيمة إلىٰ عوامل نصر، علىٰ نحو ما فعل النبي ﷺ حين استطاع أن يزيل كثيراً من الآثار النفسية لغزوة أحد بنقل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلىٰ الاندفاع نحو مواجهة جديدة في حمراء الأسد؛ حتىٰ يعلم الناس أن إرادة النصر ما زالت موجودة. وفي بداية الردة كادت نواة الإسلام في المدينة أن تضيع في طوفان الردة؛ لكن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ بوقفته الفذة نقل الأمة من واقع إلىٰ واقع، وتمكّن من جعل هذه القضية أثراً بعد عين.

وقد اجتاحت الأمة بعد ذلك فتن داخلية واعتداءات خارجية هائلة من

قبل التتار والصليبيين؛ لكن التطلع إلىٰ الأمام لدىٰ بعض القادة العظماء فتح آفاقاً أرحب أمام الأمة؛ فتجاوزت محنها الكبرىٰ، وبقيت أمة الإسلام تكافح وتصارع. وستبقىٰ إن شاء الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ اللحظة الأخيرة من عمر هذه الدنيا رمزاً للصمود والعطاء والهداية.

لسنا وحدنا الذين نُكبنا ونهضنا؛ فألمانيا واليابان صارتا ركاماً في الحرب الكونية الثانية. وعلىٰ ضوء الشموع، وبعزيمة الرجال الأشداء أعيد بناء المصانع التي هدمت؛ لتبدأ كتابة تاريخ جديد. . . . . وتقف الدولتان اليوم علىٰ شكل عملاقين في التقنية والاقتصاد؛ لتعلما البشرية أن المهم هو الإرادة الصلبة التي تتأبىٰ علىٰ اليأس، وترتفع علىٰ الهزيمة!.

إن من الحيوي أن نفهم واقعنا فهماً موضوعياً مجرداً، وأن نتعامل معه بالعقل والفكر لا بالعاطفة والحماسة. فإذا ما استطعنا تشخيصه في مفردات محددة، ثم استطعنا استخلاص نواة التقدم من بين الركام الحضاري الضخم؛ وجب علينا أن نعلم أن مصير الشعوب ليس مشاريع أُنجزت، وانتهت؛ وإنما هو مشروع لا يزال تحت الإنجاز مهما بلغت الأمة من التقدم أو الانحطاط. وحين يعتقد مجتمع أنه أخذ شكله النهائي فإن ذلك لا يدل إلا علىٰ قرب النهاية!.

إن الابتلاء مستمر، وعلينا أن نجعل استجاباتنا بحجم التحديات. إن الوصول إلىٰ القمة ليس هو الأهم، ولكن الأهم هو البقاء فيها. وإن الانحدار نحو القاع ليس هو الكارثة، لكن الكارثة هي الاعتقاد أنه لا سبيل إلىٰ الخروج منه!.

وليس المهم أن نصل إلىٰ الوضعية الفلانية؛ ولكن المهم كم نبقىٰ هناك في ظل متغيرات قاسية لا تلبث أن تجعل القمة سفحاً والسفح قاعاً! والأهم من كل ذلك أن نعرف ما الذي سنعمله إذا ما نحن وصلنا؛ فالتقدم ليس هدفاً في حد ذاته ما لم نتمكن من منحه معنىً من خلال مشروع عظيم تسعىٰ الأمة إلىٰ إنجازه.

إن الزمان عبارة عن وعاء فارغ؛ فكما ملأناه بالأمجاد والانتكاسات والتراجعات في الماضي؛ فإننا قادرون ـ بحول الله ـ أن نملأه في المستقبل بالإنجازات العظيمة والعطاءات المتدفقة؛ حتىٰ نكون في الموقع الذي يليق بنا بين الأمم، وإن العمل الجاد هو الشرط الأساسي؛ لتجاوز اليأس؛ إذ لا يأتي بالأمل سوىٰ العمل، ولا شيء يغري بالنجاح كالنجاح نفسه!.

٩ ـ امتنّ الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ هذه الأمة، فجعلها وسطاً بين الأمم في أمور كثيرة جداً علىٰ صعيد الموازنة العالمية، وعلىٰ صعيد بنياتها ومحاورها واتجاهاتها الداخلية؛ حيث إن كثيراً من أعمال الخير حين يوضع في سياق الإمكانات والمآلات والواجبات والحقوق الأخرىٰ ربما كان شراً؛ لتفويته مصالح وتضييعه واجبات أهم[1]. ومن ثم فإننا نجد نصوصاً وإشارات شرعية كثيرة تحض علىٰ التوسط؛ حتىٰ في أعمال الخير؛ فقد نهىٰ النبي ﷺ عن صوم الوصال، كما أنه جعل أفضل الصيام صيام داود، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ونهىٰ سعداً عن التصرف بجميع ماله في وجوه الخير؛ حتىٰ لا يترك ورثته فقراء، وقال له: «**الثلث والثلث كثير**». كما جعل الإيغال في صنوف التطوع والقربات نوعاً من الرغبة عن السنة كما في حديث الثلاثة المشهور. . . .

ونود أن نؤكد في باب الوسطية علىٰ نقطتين في طريق بناء المجتمع المسلم، هما الوسطية في المجال الاقتصادي، والوسطية بين الضبط والتوجيه.

أ ـ الشريحة الوسطىٰ علىٰ الصعيد الاقتصادي:

خلق الله ـ تعالىٰ الناس متفاوتين في إراداتهم وقدراتهم، وكذلك في الظروف التي يولدون فيها والفرص التي يجدونها في حياتهم وحوادث

---

(١) يقول الفقهاء: إذا سهر رجل في قراءة القرآن، وعلم أن سهره ذاك سوف يفوّت عليه صلاة الفجر عن وقتها كان آثماً في قراءته تلك لأن قراءة القرآن نفل؛ فلا يصح أن يكون أداء النفل مضيعاً لأداء فريضة.

الحياة التي يتعرضون لها؛ لإتمام الابتلاء وإعمار الأرض وإحداث تكامل الأنواع. وهذا كله مؤداه أن يكون الوضع المادي والمعيشي متفاوتاً بينهم. والإسلام شدد في المحافظة على الملكية الخاصة، وقرن حرمة الأموال بحرمة الدماء؛ فلكل إنسان ثمرات عمله وجهده وتدريبه. . . . وهذا واضح في أذهان الجميع.

ومع هذا فإننا نعلم أن الكيان الاجتماعي قائم على قاعدة من التوازنات العميقة؛ وينبغي الحفاظ على تلك التوازنات بعناية واهتمام؛ وإلا أصيب بالعطب والاختلال. ونحن نعتقد أن هناك مخاطر جدية تهدد المجتمع حين يتوزع أبناؤه على شريحتين كبيرتين: شريحة الفقراء المعدمين الذين لا يجدون ما يملؤون به بطونهم، كما لا يجدون مدارس لتعليم أولادهم ولا فرصاً لتحسين مستواهم المعيشي. . .

وشريحة ثانية يصل بها الغنى الفاحش إلى حد البطر وتبديد الإمكانات الاقتصادية المتاحة للبلد في غير الوجه المشروع. وشريحة ثالثة متوسطة صغيرة، تستطيع الحصول على الضروريات وبعض الكماليات. إن وجود هذه الظاهرة في أي مجتمعٍ كان يشير إلى خلل ما في علاقات المجتمع ونظمه؛ لأنها خلاف الأصل. فالناظر في حال مجتمعاتنا الإسلامية الأولى يجد أن الشريحة الوسطى لم تكن صغيرة، وإنما كانت هي الأوسع مع وجود شريحتي الأثرياء الكبار والفقراء المعدمين. والمجتمعات المتقدمة الآن هي أيضاً ـ في غالبها ـ على هذه الصورة، كما أن بعض المجتمعات الإسلامية تسودها كذلك الشريحة الوسطى اليوم.

والمشكلة التي تتمخض عن انعدام الوسطية في هذا الأمر كبيرة؛ حيث يصبح الفقير ذليلاً ضعيفاً، ويورث ذلك ـ غالباً ـ إلى أبنائه؛ فلا يستطيع تعليمهم ولا تغذيتهم ـ بشكل كاف ـ ولا ترفيههم. ويؤدي ذلك إلى انحسار مكانتهم الاجتماعية وشل فاعليتهم ونشاطهم؛ لأن الإنسان يصعب عليه أن يتقدم في حالات الفقر المدقع؛ حيث يفقد أرضية الانطلاق؛ كما أن ذلك يؤدي إلى بذر روح الشقاق الثقافي والاجتماعي؛ فيسود الحقد

والحسد والرغبة في الانتقام إلىٰ جانب التذلل والعبودية والخوف. . . .

أما الشريحة الأخرىٰ فإن ما تحصله من المال والثراء العريض يساعدها علىٰ أن تنفق بغير حساب فترتفع أثمان السلع، ويزداد الفقراء تضرراً. وإلىٰ جانب هذا فإن المنتسبين إلىٰ هذه الشريحة يشعرون بالإشباع المادي، فلا يبقىٰ أمامهم أهداف سامية يحققونها. وربما استخدموا إمكاناتهم المادية، وما تحققه لهم من مكانة ونفوذ في الخروج علىٰ النظم المعمول بها؛ فيسهمون مرة أخرىٰ في إحداث الخلل في الحياة الاجتماعية. ويؤدي ثراؤهم العريض ـ في كثير من الأحيان ـ إلىٰ تسريع حركة المجتمع وتطوره؛ فيدخلون قيماً جديدة بشكل متسارع؛ فلا يتمكن المجتمع من هضمها وأقلمتها مع رمزياته المختلفة؛ مما يخل بالاستقرار الاجتماعي، وربما أدىٰ ذلك إلىٰ انقسام في الوعي.

وهذا كله يحدث غالباً من أخذ المجتمع ببعض (الكتاب) وترك بعضه الآخر فإذا استمرأ الفقير الراحة والكسل، ورضي بما يسد الرمق، وترك العمل المتاح فإن ذلك يؤدي إلىٰ تفويت فرص كثيرة من الخير عليه. وإذا ما عمل الثري ونصب وأخذ بالأسباب، وجمع الأموال الطائلة، ولم يؤدّ حق الله ـ تعالىٰ ـ فيها وحق الأرحام وحق الدولة والمجتمع؛ فإن ذلك سيؤدي إلىٰ ضعف تداول الثروة بين الناس وانتفاعهم بها. وإذا ما قصّر المجتمع في تحجيم ذوي الدخل غير المشروع فإن عواقب ذلك ستكون وبالاً عليه وهكذا. . .

إن المطلوب ليس أخذ أموال الأغنياء وإعطاءها للفقراء؛ فذلك لا يصح؛ لكن المطلوب هو حث الفقير علىٰ العمل والكسب، وتهيئة الفرص المتكافئة لأبناء المجتمع كافة من خلال العدل والإحسان والوقوف إلىٰ جانب الضعفاء والعجزة والمصابين وذوي الظروف الصعبة والعاطلين عن العمل ومساعدتهم علىٰ الحصول علىٰ الضروريات بما يحفظ كرامتهم إلىٰ أن يجدوا الفرص المناسبة لحياة كريمة. والمجتمع بكل فئاته ومؤسساته مطالب اليوم بأن يتدبر هذا الأمر وأن يساهم في إيجاد الوضعية الصحيحة.

ب ـ المجتمع بين الضبط والتوجيه:

الحالة الاجتماعية الناجزة نتاج عاملين، هما: التجانس الثقافي والرقابة الاجتماعية.

والتجانس الثقافي هو حصيلة كل أشكال التنشئة الاجتماعية ومضامينها. أما الرقابة الاجتماعية فهي: مجموعة الأنظمة والمعايير والأعراف والتقاليد التي تجعل السلوك الاجتماعي العام يبدو متجانساً ومنسجماً.

والأصل في المجتمع المسلم أن يؤمّن استقراره وتجانسه وتضامنه الروحي عن طريق تجانسه الثقافي، وما يتمتع به من مؤسسات وسيطة، وما تجذر في قلوب أبنائه من حبهم لمجتمعهم ورغبتهم في الاندماج فيه.

أما العقوبات والجزاءات وأشكال النبذ الاجتماعي؛ فهي لا توجّه في العادة إلا إلىٰ أولئك الذين حرموا من تنشئة اجتماعية سوية، وأولئك الذين لم يستطيعوا الاندماج الطوعي في المجتمع وتمثل قيمه ومعاييره، وإلىٰ ذوي الظروف الخاصة.

وحين تعجز الأنظمة الاجتماعية عن مطابقة سلوك الأفراد مع القيم الاجتماعية السائدة، فإن ذلك يدل علىٰ وجود نوع أو أنواع من الخلل الخطير في الحياة الاجتماعية. وإن كثيراً من المجتمعات لا تهتم بالأمر؛ فلا تفكر في تفعيل التربية، ولا تعيد النظر في وسائل الضبط الاجتماعي لديها. . . .

وهذه المجتمعات لا تستحق أن تسمىٰ مجتمعات؛ فهي إما تجمعات لم يكتمل تكوينها بعد، وإما مجتمعات متكاملة آخذة في طريقها إلىٰ التحلل؛ لكن الكلام هنا ليس علىٰ ذلك؛ وإنما علىٰ ما يجري في كثير من الأحيان من توجه اهتمام كثير من المجتمعات إلىٰ الاهتمام بالتربية والتوجيه مع ترك الحبل علىٰ الغارب وإفساح المجال للحرية الشخصية إلىٰ أبعد حد؛ وما تفعله بعض المجتمعات من الاتجاه إلىٰ إصلاح شأنها من خلال

تغيير النظم واستخدام القمع؛ فتبقىٰ المدارس علىٰ حالها؛ لكن يجري التوسع في إقامة السجون وتشديد الرقابة علىٰ الناس. وتسود المجتمع آنذاك حالة من التوتر الشديد فيما يشبه الحرب الباردة.

والوسطية الإسلامية في هذا الشأن تقوم علىٰ ضرورة توسيع العمل في كل ما يؤدي إلىٰ بلورة (العقائد الأساسية) في أذهان أبناء المجتمع وإشاعة القيم الخيرة والتضحية في سبيل إبرازها علىٰ هيئة نماذج حية يقتدي بها الناس.

ويتم إلىٰ جانب ذلك استخدام العقوبات الصارمة ضد كل من يجاهر في القيام بأعمال من شأنها تهديد السلامة العامة للمجتمع، أو يرتكب أعمالاً شنيعة من شأنها تفويض الأسس العقدية والأخلاقية للبنيان الاجتماعي.

ورؤية الإسلام لاستخدام الجانب التربوي والتوجيهي في المحافظة علىٰ المجتمع الإسلامي بشكل مكثّف وقوي تنبع من ثقته بالفطرة وبالإنسان وبالأثر البالغ للتربية والتنشئة الصالحة في استقامة الناس.

أما قضية العقوبات والنبذ والرقابة الاجتماعية فإنها تشكل الشق الثاني للرؤية؛ فالحدود والعقوبات والتعزيرات الجزائية لا تنشئ مجتمعاً؛ لكنها تحميه، وتصونه من عبث العابثين. فلا جدوىٰ كبيرة للعقوبات الصارمة دون تربية قويمة وظروف طيبة صالحة لإقامة مجتمع الخير. كما أن التوجيه وحده لا يجدي مع فئات الشاذين والمجرمين وقطاع الطرق، فلا بد من الحسم والعزم. وقد شرعت دول عديدة ـ منها أمريكا ـ في تطبيق عقوبة الإعدام بعد أن كانت تشنع علىٰ المسلمين استخدامها، حين وجدت أن التوجيه وحده لا يضمن سلامة المجتمع.

وهذه المعادلة التي ذكرناها واضحة جداً في القرآن الكريم؛ فالمساحات التي احتلها الحديث عن العقوبات فيه لا تساوي إلا جزءاً يسيراً منه. وأكثر القرآن الكريم توجيه وصقل لنفس المسلم وعقله وتنمية لنوازع الخير فيه مع الترغيب والترهيب وقص أخبار السابقين. . . .

١٠ ـ من سمات المجتمع الذي نتطلع إليه أنه مجتمع قادر علىٰ القيام بشؤونه دون تدخل كبير من الدولة لمساعدته وحل مشكلاته. فالمجتمع الإسلامي يعرف فيه الناس حقوقهم وحقوق غيرهم، كما يعرفون الواجبات الملقاة علىٰ كواهلهم؛ ومن ثم فالأصل أنه مجتمع محدود المشكلات، وتربية الفرد فيه ليست مكلفة؛ ثم إن هذا المجتمع لما يملكه من روح المبادرة إلىٰ الخير والفعالية الروحية والاجتماعية قادر علىٰ تنظيم كثير من شؤونه وإقامة المؤسسات التي تخدم أبناءه. فمن خلال أعمال الوقف والبر والإحسان يبني المساجد والمدارس والكليات والمكتبات والمشافي ودور كفالة الأيتام وكبار السن، كما أنه يقوم بحل نزاعاته بالطرق الودية الأهلية دون حاجة كبيرة إلىٰ القضاء.

ويقوم المجتمع الإسلامي عن طريق المشاركة الفعالة من أبنائه بالمساهمة في إشادة المرافق العامة التي يستفيد منها الجمهور العريض كما يقوم بحمايتها والمحافظة عليها. ومع أن كل هذه الأمور نسبية إلا أنها تظل مؤشراً حياً علىٰ مدىٰ الخيرية والفاعلية التي يتمتع بها المجتمع المسلم.

وحين يفعل المجتمع ذلك فإنه يحل إشكالات كثيرة؛ إذ تتسع فيه مساحات العمل الطوعي المجاني لحساب تفرغ الدولة للقضايا الكبرىٰ التي تعجز المؤسسات الاجتماعية عن مباشرتها.

أما حين يكون المجتمع مادياً بعيداً عن هدي السماء وغير مكتمل النضج؛ فإنه يصبح كلاً علىٰ الدولة، يريد منها أن تفعل كل شيء! وذلك إن تحقق يحمل الدولة أعباء كثيرة تثقل كاهلها، ويجعل تدخلها في حياة الناس أكثر وروداً، مما يثير النزاع والمشاكسة والتوتر في الحياة العامة. ولنا فيما حدث في مجتمعات المعسكر الشرقي عبرة وأية عبرة!!.

وسمة قيام الناس بأكثر أمورهم كانت بارزة جداً في المجتمعات الإسلامية الأولىٰ، علىٰ نحو ما نجده في زمان صلاح الدين الأيوبي مثلاً. وينبغي أن نوجد كل الأسباب والآليات التي تحرك كوامن الخير لدينا، وتوظفها وتستثمرها من أجل صالح الجماعة كلها.

١١ ـ إن من أهم مشكلات المجتمعات النامية أن الإنتاجية فيها ضعيفة، فحركة الفكر واليد فيها بطيئة. ومردود أعمالها متواضع، ومقدرتها علىٰ إنتاج المصنوعات والتقنيات المتقدمة والمعقدة محدودة جداً. وهذا جعل الفقر والحاجة سمة أساسية من سماتها.

والحقيقة التي ليست موضع جدال أن ندرة السلع والخدمات في المجتمعات الإسلامية تظل مصدراً من مصادر التبعية والتوترات الداخلية، كما أنها تجعل تأهيل المسلم وتدريبه ليعيش عصره، ويسهم في تطويره بفاعلية عسيراً ومحدوداً؛ ومن ثم فإن من أهم ما علىٰ المجتمعات الإسلامية أن توفره لأبنائها القيام بتدريبهم وصقل فاعليتهم ليضاعفوا إنتاجهم؛ ويرفعوا من سويته؛ حتىٰ نتمكن من تحقيق الكفاية؛ وحتىٰ نتمكن من البذل في سبيل نشر الدعوة، والتمكين للإسلام في الأرض. وإن فهم العصر الذي نعيش فيه ثم محاولة تسخير طاقاته وإمكاناته والتحكم في توجهاته، كل ذلك رهن بأن نكون علىٰ مستوىٰ هذا العصر في إنتاج أفكاره وآلاته وخدماته وتصديرها واستهلاكها علىٰ نحو متميز. ولن نستطيع أن نكون شهداء علىٰ الناس، وأيدي الجياع من أبنائنا ممدودة لاستجداء العالم شرقاً وغرباً!.

وإن هناك أمرين عظيمي الفائدة في باب رفع الكفاءة الإنتاجية، هما استغلال الوقت علىٰ النحو الأكمل، والثاني: إعداد المسلم وتدريبه وتأهيله ليمارس عملاً جيداً يكون مردود إنتاجيته عالياً يعود عليه وعلىٰ أمته.

والأول متاح لكل الناس. والثاني يحتاج توفيره إلىٰ إمكانات، وقبلها إلىٰ اهتمام. وعلىٰ الله قصد السبيل.

الخاتمة

ليست الأفكار التي سطرناها في هذا الكتاب مشروعاً حضارياً، ولا هي مقدمات له؛ وإنما هي جملة من المفاهيم والملاحظات والتأملات التي نرىٰ أن بإمكانها فتح بعض الآفاق علىٰ طريق تحسين واقع الأمة والنهوض به.

والملاحظ علىٰ كتابنا هذا قلة الأمثلة في مواضع كثيرة منه. وهذا أمر أملته طبيعة الموضوع؛ فإن الفكرة تظل في كثير من الأحيان مرفرفة ومعطاءة ما لم نعمد إلىٰ تقييدها بمثال. فكأن الأمثلة تحجم من إيحاءات النص، وتوقف بعض تدفقه في توليد أفكار جديدة. وعلىٰ كل حال فإن ما أوردناه من أفكار لا يمثل معطيات نهائية في كل موضع. وربما اقتضىٰ نمط الكتابة والطرح الذي مارسناه هنا شيئاً من إطلاق العبارة أو التجوز فيها؛ فنأمل أن يلتمس القارئ الكريم العذر إن بدت بعض التعبيرات مستغلقة أو يتبادر إلىٰ الذهن غير المراد منها.

وبعد فما كان في هذا الكتاب من خير وصواب؛ فمن فضل الله وتوفيقه. وما كان فيه من خطأ وسهو وتقصير فمن نفسي. وأستغفر الله وأتوب إليه. وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

جريدة المراجع

١ ـ الاجتماع ودارسة المجتمع: د.كمال الدسوقي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط أولى، ١٩٧١م.

٢ ـ أزمة المثقفين تجاه الإسلام: د.محسن عبدالحميد، القاهرة، دار الصحوة للنشر، ط أولى، ١٤٠٥هـ.

٣ ـ أسس لإعادة البناء الاجتماعي: تأليف برتراند راسل، ترجمة د.إبراهيم النجار، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط أولى، ١٤٠٧هـ.

٤ ـ اغتيال العقل: د.برهان غليون، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط ثانية، ١٩٨٧م.

٥ ـ الإنسان بين الجوهر والمظهر: تأليف إريك فروم، ترجمة سعد زهران، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ط أولى، ١٤٠٩هـ.

٦ ـ الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل، ترجمة شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف، ط ثالثة، ١٩٨٠م.

٧ ـ التخلف الاجتماعي: د.مصطفى حجازي، بيروت، معهد الإنماء العربي، ط سادسة، ١٩٩٢م.

٨ ـ تدهور الحضارة الغربية: ل(أسوالد إشبنغلر)، ترجمة أحمد الشيباني، بيروت، مكتبة دار الحياة، بدون تاريخ.

٩ ـ التراث والمعاصرة: د.أكرم العمري، كتاب الأمة، الدوحة، ط أولى، ١٤٠٥هـ.

١٠ ـ تربية الأطفال في رحاب الإسلام: تأليف محمد حامد الناصر وخولة درويش، جدة، مكتبة السوادي، ط ثانية، ١٤١٢هـ.

١١ ـ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: د.ماجد الكيلاني، دمشق، دار ابن كثير، ط ثانية، ١٤٠٥هـ.

١٢ ـ التعليم والثقافة كحاجات أساسية في الوطن العربي: ورقتا عمل مقدمتان من د.سعيد علي ود.هاني الراهب إلى الحلقة النقاشية الثانية عشر في المعهد العربي للتخطيط، دمشق، دار طلاس للدراسات والنشر، ط أولى، ١٩٩١م.

١٣ ـ جدلية التخلف والتنمية: د.غسان بدر الدين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط أولىٰ، ١٤١٣هـ.
١٤ ـ جريدة الحياة التي تصدر في لندن: العدد ١١٠٩٠ والعدد ١١٣٧٦.
١٥ ـ جريدة الشرق الأوسط التي تصدر في لندن: العدد ٥٦٥٦ والعدد ٥٥٦٨.
١٦ ـ جريدة (المسلمون) التي تصدر في لندن: مقالات من أعدادها الصادرة في ٢١/ ٢/ ١٤١٤هـ و٢٤/٨/ ١٤١٤هـ و٧/ ٥/ ١٤١٤هـ.
١٧ ـ دراسات في المجتمع والثقافة الشخصية: د.علي جلبي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٤هـ.
١٨ ـ فلسفة التربية: أوليفيه روبل، ترجمة د.جهاد نعمان، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط ثالثة، ١٩٨٦م.
١٩ ـ القيادة والتغيير: تأليف بشير شكيب الجابري، جدة، دار حافظ، ط أولىٰ، ١٤١٤هـ.
٢٠ ـ المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري: د.محسن عبد الحميد، الدوحة، كتاب الأمة، ط أولىٰ، ١٤٠٤هـ.
٢١ ـ مستقبلنا المشترك: إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، ترجمة محمد كامل عارف، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ط أولىٰ، ١٤١٠هـ.
٢٢ ـ مقدمات جديدة في مشاريع البعث الحضاري: د.سيد دسوقي حسن، القاهرة، نشر نقابة المهندسين.
٢٣ ـ مقومات المجتمع المسلم: د.فاروق الدسوقي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ثانية، ١٤٠٦هـ.
٢٤ ـ ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر: نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، سنة ١٤٠٧هـ.
٢٥ ـ نصر بلا حرب: ريتشارد نيكسون: إعداد وتقديم محمد عبد الحليم أبو غزالة، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط أولىٰ، ١٤٠٩هـ.
٢٦ ـ نظام الطائفية من الدولة إلىٰ القبيلة: د.برهان غليون، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط أولىٰ، ١٩٩٠م.
٢٧ ـ نقد السياسة: د. برهان غليون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. ثانية، ١٩٩٣م.
٢٨ ـ نهاية التاريخ وخاتم البشر: فرانسيس فوكوياما، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط أولىٰ، ١٤١٣هـ.
٢٩ ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: تحقيق د.محمود الطناحي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

فهرس الأفكار والمقولات العامة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة